العراق

دولة المنظمة السرية

حسن عليوي

العراق
دولة المنظمة السرية

حسن علوى

صورة العراق فى أروقة النشر الدولى مسلة للشرائع التى يدونها ملوك بابل على الطين .

وصورته فى التراث العربى دار السلام تفيض بعبقريات الحضارة العباسية

وفى اسفار الجغرافيا لم يتانس واديه الا وادى النيل فاذا زاره هيرو دوتس كتب فى تاريخه عن ورقة الشعير التى بحجم اذن الفيل .

وفى الواح البورصة كان الشعير العراقى صنوا للمعادن الثمينة ، مثلما اصبح النفط فيما بعد .

وبغداد التى ترعرعنا فى ازقتها وبساتينها سهرة على عتبةالدار واطفال يلعبون فى بساتين النخيل لعبة اللصوص والحراس .

والمقهى البغدادية غناء عباسى وشعر وسياسة ، فهنا مقهى للرصافى وعلى مرمى الحجر مقهى للزهاوى ولطلاب الاداب مقهى .. وعشرون صحيفة وعشرة احزاب وعشرات الباصات ذات الطابقين التى لم تعرفها عاصمة عربية تمرح بها شوارع بغداد مثلما يمرح دجلة بقوارب الصيد وزوارق التسيارة .. والتسيارة عادة عباسية حيث ينزل البغداديون الى نهرهم وفى كل زورق عائلة تغنى فى طريقها الى ساحل رملى تقيم عليه موائد السمك المزكوف وتقضى سهرة الخميس .

لكن صورة العراق اليوم شىء اخر .

لا شعير فى معلف الاغنام .

ولا سمك فى دجلة ، لكن دماً ينضح على شط العرب ومفكراً مشنوقاً بالعمامة الاسلامية ولفافات سردا ، لبقايا أمهاتنا فى الشوارع المهجورة وحديثا تضيق به سطوح الصحف وتعب البرلمانات عن غاز الخردل ومزارع السموم .

اما النزول الى النهر ، فحيث تطل قصور الرئيس والمسترطنين القادمين من القرى المعزولة على دجلة يصبح الغارب مصدرا للخطر والنار تطلق بلا انذار سابق .

لعل العراق البلد النفطي الوحيد الذي لاتشم في شوارعه رائحة النفط فلا ماس ولا حرير ولا كاديلاك الا للمسترطنين الجدد ولقليل من الحاشية .

والعراقيون اسرى في كل حال .

اسرى في الحرب واسرى في موقف الباصات واسرى المنازل والمقاهي خالية والسفر ممنوع الا في حالتين :

ان ترمي عائلة عراقية وراء الحدود تنفيذاً لقانون التهجير .. او ان يكون المسافر حاملا ورقة للتحويل الخارجي او امراً قيادياً في مهمة خاصة !

ان منظمة سرية كان يبشر بها طلاب حسنر النية تحولت الى قوة سياسية ذات قدرة عالية على التخريب المنظم .

، فانهزم امامها البابليون توارث عن الانظار مشاهد الحضارة العباسية وانهارت اهرام القمح ومشى الخوف الى الازقة القديمة ولم يعد الاطفال يلعبون لعبة اللصوص والحراس .

هذه المنظمة اسقطت قوة الماء ، وقوة النفط ، ومزقت تاريخ الطبري .

ولهذه المنظمة أب روحي جاء يحمل الى دار الخلافة العباسية علبة افكار استشراقية فاحتشد في العلبة اتباع يأكلون لحومهم ولحوم الاخرين .

واعجب مبشير عنق ابو المنظمة ، ابنه البار صدام حسين ، ترأم المنظمة المتحد معها بالسايكولوجية والسلوك ، فلم نفرد له فصلاً .

انه كل الفصول ! . ولك ان تستبدل اسمه بالمنظمة واسم المنظمة باسمه .

وقد صار له او لها قصر جمهوري وجيش نظامي وجيش غير نظامي ، وجنرالات وسفراء ومصارف وطائرات تنقل الى مدن العالم المكلفين بالمهمات الخاصة .

هذه المنظمة أكلت الجيش العراقي العريق بأعرافه التركية وتعاليمه البريطانية .

قادت المنظمة السرية اكثر من انقلاب واكثر من مجزرة محلية وركبت

ظهر السلطة مرتين وشنت الحرب على ايران واقدمت على غزو الكويت بعد ان افرغت العراق من الاحتياطي الفكري والاحتياطي المالي .

وفي تجربة المنظمة السرية شيء من تجربة المماليك وشيء من تجارب عصرية لجماعات سرية لاتعمل في السياسة .

ان هذا الكتاب رحلة في تاريخ المنظمة وشاهد على مشاهد الصورة العراقية بصخبها وضجيجها وجوعها ودمائها .. وقد امتزجت الرؤية الفكرية بالرؤية الشخصية وتحولت يوميات صحيفة الى شهادات للتاريخ .

لكن ماينبغي الاشارة اليه ان الكتاب محاولة لفهم النظام السياسي العراقي على ضوء نظام ثالث لا هو عسكري ولا هو مدني .

ان نظام دولة المنظمة السرية طراز جديد من انظمة الحكم . والخطر ليس في استمرار نظام كهذا على قيد الحياة نحسب ولكن في أن يشكل سابقة ناجحة ومثالاً تحتذى به حركات سرية تسعى الى السلطة من تحت الارض .

ولهذا فان مايستهدفه الكتاب ليس فقط التحريض المشروع على دولة المنظمة السرية بقدر التحذير من انتشار منظمات سرية مماثلة .

واذا كان العمل السري ضرورة يلجأ اليها السياسيون الذين يخفقون في الحصول على اعتراف رسمي او خلاصا من القمع والمطاردة ، فان تشكيل السلطة الجديدة ينبغي ان يكون على مبادىء لا تجعل العمل السياسي المخالف لرأي السلطة فعلا جنائياً ، وعندها لاتصبح الاقامة تحت الارض مبررة او مقبولة الا اذا كانت نوايا القيمين في العمل السري استمراراً لنوايا المنظمة الحالية الآيلة للسقوط .

« قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد . فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون » النحل - الاية [٢٦] .

حسن العلوي

لندن — تشرين الثاني ١٩٩٠م

جذور المنظمة العراقية

التبشير السرى

لغات التبشير

سداسية القيادة

الظهـــور الأول

التبشير السري

هل يكفي تنظيما سياسيا ان يحظى باتباع متحمسين بأعمال التبشير لكي يتحول بعد عشر سنوات من ظهور اول مبشر له في بغداد الى حزب حاكم ؟!

اليس هذا الذي يتبجح به كتاب تناولوا تجربة حزب البعث في العراق ، وركزوا على اعمال المبشرين . كسبب لنجاحاته في الانتشار واقامة السلطة ، اليس هذا تبسيطا متناهيا في سذاجته ، لتحليل مايعد سببا لبناء قواعد حزبية اساسية في العراق ، تتلقى تعاليمها وافكارها من شخص ،لاتساعد حتى مفردات اسمه اللفظية ، على ان يكون له اتباع ومريدون في بلد لصيق بأعراف القبيلة ومحشور بأحزمة الانمة في العراق ؟!

ام ان الطلاب القادمين من لواء الاسكندرون ، للدراسة في بغداد اواخر الاربعينات ، وبداية الخمسينات وضعوا في اذهانهم ان احاديثهم القومية المبسطة الى زملائهم العراقيين ، ستنتج حزباً ومنظمة انجزت كل هذه الادوار السياسية وقادت بلدا يوصف بالصعب القياد والمعقد التركيب ، والذي يشكو هيكله الاجتماعي من عدم التجانس والانسجام بسبب تعدد مكوناته السكانية وتوزعهم على عناصر ومذاهب شتى .

فهل كان طالب كلية الهندسة الصامت الخجول فؤاد احمد الركابي القادم من مدينة الناصرية الجنوبية يتصور ان يؤسس مع طالب كلية الطب ، الطيب القادم من ضريح الامام علي في النجف تحسين معلة ، وثالث هو شفيق الكمالي الطالب في كلية الاداب ، وزملاء آخرين ، حزباً سيذبح ـ بعد عشر سنوات ـ زملاءهم الذين طالما دخلوا معهم في مناقشات ، تنتهي بانتصار الفريق الاخر والمسلح بالنظرية الماركسية دون ان ينسحب الفريق المهزوم من ساحة المساجلة ، والذي سيجعل من عدم اكتمال نظريته وشمولها ، سبباً للهجوم على الطرف الاخر حامل النظرية الكاملة .

لقد استخدم البعثيون الاوائل الضعف الواضح في نظرتهم كعامل قوة في الهجوم على الماركسيين حاملي النظرية الجاهزة والمعلبة في رزم قادمة من الخارج.

وينسى البعثيون ، وباصرار على النسيان انهم اتباع ومؤيدون لميشيل عفلق ، القادم هو الاخر من فرنسا الى الشام حاملا علبة افكار استشراقية .

ان البعثيين الاوائل ، كان ممكنا ان يخسروا في اول جولة سجال مع زملاء لهم يتمسكون بنظريتهم الدينية التي لايتجرأ منتقدوها على اتهامها بالقدوم من

الخارج، لولا ان تكون الجماعات الدينية محشورة انذاك فى زاوية غير سياسية او انها سياسية محسوبة على السلطة .

وقد ساعد تكريس حملة بسارية على الجماعات الدينية . ان بعض رجال الدين كانوا يعملون فى برنامج يحذر من انتشار الافكار اليسارية ، فاعتبروا دعاة ناطقين برغبة الاجهزة الامنية المعادية للحركة الوطنية .

لاشك ان البعثيين الاوائل كانوا يحملون افكاراً معادية للاستعمار ، وكانوا مخلصين فى معارضة ارتباط العراق بحلف بغداد . وكان من اسميه « بجيل التاسيس » متشبعا بروح الثورة المصرية وبمبادىء مؤتمر باندونغ وبالدعوة الى الوحدة العربية .

ولما لم يكن لحزب البعث تراث نضالى وميراث وطنى فى العراق ، لجأ الى تبنى تحركات ، والشخصيات القومية والوطنية فى البلاد العربية ، مختفيا وراءها زمنا طويلاً مما ساعده على الظهور بمظهر قومى جميل..

ان تبنى ثورة الجزائر والوقوف مع الوطنيين المغاربة والدفاع عن حرية تونس ، ساعد الحزب على أن يبدو كبيراً فى الماضى وعميقاً فى التاريخ ، لا سيما وقد أوحى اتباعه أنهم يحركون الكثير من تلك الثورات والأحداث . وقد اعطى الموقف السورى للبعثيين العراقيين مابين عامى ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨م بعداً وطنياً وشدد من مصداقيتهم كرفض سورية الاشتراك فى حلف بغداد ، ومشروع ايزنهاور فى الشرق الاوسط ومواجهة الضغوط والحشود الاجنبية على حدودها .

لكن اياً من مؤسسى الحزب فى العراق لم يرسم فى مخيلته صورة لحزبه فى اللقطة التى هو عليها .

ولم يكن فؤاد الركابى الذى ظهرت عليه ملامح قيادية مبكرة ، يتوقع يوماً انه سيكون ممثل الحزب وعمره انذاك ٢٨ عاما ، فى اول واهم تشكيل وزارى ظهر فى تاريخ العراق السياسى الحديث يوم ١٤ تموز ١٩٥٨م وحتى ذلك الحين لم يكن الركابى يفكر بأن حزبه سيقود السلطة العراقية فى يوما ما .

فهل كان سيتصور ان يصبح الرجل المطلوب والمطارد من قبل سلطة الحزب ؟ وان يطعن بسكين الحزب ، وهو رهن الاعتقال ، وقدغُرست فى نحره ، وفى قلبه الذى كان يعده قلبا يتسع لكل البعثيين .

ولم تكن النتيجة التى أل اليها زميله شاعر الحزب الاول شفيق الكمالى ، افضل مما كانت عليه نتيجة الركابى مع حزبه .

اما تحسين معلة رجل المنظمة القديم ، والذى لم يدخل الى اسرارها ، فمازال فى منفاه الانكليزى يشتم الانكليز ويعانى من ضغوط نفسية ، لاتعادلها الا

الضغوط الاقتصادية والخشية من كاتم الصوت .

اما انا فمع انى لم ادخل صميم الحياة الحزبية فقد اتصلت بحزب البعث بطريقة وبأخرى منذ اواسط الخمسينات ، ولم يغادر عمودى الصحفى منذ عام ١٩٥٨ حتى خروجى من العراق عام ١٩٨٠م دائرة التبشير الحزبى رغم ان شريطا من اسماء البعثيين الاوائل ، كان ينتصب امامى . قتلى فى طور التنفيذ وقتلى فى طور الانتظار .

واذ كان مناضلوا الاحزاب الوطنية هدفا لسلطة تطاردهم ، فلم تكن السلطة الملكية معنية بمطاردة البعثيين الاوائل الا اشتباها بأنهم من اتباع حزب يسارى اخر ، لكن البعثيين صاروا اهدافا سهلة لسلطتهم الحزبية التى اعتادت ان تدعوهم لاجتماع حزبى استثنائى ، فتتحول قاعة الاجتماع الى مصيدة فئران ، تنتهى بمجزرة حزبية !

فاذا كان ذلك امرا شاذا فى سياقات المنطق ، وغريبا على طبيعة العلاقات الانسانية ، فالاغرب ان يصير العراق قاعدة اساسية لافكار وتنظيمات ميشيل عفلق .

فماهى الوسائل التى استخدمت معنا والتى استخدمناها مع العراقيين فى الوصول الى النتائج الاخيرة ؟

سأشير الى تنوع الخطاب الحزبى وتعدد لغات الحزب فى حملة التبشير دون ان اقرر او اقر انها هى التى اثمرت قيام تنظيم ، كالتنظيم الحالى فى العراق .

ففى توازنات دولية معقدة ومصالح اقليمية ودولية متعددة . وفى بلد رابض على بحيرات النفط ، لايعقل ان تتحقق حملة تبشيرية كل هذه النجاحات . فينتزع الحزب بسهولة مطلقة ، السلطة المطلقة من زعيم شعبى وعسكرى كعبد الكريم قاسم ، وان تسقط سلطة الحزب فى وحل الدماء وتطرد بانقلاب عسكرى من داخلها ، ثم يعود الحزب بطاقمه العفلقى - وقد لفظ اليسار - الى السلطة ثانية !

لو بقى البعثيون طلابا والسلطة مدرسة مسائية لما استطاعوا الخروج منها ، والعودة اليها بهذه السهولة !

بيئة التبشير

نعود الى السؤال ذاته عن الوسائل التى استخدمت فى بناء قواعد اساسية للحزب فى العراق وسنجد ان الظروف الموضوعية لم تكن لصالح قيام تنظيم بعثي هناك .

ان البيئة العراقية غير صالحة ، ونكرر هذا مرة اخرى ، لنمو افكار كالتى يدعو

اليها ميشيل عفلق.

فالعراق دار الحضارة العباسية الاولى وموطن الائمة وفيه مدافن قريش .. الامام علي ..ابنه الحسين .. ابنه العباس واثنان من احفاده في الكاظمية . واثنان من احفاده في سامراء ، والعراق موطن الزبير والمسيب القزراي والامام ابي حنيفة بن النعمان والامام احمد بن حنبل والامام الغزالي وفيه مراكز ومدافن شيوخ الاسلام كعبدالقادر الكيلاني والشيخ معروف الكرخي والشيخ جنيد .

والعراق لانه يشرف على الصحراء وتدخل الصحراء الى بطونه الغربية والجنوبية ظلت اعراف القبيلة سيدة الاعراف فيه حتى وقت قريب ولاظن ان اعراف القبيلة هذه ستقبل بميشيل عفلق عضوا فيها فكيف حدث العكس ؟ وانتمى ابناء القبائل العربية المتعصبة الى حزب البعث ليكونوا اتباع ميشيل عفلق لا اتباع شيوخهم .

وفي العراق جيش محترف نشأ في احضان العسكرية التركية الصارمة وتربى في احضان العسكرية البريطانية المنضبطة . قبل ان يستقل ، ومعه بضعة الاف ضباط يرددون اليوم انهم اتباع المنظمة السرية متجاهلين ان تقاليدهم غير تقاليدها وان اشتركوا في هدف واحد .

لقد اكلت المنظمة الجيش العراقي والتهمت ضباطه واعرافه ، كما تلتهم قطع السندويش . فاين هم ضباط العراق الذين انشغلت وتنشغل بأماديحهم قصائد الشعراء وبيانات الاحزاب السياسية ؟

والعراق بعد هذا ليس ساحة شاغرة تنتظر وصول منظمة ميشيل عفلق لتملىء بالقواعد الحزبية .

ان حالة واحدة في التاريخ تدعم نجاح تجربة المنظمة السرية في العراق وتتمثل بتجربة المماليك .

لقد جاء المماليك كما جاء ميشيل عفلق من بلاد غير عربية وغير اسلامية وتربوا في احضان الباشوات الاتراك ، وكان معظمهم غلماناً معروضين في سوق النخاسة او مختطفين من بلادهم ، قبل ان يدخلوا في خدمة الباشوات ويصبحوا ولاة العراق وسادة اهله فيقدم لهم شيوخ العراق وعلماؤه وشعراؤه ،فروض الطاعة ، وعندي ان لا فرق بين داود باشا وسليمان ابوليلى وسعيد باشا وبين ميشيل عفلق وممثلي حزبه في العراق ولو ان اعتراضنا سيصدر عن مؤرخين عراقيين او عرب يحتجون فيه على هذه المقارنة وقد تحول ، وهذا صحيح ، باشوات المماليك الى مسلمين صحيحي الاسلام .

لكن ذلك لايمنع من تطابق الممارسات اليومية وتشابه اساليب الحكم المملوكي

مع اساليب المنظمة السرية التى يقودها ميشيل عفلق فى العراق .

لغات التبشير السرى

استخدم البعثيون الاوائل عددا من لغات التبشير فى خطابهم اليومى ونجحوا فى تكليم الناس على قدر عقولهم ووفقا لاوضاع كل شريحة توجه اليها خطابات التبشير ومنها :

١ـ الخطاب الدينى :

يستنجد الحزب بالخطاب الدينى ويستخدمه بمهارة يفتقر اليها خطابه الدينى الحالى .

ففى ايام التأسيس الاولى من الخمسينات كان الحزب يواجه عقدة انتشار حزب سرى كبير هو الحزب الشيوعى العراقى وكان عليه ان يطرح خدماته امام الوسط الدينى من خلال التعريض بالالحاد الماركسى وموقف الشيوعيين من الدين فجرى التركيز فى تلك المرحلة على تبنى الطقوس الدينية والظهور امام الشعب العراقى بمظاهر متدين وقد اكدت تعليمات حزبية مشددة على ضرورة احتفاظ الجهاز الحزبى بمظهر دينى وان لم يكن الاتباع البعثيون متدينين لا سيما فى اعقاب ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فوجد رجال الدين املاً فى الاعتماد على البعثيين اتباعاً ينشرون الفتاوى الشرعية الصادرة ضد الشيوعيين .

وقد لجأ الحزب فى تلك الفترة الى طريقة تخلو من المثل المطلوبة فقد جرى اكثر من مرة تمزيق المصاحف واتهام الشيوعيين بذلك وكان يكفى لادانة المتهم اثنان من الشهود يبعث بهم الحزب الى المحكمة العرفية العسكرية فيقسم كلاهما فى القرآن كذباً ويصدر الحكم على متهم برىء وينشر فى الصحافة المحلية وقد حمل كل بعثى نسخته للتشهير بخصومهم السياسيين .

وكان الحزب قد وضع جدولا للفروق بين العلمانى والملحد بينما عكفت منظمات حزبية على اعداد حفلات المولد النبوى والتى كان كاتب السطور مسؤولا عن اعداد خطب وكلمات المتحدثين فى معظم تلك الحفلات .

فهل كان الحزب صادقا فى خطابه الدينى ؟ ام انه جعل من الشعار الدينى حاجزا يختفى خلفه من الساعات الحرجة ؟

ـ ان الجذر التأسيسى للحزب يقوم على فرضية الفصل بين الدين والحياة ان لم اقل على طرد الدين من الحياة وتبنى الفكر العلمانى ومقاومة المشاريع السياسية والفكرية التى تستهدف اعادة الاعتبار الى الدين كمصدر للتشريع

وكعقيدة انسانية [راجع تقرير المؤتمر التاسع للحزب] اما ان يصبح الحزب دينيا ويركز على الخطاب الديني كما يفعل الان وهو يمتثل فكريا وروحيا الى المرشد الايديولوجي والروحي ميشيل عفلق فهو امر يستغفل بل يستهزىء بالعقل العربي .

ان الذهن الاسلامي ومسامع المسلمين تنصرف الى الله او الى الاسلام او الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم كلما وردت كلمة هدى ويهدي وهادي وقد ذكرها القرآن في اكثر من ثلاثمائة آية ولا يعرف لا في التراث الاسلامي ولا في حياة المجتمع الاسلامي ان كلمة الدليل الامين يمكن ان ترتبط بغير شخصية النبي محمد [ص] وهكذا وردت في القرآن .. « اني لكم رسول امين » مكررة في خمس آيات من سورة الشعراء بينما تنصرف اذهان الاتباع الحزبيين الى ميشيل عفلق لا الى الله ورسوله حيثما وردت كلمتا الهادي والامين .

لقد تم في الخطاب العراقي اجراء تحوير اساسي في الدعاء الاسلامي ووضع المرشد الروحي للحزب وهو ميشيل عفلق موضع الله الذي وحده يضيء ظلمات الشك ويمنح الفيض للبشر .

لنقرأ الدعاء في العدد ٦٩٦٨ من جريدة الثورة الناطقة بلسان الحزب والصادرة في ٢٦ حزيران [يونيو] ١٩٨٩م وبتوقيع من رئيس التحرير .

[يامهندس روحي وسيد فكري ودليلي في دروب حياتي .

في ذروة الحيرة وقلة زاد الوعي وحيث يصعب على المرء ان يتبين الخيط الابيض من الاسود كنت الجأ اليك فاختار المكان الذي اخترت والموقف الذي وقفت فتخرجني من حيرتي وتضيء ظلمات شكي وتمنحني من الفيض مايضعني على الطريق الصواب . ويقودني الى ارض اليقين .

ايها الدليل الامين .

منذ نصف قرن وفكرك يسبق الدنيا الى الحقيقة فنم مطمئنا ايها المعلم الهادي. يامن كلماتك المنار الذي نهتدي به والظل الذي نستظل بأفيائه والضمانة التي تعصمنا من الزلل والانحراف]

لا اخفي عليك اني كنت اتوقع موجة من الاحتجاجات الصادرة من المراكز الدينية في الاقطار العربية والاسلامية ضد هذا التجاوز المباشر الذي يمس صميم العقيدة الاسلامية لكن ذلك لم يحدث وآك ان تضع جدية وحرارة هذا الدعاء الى جانب كوميديا الايات الشيطانية لترى ان الفرق هو فقط في حماس الدعاء العراقي . على مستوى الممارسة اليومية لسلطة الحزب في العراق ، وضع الحزب برنامجا واسعا لمصادرة الفكر الاسلامي ومطاردة اتباعه المخلصين حتى اولئك الذين في صفوف الحزب ممن يحملون نفسا دينيا او رغبة في كسر الحدة

العلمانية فى الحزب وتلطيفه بشىء من النفس الاسلامى .

والذى يبدو ان تصفية المفكر القومى منيف الرزاز الامين العام السابق لحزب البعث والذى اعدم فى العراق عام ١٩٨٠ توضع فى هذا السياق .

فقد حاول الرزاز اقامة نظام فكرى جديد للبعث العراقى اقل حدة فى معاداة الاسلام والتراث القومى .

وقد تأتى تصفية المفكر القومى عبدالرحمن البزاز الذى كان رئيسا للوزارة العراقية قبل انقلاب حزب البعث اواخر الستينات من قبل حزب البعث ضمن هذا البرنامج لانهاء ما يمكن ان يشكل اساسا لتعاون قومى دينى او عربى اسلامى بحكم نظرية البزاز التوفيقية القائلة بعدم تعارض الاسلام مع القومية العربية وبضرورة ان يتسلح القوميون العرب بروح الاسلام ومثله .

اما الطريقة البشعة التى اعدم فيها المفكر الاسلامى البارز محمد باقر الصدر فلعلها كانت السابقة التى لم يقترب منها نظام .

وتشير احصائيات الاتباع الاسلاميين الى ارتفاع هائل فى لوائح المبعوثين الى ساحات الاعدام . واذا كان فى بعضها مبالغة فان من الحقائق الثابتة ان اكثر من مائة عالم دينى وامام جامع قد اعدم بعباءته وعمامته .

كان الجانب الوحيد الذى حقق الحزب فيه نجاحا ملموسا ومصداقية واضحة بين الفكر والممارسة انما يتعلق بموقفه من الدين فقد نفذ وبطريقة مدهشة على ارض الواقع ماكان يبشر به دعاته العلمانيون ومخططو مشروعه التغريبى .

اعتقد ان هذا هو مادفع طارق عزيز لان يجيب بنعم كبيرة على سؤاله .. هل مات الاستاذ ميشيل عفلق راضيا ؟.

٢ـ الخطاب الطبقى :

ويستخدم فى الحالتين .. !

مع الفلاحين والعمال والفقراء الذين يؤسلهم الحزب بالاشتراكية حلاً لمشكلاتهم فيستعير المبشرون مصطلحات ماركسية خالصة فى مهاجمة الاقطاع والاستغلال والرأسمالية .

اما فى الحالة الثانية فقد كان البعثيون يحاورون شرائح برجوازية بان حزبهم لم يظهر الا لحماية المجتمع من المصادرات الاشتراكية التى يخطط لها الشيوعيون ويجرى التركيز هنا على اهمية الملكية الخاصة وحق التمتع بالارث وامتلاك الارض والعقار وحرية التجارة مستعيرين لغة رأسمالية صرفه مما ساعد على انتماء تجار وكسبة واصحاب رؤوس اموال الى الحزب او تمويل نشاطات الحزب .

الخطاب القومي :

استحوذ المبشرون البعثيون على الاقطاعية القومية في العراق التي كان يتصرف بها حزب الاستقلال ردحاً من الزمن والذي كان يفقد اجزاء من تلك الاقطاعية بظهور كل منظمة جديدة لحزب البعث في المدن والمحلات الشعبية وكان السلاح البعثي في الهجوم على مواقع حزب الاستقلال يتمثل في الدعوة الى الاشتراكية ووصف حزب الاستقلال بالبرجوازية وبالاسلوب الثوري الذي دعى اليه البعثيون مقابل الطريقة الدستورية لحزب الاستقلال لكن اتهاماً آخر وجهه البعثيون للاستقلال هو اقتصار نشاطه على القطر العراقي اي ان نظريته التنظيمية ذات طابع اقليمي بينما طابع التنظيم البعثي قومي .

واختفى البعثيون خلف عبدالناصر مابين عامي ٥٥ ـ ١٩٦١ وحصلوا بشعبية عبدالناصر على مواقع شعبية قبل ان ينقلبوا عليه .

ولان الشارع العراقي يستطيب الحديث القومي فلم يجد البعثيون صعوبة في التغلغل فيه .

الا ان الخطاب القومي لحزب البعث كان يخلوا تماماً من اية صلة بالميراث القومي العربي ولعل ذلك ناجم عن خوف ميشيل عفلق من ان تؤدي عودة البعثيين الى التاريخ العربي للقاء الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي .

من هنا تشكو ادبيات الحزب من فقر مدقع في وعي التراث فلم يرد في كل ما أصدره البعثيون من كتب ودراسات وابحاث وصحف بيت من الشعر العربي او اية من القرآن او حديثاً شريفاً او كلمة او خطبة لعلي .

الخطاب العلماني :

وفي محادثة الشباب يجري التأكيد على اهمية الحداثة والعصرنة والانفتاح على الحياة الغربية ونبذ القيم السائدة والدعوة الى حرية المرأة واختلاطها وهو حديث يجد صداه في نفوس الشباب لكن الحزب في تعامله مع مكونات المجتمع العراقي لم يكن علمانيا قط فقد كان السلوك البعثي مشحونا أوضار تركية تصنف الناس حسب مذاهبهم وعناصرهم فيما يركز الخطابي العلماني على ديمقراطية التعامل مع اطراف المجتمع .

لكن عاملا اخر في انتشار الحزب يتصل بطبيعة العمل السري ونشر الاتباع في الوسط الاجتماعي وهي صيغة لم تكن مألوفة في العمل السياسي .

كانت الاحزاب السياسية تستقبل نمطا خاصا من المؤهلين للعمل السياسي

كالمحامين والصحفيين وزعماء المحلات الشعبية وبعض شيوخ العشائر . ولتلك الاحزاب طقوس مستمدة من طبيعة الحياة البرجوازية لزعمائها حيث يخصص زعيم الحزب يوما فى الاسبوع يسمى [القبول] لاستقبال السياسيين وقليل من الصحفيين والمثقفين ، بمعنى انه ليس اجتماعا مفتوحا على غرار[الديوانية] فى بعض دول الخليج والتى تستضيف الشيخ والوزير والطالب والموظف الصغير .

ويتمسك الزعيم اليسارى واليمينى والحاكم والمعارض من الساسة العراقيين بأتكيت القبول بينما يجرى فى جانب اخر التشهير برجال الصالات فى الادبيات الشعبية والصحافة اليومية .

ومن يقرأ كتاب رفعت الجادرجى عن والده الزعيم الوطنى كامل الجادرجى وهو يستعرض طريقة حياته واسلوبه فى الحياة ومستوى زائريه يصاب بالدوار حتما .

فقد هاجم الجادرجى الاب زعيما وطنيا بارزا هو جعفر ابوالتمن وسخر منه لانه كان كما يدعى يشرب الشاى بصوت على الطريقة الشعبية .

فاذا كان جعفر ابوالتمن الوزير والملاك والزعيم والقائد لايصلح ان يكون زبونا محترما فى صالة الجادرجى فكيف يمكن للناس البسطاء امثالى ان يدخلوا صالته ويتحدثوا اليه فى همومهم او يستمعوا الى زعيمهم حتى يكتسبوا شيئا من المعرفة وشيئا من التلمذة .

ولهذا لم يكن لزعماء الاحزاب مريدون صغار الا فى حالات قليلة تقتصر على صحفيين يعملون فى صحف الاحزاب السياسية وبغير ذلك لايسمح اتكيت العمل السياسى بظهور تلامذة للزعيم سوى ابنائه وابناء عائلته .

فى جو كهذا يظهر تنظيم حزبى ليس له صالة ولا موعد ولا اتكيت ولا طقوس ولا من يتنصت على صوت شربة الشاى ولامن يراقب حركة الاصبع وزاوية السيكارة فى الفم . فى ظرف كهذا تبدأ منظمات حزبية سرية للشيوعيين والبعثيين نشاطها بين الطلاب والعمال وفى دوائر الدولة .

أى ان الحزب - وهذا جانب جدا مهم - هو الذى يأتى اليك لا انت الذى تذهب اليه .

لاتحتاج الى باص للركاب ولا الى نفقات نقل ولا موعد سبق ان سمح لك باللقاء ولا سماعة الهاتف تغلق ولا بواب يطردك من باب الزعيم .

الحزب يأتيك الى قاعة الدرس والى ساحة اللعب ويصعد معك الى السينما وينزل معك الى ساحل النار .

تسبح معه .. تاكل معه الكبة والكباب وتستمع واياه الى بساط الريح ويهزكما الجندول .

الحزب طالب مثلك عامل مثلك فلاح مثلك موظف صغير يعاني ماتعانيه .
والحزب نشرة دائمة تفتح لك مغاليق العالم وانت في قرية نائية فتفهم لماذا يختطف زعماء الجزائر الخمسة ولماذا تقصف بورسعيد ويعقد حلف بغداد .
وتمارس وانت طالب في قرية دور الزعيم السياسي في مقره على دجلة .

سداسية القيادة

وفي حزب البعث سداسية تنظيمية تقدم لك القيادة مع صحن الشاي وحيثما كنت طالبا ام عاملا ام فلاحا ام سائق سيارة .
في الشهور الاولى ستكون نصيرا ... ثم عضوا عندها تكون قائدا للانصار .
وستكون عضوا على مستوى الفرقة عندها تكون قائدا على الاعضاء وعندما تكون عضوا في الشعبة ستكون قائدا على اعضاء الفرقة واذا صعدت عضوا في الفرع صرت قائدا على اعضاء الشعبة .
حتى اذا بلغت القيادة القطرية صرت قائد الفروع والشعب والفرق والانصار لكن امامك موقعا اعلى عضوا في القيادة القومية اي قائد القادة في المنظمة القطرية .
انك في منظمة ميشيل عفلق ستتشبع قيادة ، ستكون قائدا دائما .
وانت في واقع الحال قد لاتملك حرية قدميك ولا حركة لسانك فهذه القيادات حكومات الواحدة تحكم الاخرى وانت في كل مرحلة منها محكوم بالاخرى غير انها تمنحك السطوة النسبية فحيث انت حاكم على الفرقة او الشعبة او الفرع ستطلب من شعبك المحكوم ان يتصرف معك في الوقت المناسب قائدا ولا بأس بعدئذ ان تكون في اليوم التالي ـ وحيث تلتحق بمنظمتك الحزبية العليا ـ محكوما .
ان الوقوف امام رجل المنظمة السرية الاول والذي قاد حركة المنظمة بجواره اصبح ضروريا قبل مواصلة البحث في دولة المنظمة العراقية .
اذ كان ميشيل عفلق هو الاب الروحي والتنظيمي للدولة العراقية القائمة حالياً .
فان صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية الحالي الابن البار الاجدر من تلامذة ميشيل عفلق لحمل رسالته ..

سلطة المنظمة الأولى

ديماغوجيا الظهور السياسى

انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣

صدام يطارد زعماء الحزب

انجب التبشير حزبا وصار الحزب عضوا فى جبهة الاتحاد الوطنى التى تشكلت عام ١٩٥٧م لمعارضة حلف بغداد وسياسة العهد الملكى . لكن اسم البعث لم يكن شائعا فى الاوساط العامة ولم تكن الحكومة الملكية معنية بملاحقة نشاطه . بل كان واضحا ان اجهزة الامن انذاك كانت تغض النظر عن نشاط البعثيين ، بينما يرى جناح فى السلطة الملكية ان حزب البعث ممكن ان يستخدم لمواجهة الحزب الشيوعى العراقى الذى تعتقد السلطة انه يشكل الخطر الاول عليها .

وقد لا اذهب بعيدا اذا ماادعيت ان تحالفا كان مترقبا مع حزب البعث ستقوم عليه السلطة الملكية لو طال بها الامد ولم تسقط بثورة تموز ١٩٥٨ . حيث اصبح البعث العراقى عنوانا للمعارضة القومية الشاملة والمنظمة ضد ثورة ١٤ تموز وسياسة الزعيم عبدالكريم قاسم ، وقد انتهج الحزب ومنذ الايام الاولى للثورة سياسة موالية لعبدالسلام عارف الشخص الثانى فى الثورة والذى تبنى خلافا لرأى الحكومة اصدار جريدة « الجمهورية » التى اشرف عليها البعث والتركيز على شخصية عبدالسلام عارف وتبنى شعار الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة .

من جهة ثانية لم يضع عبدالكريم قاسم حسابات او احتياطات او حتى اهتمامات تأخذ بنظر الاعتبار اخطار حزب البعث على السلطة . فقد نظر زعيم الثورة الى البعث باعتباره حزبا صغيرا لم يرتبط بالتراث الوطنى للشعب العراقى ولعل عبدالكريم قاسم فكر جديا ـ وضمن سياسة التوازنات ـ باستخدام البعث لمواجهة القوى المتنامية للحزب الشيوعى العراقى .

وفى الخامس من تشرين الاول عام ١٩٥٨ اى بعد مضى ثلاثة اشهر على قيام الثورة صدر قرار بتنحية عبدالسلام عارف عن منصبه كنائب لرئيس الوزراء ونائب القائد العام للقوات المسلحة ووزير للداخلية وتعيينه سفيرا فى بون . فوجد الحزب الشيوعى وبعض حكومة الثورة فى طرد عبدالسلام عارف فرصة لضرب حزب البعث وجرت مظاهرات شعبية اعدها الشيوعيون وحلفاء الثورة وهى تهتف [خمسة بالشهر ماتوا البعثية] كان اسم البعث حديثا على اغلب المسامع وقد تقدم الحزب الشيوعى وكانه جرير الافيال البعثية ودليل الركب ويوما بعد اخر ومظاهرة بعد اخرى كان اسم البعث يتردد لا على لسان اتباعه القليلين بل فى شعارات معادية له كان يرفعها المتظاهرون .

وكما اخطأ نورى السعيد اخطأ الشيوعيون وكما كان كل معارض للحكم الملكى

شيوعيا يفهم الشرطة السرية اصبح كل معارض لحكومة عبدالكريم قاسم بعثيا يفهم اللافتات والاهازيج الشعبية .

لقد استهدف عبدالكريم قاسم من ابعاد عبدالسلام عارف انهاء الضجيج الثورى والوحدوى غير القائم على شروط موضوعية . اما الحزب الشيوعى فقد كان يفهم الحادثة بشكل [افضل] ، انها فرصة لابعاد البعث . فاذا هى فرصة البعث لتحقيق وجود قوى ومستمر فى الساحة العراقية كان سببا فى انهاء عبدالكريم قاسم وماتبع ذلك من مشكلات مازالت تواجه الشعب العراقى .

واذ كان المتظاهرون يحتفلون بذكرى مرور عام على [موت البعثية] اهتز الشعب العراقى لبيان الحاكم العسكرى العام الذى اعلن يوم ٧ تشرين الاول عام ١٩٥٩ عن تعرض الزعيم عبدالكريم قاسم لمحاولة اغتيال . وكان البعثيون كما اكتشف فيما بعد وراء هذه المحاولة التى كانت من ابرز نقاط التحول لصالح حزب البعث، بسبب طبيعة العملية التعرضية واهتزاز الكثير من الناس للشجاعة التى ابداها المقتحمون ، وهو امر يقع خارج المسألة السياسية ، وبغض النظر عن صواب العملية او خطئها ، وقد ساعد النقل الحى والمباشر لجلسات محاكمة المتهمين بالمحاولة فى المحكمة العسكرية الخاصة على تاكيد هذا الجانب وتحول العقيد فاضل عباس المهداوى رئيس المحكمة من حيث لايدرى الى داعية ودليل لحزب البعث ، يضاف الى هذا وذاك موقف المتهمين من المحاولة ودفاعهم عن معتقداتهم وشرحهم الدراماتيكى لتفاصيل العملية وكانهم يعرضون فلما سينمائيا مثيرا . فشهد الحزب اقبالا كان اهم تحول فى تاريخه على الاطلاق .

كان البعثيون يكسبون تصيرا جديدا مع كل اجراء جديد تقدم عليه حكومة الزعيم عبدالكريم قاسم مابين عام ١٩٥٨ ـ ١٩٦٣ فاذا اصدرت الثورة قانون الاصلاح الزراعى واعادت النظر فى الحيازات الاقطاعية وتوزيع ملكية الارض وانتزاعها من الملاك الكبار وشيوخ العشائر اصطف البعثيون مع شيوخ العشائر ، واذا اصدرت الثورة قرارا بالغاء سباق الخيل وايقاف المراهنات التى كانت ترهق الفقراء المتورطون فى سباق الخيل زحف الحزب الى ساحة الخيل لتاسيس خلايا حزبية نشطه ، كانت تحلم بزوال حكومة الثورة وعودة المراهنات .

واذا اعتمدت السلطة على الجيش ووجهت الصحافة الوطنية انتقاداتها لمؤسسات الشرطة المتمرسة فى ضرب الحركة الوطنية وخدمة النظام القديم تسلل البعثيون الى اجهزة الشرطة واقاموا اول تنظيم سياسى سرى فى تاريخ هذا الجهاز .

وعندما تصدى علماء الاسلام بزعامة السيد محسن الحكيم لنشاط الدعاة

الشيوعيين واصدر فتوى في عام ١٩٦٠م بتحريم الانتماء الى الحزب الشيوعي تحول البعثيون الى اتباع مخلصين يحملون بيد صورة الفتوى وبالاخرى صورة المفتي .

وتبنى حزب البعث الاحتفال السنوي لذكرى الميلاد النبوي الشريف ووزع تعليما صارما بضرورة ظهور البعثيين بمظهر الحريص على الدين والقائمين بفروضه.

وكان حزب البعث يحشد خصوم الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية ويدعوا الى اتحاد القوى المناوئة للمعسكر الاشتراكي في جبهة عريضة . وبهذا اصبح الحزب وعاء كبيرا لخليط سياسي واجتماعي وفكري يحتضن القوميين الملكيين والقوميين الجمهوريين ورجال الدين وشيوخ الاقطاع ويستقطب مشاعر الوحدويين الخلصاء والقوى التي استخدمت الوحدة لضرب طموحات الثورة الوطنية ، وبات طبيعيا ان يلتقي في منظمة الحزب ـ وبدافع العداء الشرس لحكومة الثورة ـ البعثيون والناصريون ومؤيدو سياسة نوري السعيد المتضررون بثورة تموز والذين وجدوا في حزب البعث منفذا لعمل سياسي مضاد للثورة .

ان حجم الجيل الثاني للحزب والمنتمي في اعقاب ثورة تموز بدأ يطغى على البعثيين الاصوليين في الجيل الاول والذين تشبع جناح واسع منهم بافكار باندونج والحياد الايجابي ومبادىء الثورة المصرية وافكار عبدالناصر بينما تشبع الجيل الثاني بافكار رد الفعل في ثورة تموز والدعوة لابادة رموزها والاجهاز على القوى المساندة لها .

ولم يكن بين الجيل الثاني وتراث الحركة الوطنية العراقية اواصر او صلات مشتركة .

ان ابرز ممثلي الجيل الثاني الذي ظهر بعد ثورة ١٤ تموز هم ابناء القرى والمناطق الواقعة في اعالي دجلة واعالي الفرات . بمن فيهم العسكريون الذين اكتشفوا في منظمة الحزب مجالا لعمل مضاد لثورة تموز ، كالعقيد احمد حسن البكر والعقيد طاهر يحيى والعقيد رشيد مصلح واخرين .

ومن هذا الجيل كان احمد حسن البكر وصدام حسين والطاقم الحزبي الحاكم في العراق حاليا . والذي اكتسح الجيل الاول بجناحيه اليميني واليساري.

ان هذا التشكيل البعثي الجديد اصبح مرشحا لقيادة ثورة مضادة اطاحت بثورة ١٤ تموز والقوى السياسية المساندة لها في ٨ شباط ١٩٦٣م .

سلطة المنظمة الاولى .

[حركة ٨ شباط ١٩٦٣م]

ابطالها صامتون .

فاذا تحدثوا . فحديثهم لايشبع حاجة السنتهم عن اسرارها .

وخصومها لايعرفون من سرها اكثر مما يعرف الجندى من اسرار ، وهو يطلق النار على مبنى وزارة الدفاع حيث تحصن الزعيم عبدالكريم قاسم وعدد من مساعديه .

ولا احد يعرف سر القائد العسكرى الذى حاصر نفسه فى المبنى . فكان هدفا سهلا للانقلابيين فى الوقت الذى كان الشعب العراقى يقاتل المتمردين بلا قائد !

لم يتحدث ابطال انقلاب ٨ شباط ، واغلبهم حى مرزوق .

فهل يختفى وراء صمتهم سر كبير ؟

ام ان هؤلاء الذين نعرفهم ابطالا للانقلاب وهم ـ اعضاء بارزون فى قيادة المنظمة السرية لحزب البعث ـ لم يكونوا سوى عناوين على جدار يجلس وراءه المتآمرون الكبار الذين وحدهم يحتفظون باسرار الانقلاب !

ذلك ان ظاهرة ملفتة للانتباه ان تظل خلفيات الانقلاب الدموى على الحكومة الوطنية فى ٨ شباط ١٩٦٣م والمسمى [بثورة ١٤رمضان] مجهولة فى طيات الملفات الضائعة بينما لم يعد شىء من خلفيات ثورة ١٤ تموز مجهولا على الرأى العام العربى .

لقد لمست خلال استجوابات مستفيضة ومناقشات ـ اخوانية ـ مع قادة حزب البعث انهم لايعرفون الا القليل عن القرارات الحزبية التى اتخذت قبيل الانقلاب .

وكان واضحا ان مشاعر الندم التى تختلط بالشعور بالذنب مازالت تلاحق جناحا عريضا من هؤلاء القادة ازاء ماحدث فى ٨ شباط . ومازالوا مشتركين مع السعدى زعيم الحزب فى انقلاب ٨ شباط ، وزملائه هانى الفكيكى ، ومحسن الشيخ راضى ، وحميد خلخال . يقابلهم اعضاء اخرون فى القيادة القطرية ، مابرحوا متمسكين بأمجاد حركة شباط كحازم جواد ، وطالب حسين الشبيب واحمد حسن البكر الذى يسميها عروس الثورات ! الا ان ردودا مكتوبة يمكن الرجوع اليها فى الدفاع عن الحركة مازالت بعيدة عن الانظار ، فقد لازم الصمت هؤلاء المدافعين عنها بالشكل الذى كان ومايزال يلازم الجناح الاخر .

اما خصوم الانقلاب فقد انصبت اهتماماتهم على مشاهد الموت ، واحداث درامية رافقت شهور الانقلاب التسعة . وهو فى معاييرهم واحكامهم ، يوم تحولت

الوحدة العربية فيه الى سمكة قرش جائعة وصارت اهداف الامة النبيلة مخالب مزروعة فى اجساد الموقوفين داخل معتقلات الحرس القومى .

والحرس القومى . اسم جديد لم يعرفه لا البعثيون ولا الناس خارج الحزب ، قبل ذلك اليوم .

وقد قيل فى حركة ٨ شباط شىء من هذا القبيل ، فاذا مر على احداثه المحللون ، تحولوا ـ وهم فريقان ـ الى خطباء وتحول الخطباء الى مهرجين .

فأى من الفريقين على صواب ؟

ان الطرف المنتصر هو الذى يضع ان يكون الجزار الكبير .

فلو انتصر المدافعون عن ثورة ١٤ تموز على الطرف المعادى ، والذى يقود محاولة انقلابية فى يوم ٨ شباط ١٩٦٣م لتحولت سطوح المنازل الى ساحات اعدام ، وصارت قاعات الدرس الجامعى مكانا مناسبا لتعليق جثث الطلاب المتمردين .

ولان البعثيين كانوا الفريق المنتصر ، فقد كان صحيحا انهم قتلوا واحدا فى كل مكان .

لكن اعداد البعثيين فى جميع انحاء العراق كانت من القلة بحيث يستحيل عليها تلبية حاجات القتل والتعذيب المطلوبة لمواجهة حزب واسع كالحزب الشيوعى، وشعب كان عبدالكريم قاسم وثورة ١٤ تموز يعيش فى وجدانه .

فهل كان حديث المجازر مجرد بلاغات معادية تخلو من القيمة التاريخية ام ان مؤسسة اخرى نهضت بمهمة التقتيل هذه والتى اسندت الى حزب البعث .

لاشك ان مؤسسات لا مؤسسة واحدة ساهمت فى اعمال ابادة المدافعين عن ثورة ١٤ تموز ومنها :

اولا : شرطة الامن العام وهى الشرطة السرية المدربة على ضرب الوطنيين وقد ابقاها عبدالكريم قاسم كما هى !

ثانيا :مؤسسة الحرس القومى ، وهى مفتوحة للراغبين بحمل السلاح والقيام بادوار رجال الشرطة السرية فى التحقيق مع الموقوفين فى الملاعب والنوادى الرياضية .

وكانت اعداد تتدفق على مقرات الحرس القومى وتتمتع بوجاهة حمل السلاح وامتيازات العمل فى اقبية التحقيق ، لم تكن لها صلة مع حزب البعث .

ثالثا : الثقاة الذين اعتمدهم الحزب فى وقت سابق وقد امتلكوا بعد الانقلاب اعناق السلطة .

رابعا : جماعات متضررة بثورة ١٤ تموز ، وقد حان يوم الثأر وتصفية

الحساب.

ان تلك المجموعات كانت تخضع لاشراف مركزى من خلال مندوب حزبى .

وبالتالى ، فان الكلام عن مسؤولية الحزب فى تلك الاعمال كان صحيحا.

هذا الكلام استغرق صفحات الكتب وشهادات الشهود ولم يقف المتحدثون الا لماما امام العامل الدولى فى حركة ٨ شباط ١٩٦٣م .

وقد كان عبدالكريم قاسم يلوح فى خطاباته الى [تربص الاستعمار بالثورة] .

ان خروج العراق من منطقة النفوذ الغربى بعد ثورة ١٤ تموز والناء حلف بغداد اوجد خللا فى التوازن السياسى القائم انذاك .

وكان تحرش عبدالكريم قاسم زعيم الثورة بالمصالح النفطية واصدار قانون رقم/٨٠ الذى اعاد اكثر من ٩٠ بالمائة من مناطق الاستثمار النفطى الى الحكومة العراقية ، قد ترك هزة كبيرة وخسائر كبرى فى اسواق العالم المالية والنفطية ولم يكن اجراء بهذا الحجم من التحدى سيمر بسهولة .

حدثنى العلامة السيد مرتضى العسكرى [٨٧ عاما] اثناء زيارتى له فى لندن يوم ٣٠ حزيران /١٩٩٠م ان وزيرا من وزراء عبدالكريم قاسم اخبره بعد صدور قانون رقم /٨٠ بان رئيس الوزراء [عبدالكريم قاسم] بدأ جلسة مجلس الوزراء المخصصة لمناقشة واصدار قانون النفط رقم /٨٠ بقوله :

تعالوا نوقع على الحكم باعدامنا ثم وقع ووقعنا بعده .

لعل عبدالكريم قاسم فى هذه المرة كان يستشرف صورة المستقبل وصورته على شاشة التلفزيون ينزف باخر القطرات ورأسه محنى على كتفه الايسر ، وعيونه تحدق الى قاتليه وكأنه يقرأ بيان النفط.

وحول العامل الدولى فى انقلاب /٨ شباط ، يستشهد المتحدثون والكتاب بمقولة وردت على لسان على صالح السعدى زعيم الحزب والمساهم فى حركة شباط ونائب رئيس الوزراء أنذاك : [اننا جئنا الى السلطة بقطار امريكى] .

حدثنى هانى الفكيكى عضو القيادة القطرية وعضو المجلس الوطنى لقيادة الثورة التى اطاحت بحكومة عبدالكريم قاسم قائلا وبحضور عدد من الاصدقاء فى شهر شباط/ ١٩٨٧ ان عضوا فى حزب البعث وقد [ذكر اسمه] سأله قبل ايام عن حقيقة ماينقل على لسان صديقه السعدى وهل من الممكن توضيح فكرة الرد بها على منتقدى ثورة ١٤ رمضان فأجاب الفكيكى :

نعم سمعته يقول ذلك اكثر من مرة .

عن الجانب الدولى ايضا نشير الى الاجتماع الذى دعا الى عقده ميشيل عفلق فى المانيا الغربية صيف عام ١٩٦٢م وفيه اتخذ قرار الثورة المضادة على حكومة

١٤ تموز وسمي الاجتماع بالمؤتمر القومي الثالث للحزب ، مع انه لم يكن بمستوى مؤتمر ولم يدع اليه مندوبون من القيادات القطرية واقتصر على مجموعة صغيرة .

من هنا قد نجد معلومات عن اى مؤتمر قومي الى المؤتمر الثالث .

ان ذلك كله يعطي لقرار القيادة القومية في سوريا والصادر في عام ١٩٦٦ بطرد ميشيل عفلق وجناحه من الحزب مضمونا وطنيا وقوميا صائبا .

على مستوى التطورات المحلية التي اعقبت وصول الحزب الى السلطة يلاحظ غياب سريع لشعار [الوحدة الفورية] الذي ظل مرفوعا بوجه عبدالكريم قاسم وقد اعدم الرجل لانه لم يستجب للشعار لكن تلفزيون بغداد عرض مقابلة مع ضباط وحدويين وهم يقدمون اعترافاتهم حول تورطهم بانقلاب وحدوي وقد نزعت رتبهم العسكرية ، واغلب الظن ان اظافرهم كانت منزوعة وتوالى تقديم اعترافات اشخاص مدنيين يزعمون القيام بحركة عسكرية تنتهي بأعلان الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، وقد اعقب ذلك حملة اعلامية من قبل حزب البعث الحاكم ضد الرئيس جمال عبدالناصر والقوميين العرب والوحدويين الاشتراكيين المطالبين بالوحدة الفورية في نفس الوقت الذي كانت افتتاحيات الصحف وتعليقات الاذاعة تشدد لهجتها الهجائية ضد عبدالكريم قاسم ، الذي لم يبادر الى الوحدة الفورية !

ظهور سلطة القرية

لكن متغيرات جديدة لم تكن معروفة في السياسة العراقية بدأت بالظهور في اعقاب الحكم الاول للحزب . فاذا كانت احلام مشروعة ، بقيام حكم قومي لايخضع لاعتبارات غير قومية ويضع العراق في موقعه من حركة التحرر ، كانت مؤسسة جديدة تنشأ مع نشوء حركة ٨ شباط ، قائمة على اواصر الولاء الجغرافي الصغير للقرية بديلا للولاء القومي الكبير .

فقد كان رئيس الوزراء احمد حسن البكر من اهالي تكريت ، والحاكم العسكري العام رشيد مصلح كذلك ، ومعهما رئيس اركان الجيش طاهر يحي التكريتي ، فضلا عن حردان التكريتي قائد القوة الجوية ! وشهدت مؤسسات الدولة وعلى رأسها مجلس الوزراء والوزارات الاخرى نزوحا قرويا هائلا . فبات واضحا ان نعرة تكريتية تتوافق مع نعرة محلية اخرى لم يعد معها الانتماء القومي ولا الولاء الحزبي معيار تقييم المواطن في العراق .

وبسرعة غير متوقعة نمت ولاءات محلية وعائلية واقليمية ، وهو امر يدعو الى الدهشة والاستغراب ، فالمعروف ان ادبيات حزب البعث والادبيات القومية تطلع

بولاء اوسع يتجاوز حدود الوطنية القطرية الى الوطن العربي الواحد . وكان التثقيف القومي ومايزال يركز في نقد الاحزاب العراقية على كونها اقليمية ، وكانت احدى اهم المرتكزات النظرية التي اعتمدت في نقد عبدالكريم قاسم انه كان اقليميا معنيا بشؤون العراق فقط وليس له طموحات في انشاءالدولة القومية .

ان ملامح تاقلم السلطة القومية الجديدة كان ظاهرة مخيبة للامال وقد تحادر الاقليميون الجدد من معنى الوطنية العراقية والولاء للعراق الى الولاء لمسقط الرأس ، قرية ام مدينة صغيرة .

وهكذا نشأت سلطة القرية تحت شعار الدولة القومية الكبرى !!

ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ، صار الحزب يستمد « شرعيته » من تحالف القرى لا من تحالف القوى القومية والاجتماعية !

صدام حسين و ٨ شباط .

ارسى انقلاب ٨ شباط سابقة جديدة في تاريخ العراق السياسي ، فهي المرة الاولى التي تنجح المعارضة بانقلاب ضد السلطة ، بينما كانت الانقلابات التسع الاخرى في تاريخ العراق تصدر من داخل المؤسسة الحاكمة ، ضمن دائرة الصراع على السلطة .

وهي المرة الاولى التي يخضع العراق فيها الى حكم الحزب الواحد .

وهي المرة الاولى التي تظهر سلطة القرية بديلا للسلطة القومية والسلطة الوطنية .

وهي المرة الاولى التي تخترق فيها الاعراف العسكرية التي شهدت ظواهر الترقية بالطفرة . ومنح رتب عسكرية لمدنيين واسناد رئاسة اركان الجيش لضابط غير مؤهل وغير حامل لشهادة الاركان .

لم يكن صدام في ذلك الوقت سوى عضو في تنظيم شعبة الفلاحين . لكن ورود اسمه في محاولة اغتيال الزعيم عبدالكريم قاسم في تشرين الاول ١٩٥٩م وقرابته المحلية برئيس الوزراء احمد حسن البكر وبالحاكم العسكري العام رشيد مصلح التكريتي وبرئيس اركان الجيش طاهر يحيى التكريتي قد تساعد صدام التكريتي وهذا اسمه آنذاك على بناء نفوذ ما . لكنه لم يكن مؤهلا في اية مواصفات حزبية او شخصية او اجتماعية اذن اكثر من حمل بندقية ومطاردة خصوم السلطة ، لكن عدم وجود دور له لا يعني انه لم يستفد من الرابطة التكريتية ، وقد اتيحت له فرصة لتأكيد ولائه لهذه الرابطة .

ففي انقلاب قاده عبد السلام عارف بالاتفاق مع مجموعة من الضباط التكريتيين

على حزب البعث فى ١٨ تشرين الثانى ١٩٦٣م ، شوهد صدام حسين الى جانب رجال الامن واشخاص اخرين من مؤيدى الانقلاب يهاجمون مقرات الحزب فاصدر البعثيون تعليمات بالقبض عليه لكن الانتصار السريع لرجال الانقلاب على حزب البعث انقذ صدام التكريتى من العقاب الحزبى المنتظر .

وفى موقف صدام هذا يبدو ولاؤه القروى ورابطته التكريتية ، قد طغت على ميوله الحزبية فبلغه الحاكم العسكرى العام رشيد مصلح التكريتى بمهمة خاصة لكشف تنظيمات البعثيين .

وكان ذلك التكليف سببا يعزو اليه بعثيون سابقون اقدام صدام على اعدام رشيد مصلح ليقطع دابر أى اعتراف قد يصدر عنه ضده .

نشير هنا الى ان حزبيا اخر يدعى محسن الشعلان كان يحمل رشاشا آليا مع صدام حسين فى الهجوم على مقرات الحزب قد اعدمه صدام هو الاخر بتهمة استمرار علاقة قديمه له مع شقيق احد المحكومين بالاعدام فى وقت سابق ، خلافا للتعليمات التى تقضى بمقاطعة عوائل المحكومين .

ان صدام حسين تصرف مع قادة الانقلاب للحزب والمسمى بثورة ١٤ رمضان ، بمثل تصرفه مع قادة محاولة اغتيال عبدالكريم قاسم ، فاعدم أو اغتال قادة بارزين ساهموا بانقلاب شباط الذى جاء بحزب البعث الى السلطة .

فبالاضافة الى اعدام الحاكم العسكرى العام ، اعدم صدام قائداً اخر ، هو مدحت الحاج سرى امين العاصمة السابق . وشقيق رفعت الحاج سرى الذى قاد محاولة انقلاب فاشلة عام ١٩٥٩م واعدم فى اعقابها . فجعل حزب البعث من اسمه عنواناً للثأر من عبدالكريم قاسم !

واغتال صدام حسين وبطريقة تخلوا من الشهامة ، قائد الهجوم العسكرى عن وزارة الدفاع . اللواء عبدالكريم مصطفى نصرت واعلن بيان صادر عن صدام حسين ان غلاما منحرفا كان اللواء عزت على صلة جنسية به هو الذى اغتاله بمنزله !

ومابرح صدام حسين يكيل لقادة السلطة الاولى للحزب ، الاتهامات ، ويغمز قناتهم فى احاديثه الصحفية ، فقد وصف رفاقه السابقين المبعدين عن الحزب ، بانهم تجار رخيصون ، فى الوقت الذى كان متوقعا من تلميذ ناشىء وهو يستلم سلطة الحزب ، ان يولى اهتماما خاصا لرفاقه الكبار .

ان موقف صدام حسين من رجال الحزب والدولة فى اول انقلاب للمنظمة السرية يكشف عن افتقاره لقليل من الوفاء يعمه بالكثير من الغدر .

انهيار الدولة العراقية

جدلية الصراع

المنظمة والانقلاب

جنرال المنظمة

المنظمة والجيش

دولة غير دستورية

برلمان المنظمة

جدلية الصراع ،

كرى المنظمة السرية لا رفوف المكتبة السياسية ومراكز الابحاث الاستراتيجية يمكن ان نلتمس عندها الاجابة الممتنعة على اسباب القرار العراقى هذا الصاخب المجلجل المدوى منذ اكثر من عشرين عاما والذى لايأتى فى موعده ولايحقق ظهوره الدرامى المفاجىء نبوءات المحللين المقيمين تحت رفوف المكتبة او وراء الحاسوبات!

ولقد بلل من صفحاتهم انها . وهذا خطأ ثان ينشدون السند من رف الانظمة العسكرية حيث جرى التعارف على تصنيف التجربة العراقية فى باب الانقلاب العسكرى يؤيدهم مشهدان .. الدكتاتورية وقعقعة السلاح!

لكن الامر ليس كذلك !

والعراق يخضع لحكم المنظمة السرية لا للحكم العسكرى ، والقرار يحمل مناخ المنظمة السرية وطقوسها ويحمل سايكولوجية الكادر الحزبى فى الوقت نفسه .

ولعلنا فى هذه المحاولة نسعى لاعادة تنظيم المكتبة واقامة الرف الثالث الخاص بدولة المنظمة السرية يضاف الى الرفين الرئيسين .. المدنى الديمقراطى . والعسكرى الدكتاتورى .

ان حكم المنظمة السرية نظام ثالث ليس مدنيا لانه لايستلهم قواعد النظم السياسية المعترف بها فى المجتمعات المدنية ولا هو عسكرى لانه لم يخرج من صلب المؤسسة العسكرية . وان استعان بالانقلاب العسكرى على ركوب السلطة .

نورى السعيد والمنظمة السرية ،

اذا تجاوزنا الحركات السرية فى العصور الاسلامية وحصرنا اهتمامنا بالعراق الحديث نبدو المنظمة السرية نتاجا خالصا من نتاجات السلطة لا المجتمع ففى اعقاب وفاة الملك فيصل الاول عام ١٩٣٣ شربت العراق موجة من القمع السياسى شارك فيها معظم رجال السلطة كياسين الهاشمى ورشيد عالى الكيلانى ونورى السعيد ، واستخدم الجيش فى مهمات الجندرمة ، واعتبر العمل السياسى المعارض [فعلا جنائيا] يحال « مقترفوه » الى ادارة التحقيقات الجنائية فى الشرطة العامة والمسؤولة عن ملاحقة النشاط الاجرامى ، وكانت [illegible] وماتزال تستقبل فى وقت واحد وقاعة واحدة طالبا محتجا على [illegible] وزعيما سياسيا معارضا ومجرما من ذوى السوابق فى اغتصاب [illegible]

اتيحت لى فرصة التعرف على حياة الشقاة ومحترفى القتل اثناء اعتقالنا المشترك واستفاد حزب البعث من جانبه كثيرا [illegible]

جدلية الصراع .

كرى المنظمة السرية لا رفوف المكتبة السياسية ومراكز الابحاث الاستراتيجية يمكن ان نلتمس عندها الاجابة المستمنعة على اسباب القرار العراقى هذا الصاخب المجلجل المدوى منذ اكثر من عشرين عاما والذى لايأتى فى موعده ولايحقق ظهوره الدرامى المفاجىء نبوءات المحللين المقيمين تحت رفوف المكتبة او وراء الحاسوبات!

ولقد بلل من صفحاتهم انها . وهذا خطأ ثان ينشدون السند من رف الانظمة العسكرية حيث جرى التعارف على تصنيف التجربة العراقية فى باب الانقلاب العسكرى يؤيدهم مشهدان .. الدكتاتورية وقعقعة السلاح!

لكن الامر ليس كذلك !

والعراق يخضع لحكم المنظمة السرية لا للحكم العسكرى . والقرار يحمل مناخ المنظمة السرية وطقوسها ويحمل سايكولوجية الكادر الحزبى فى الوقت نفسه .

ولعلنا فى هذه المحاولة نسعى لاعادة تنظيم المكتبة واقامة الرف الثالث الخاص بدولة المنظمة السرية يضاف الى الرفين الرئيسين .. المدنى الديمقراطى . والعسكرى الدكتاتورى .

ان حكم المنظمة السرية نظام ثالث ليس مدنيا لانه لايستلهم قواعد النظم السياسية المعترف بها فى المجتمعات المدنية ولا هو عسكرى لانه لم يخرج من صلب المؤسسة العسكرية . وان استعان بالانقلاب العسكرى على ركوب السلطة .

نورى السعيد والمنظمة السرية .

اذا تجاوزنا الحركات السرية فى العصور الاسلامية وحصرنا اهتمامنا بالعراق الحديث نبدو المنظمة السرية نتاجا خالصا من نتاجات السلطة لا المجتمع ففى اعقاب وفاة الملك فيصل الاول عام ١٩٣٣ شربت العراق موجة من القمع السياسى شارك فيها معظم رجال السلطة كياسين الهاشمى ورشيد عالى الكيلانى ونورى السعيد ، واستخدم الجيش فى مهمات الجندرمة ، واعتبر العمل السياسى المعارض [فعلا جنائيا] يحال « مقترفوه » الى ادارة التحقيقات الجنائية فى الشرطة العامة والمسؤولة عن ملاحقة النشاط الاجرامى ، وكانت مخافر الشرطة وماتزال تستقبل فى وقت واحد وقاعة واحدة طالبا محتجا على سياسة الحكومة وزعيما سياسيا معارضا ومجرما من ذوى السوابق فى اغتصاب الاطفال .

اتيحت لى فرصة التعرف على حياة الشقاة ومحترفى القتل ودراسة ظروفهم اثناء اعتقالنا المشترك واستفاد حزب البعث من جانبه كثيرا بتنظيم اعداد كبيرة

من هؤلاء فى صفوفه وهم الان قادة مرموقون .

ومابين عامى ١٩٢٣ ـ ١٩٥٨ اصدرت السلطة ٣٧ مرسوما وقانونا لمعاقبة العاملين فى خطوط المعارضة ومن بينها قانون اسقاط الجنسية ومرسوم النفى والطرد من العمل وكان عبدالمحسن السعدون - رئيس وزراء سابق - قد انفرد قبل ذلك باصدار مرسوم الجلد الذى ينص على جلد طلبة المدارس غير الراشدين ٢٥ جلدة لكل من خرج فى مظاهرة احتجاج وقد شرع مرسوم الجلد لمعاقبة المتظاهرين ضد زيارة الداعية الصهيونى الفرد موند الى العراق عام ١٩٢٨ .

ان قوانين كهذه لم تكن معروفة فى النظام العربى .

وفى حالة كهذه يبدو اللجوء الى المنظمة السرية وسيلة مقبولة للابتعاد عن مصادر القمع والبقاء فيها مرهون بزوال سلطة القمع ، غير ان منظمة حزب البعث التى مارست دورها فى العراق ابتداء من عام ١٩٥٣ استطابت العمل فى جو السرية حتى والحزب يقود السلطة واجهزتها الامنية الضاربة .

فلماذا الحزب السرى فى حكم الحزب ؟!

هل يمكن ان تستهدف السرية هذه المرة حماية المنظمة من المجتمع لا من السلطة وكيف تشكلت هذه الحدلية .. ان يختفى الحزب الحاكم عن المجتمع المحكوم ؟

هل لان سرية الحزب الحاكم تحجب عن المجتمع المحكوم صراعات الحزب الداخلية وشخوصه غير المؤهلين ، ام لانه تجعل اساليب عمله فى منأى عن التداول فتظل مختبئة فى المنظمة وجوه تمارس اعمالا يحرص الحزب على ان يبقيها تحت باطن الارض .

تقاليد المنظمة السرية

المنظمة السرية ليست جزءا من هيكل الدولة ولا فى هيئة اجتماعية معترف بها ورجل المنظمة يرى نفسه هدفا لكل من اعضاء الهيئة الرسمية والهيئة الاجتماعية وعليه ان يتخذ من اجراءات التستر ما يجعله اقرب الى خيوط الشبح ! وطبيعى الا يتيح التستير الامنى لرجل المنظمة اقامة علاقات « حسن الجوار » مع جيرانه ، ولا ان يجرأ على الدخول بمجاملات عامة مع الناس المحيطين بالمخبأ!

ان الشك وعدم الثقة والريبة شروط « موضوعية » ينبغى ان يتحلى بها سلوك المنضوى فى العمل السرى .

هذه مفارقة كبرى!!

فحيث المسلمات السياسية ان ينفتح السياسى وبدون شروط او تقذين على

المجتمع تجد رجل المنظمة السرية الساعى الى « قيادة المجتمع » غائبا عن المجتمع . بل لعله غير معروف فى الوسط السياسى والاجتماعى .. انه بلغة بيانات الشرطة ، مجهول محل الاقامة والهوية !

الجدل العقلى ان السياسة اتصال والمنظمة السرية انقطاع !

والسياسة ظهور والمنظمة السرية غياب .

لكن جدلية اخرى تملى عليك معادلاتها الخاصة وليس لك الا ان تذعن لقوانينها فمصير السياسى البارع هو ذلك الخارج من جحور المنظمة .

ولكل حالة مطصلحها الخاص فى هذه الجدلية .

فاذا سارت الحياة سيرها الطبيعى سارع الحزب الى ضخ احداث لتجاوز الحالة المرضية ، السير الطبيعى . والتى يطلق عليها عادة مصطلح التزهل او الاسترخاء او الخدر !

المطلوب اذن اقصى درجة من التيقظ ، التوتر ، واعلى درجة من الحزم !

والخدر ان ينسى الحزبيون انفسهم ويندمجوا فى الحياة العامة .

وكاجراء تقليدى تلجأ سلطة المنظمة الى الاعلان عن خطر داهم ، مؤامرة محلية مثلا .. وهذا يستدعى فرض الانذار على الجهاز الحزبى وحشد الانصار وتقسيم الدوريات الليلية ، ولكى لايهرب المتآمرون تغلق الحدود ويمنع السفر !

وتفتح الاذاعة افواهها حتى صباح اليوم التالى حيث يعلن عن اسم الدولة المتآمرة فتقطع العلاقات الدبلوماسية والتجارية والثقافية ويرحل الدبلوماسى والتاجر والطالب على ظهر اول طائرة !

هكذا سيناريو الحياة المثالية فى دولة المنظمة السرية !

وعلى ضوء موروث المنظمة وسايكولوجية العمل السرى تتحرك الدولة وتتحدد علاقاتها الداخلية والخارجية .

ولما كان العدو فى هاجس المنظمة السرية هم جميع هؤلاء الناس المحيطين بها وكنتيجة متوقعة وافراز لشعور العداء يصبح مستساغا فى اعراف السلطة القادمة من المخبأ التنكيل بالجار ، وابن المحلة ، والصديق والزميل .. هؤلاء المحيطون بالمخبأ والذين لم يهبطوا الى سلالم القبو الحزبى .

ويصبح - فى السياق نفسه - من غير المعقول ان تقام علاقات مجاملة بين رجل المنظمة ومجتمعه القريب بل يكون من [اداب العمل السرى] ان تتجاهل الحديث وتتجنب التحية وان يحتقن وجهك بالصلف وقلبك بالشك .. هكذا رجل المنظمة السرية .. فاذا صعد سلالم القبو وركب ظهر السلطة خاملا نواميس المنظمة ، صار من غير المفاجىء ان تتأزم العلاقة بين الدولة - المنظمة السرية - وبين جيرانها

وان تتسم العلاقات الديبلوماسية مع دول العالم بالتوتر الذى كان قائما بين رجال المنظمة والوسط المحيط بهم .

الكادر المسؤول

طبيعى الا تصلح المنظمة السرية مجالا حيويا ناجحا لنمط خاص من الناس يشكلون عمودها الفقرى ويسمونهم الكادر المتفرغ ومعنى التفرغ الا يكون المسؤولون الحزبيون مرتبطين باعمال ومهمات غير العمل الحزبى .

هذه هى الملاحظة الاولى ..

المسؤولون الحزبيون هم عادة اشخاص غير مسؤولين عن شىء يساعدهم اخرون غير متفرغين وهؤلاء قد يكونون موظفين او طلابا او عمالا او كسبة لكن انشغالاتهم السرية لاتمنحهم الفرصة الكافية لتطوير كفاءاتهم واختصاصاتهم والنجاح فى حقول اعمالهم .

انهم غير فعالين فى مؤسساتهم !

هذه هى ثانى الملاحظات .

ان الخاملين فى المجتمع وغير الفعالين هم الفعالون النشطون فى وسط المنظمة!

ولهذا لا يكون الكادر الحزبى عالما اجتماعيا او مؤرخا او طبيبا مرموقا ولعل التقاطع الحاد بين الكادر الحزبى وذوى الاختصاص ستظهر اثاره لاحقا على مستوى الادارة الحكومية . فمن تقاليد العمل فى المنظمة السرية ان ينظر بعدم اكتراث للمثقفين وللنخبة العلمية باعتبارهم غير مؤهلين لاداء مهامهم الحزبية بطريقة مرضية . بينما يجرى التركيز على الخاملين والفاشلين لتشكيل الكادر القيادى فى المنظمة والذى اصبح فيما بعد الكادر القيادى للدولة .

هنا اقدم شهادتى .

« كان صديقى البروفيسور خالد محمد سعيد استاذ جراحة الدماغ فى كلية الطب ببغداد عضوا معى فى منظمة واحدة وكان مسؤولنا الحزبى ويدعى عبدالقادر حمادى العانى بائع تذاكر فى شركة الباصات الحكومية . يضايق الدكتور خالد ويتعمد تكليفه بحمل لافتات القماش وتثبيتها فى اماكن خاصة من الساحات العامة احتفالا بذكرى الثورة فاذا اعتذر عن ذلك اعتبر متمردا على اوامر الحزب او غير منضبط فى احسن الاحوال ! وكان صاحبى يتمنى لو حضر شقيقه الاصغر هذا الذى اخفق فى الحصول على مرتبة علمية ليستعين به على هذه المهمة ! لقد اختفى الدكتور خالد فجأة واظنه هاجر الى خارج العراق ، وظهر

في الشهور الماضية اسم اخيه الاصغر [اياه] سلام محمد سعيد وزيرا للصحة ليكون اول وزير صحة عراقي لايحمل شهادة طبية .

ان الحزب يرفض جراح الدماغ عضوا ويقبل شقيقه الفاشل وزيرا للصحة .

هذه ليست حالة خاصة ولاهي مفارقة تصلح للتندر ، بقدر ماهي مادة رئيسية في قانون العمل الحكومي على ضوء تقاليد المنظمة السرية .

من هنا يبدو واضحا ان القيادة المركزية للحزب ستكون حكرا على غير المؤهلين علميا وثقافيا ومن فاقدي الاختصاص وذوي الامكانات المحدودة .

وبسبب الطبيعة الامنية للمنظمة السرية وانعزالها يصبح واضحا ايضا انها ستكون حقلا ممتازا للشخصيات المنطوية ، والمغلوقة وغير الانبساطية ، وغير الم. عة ، وسيكون الخاملون القادمون من القرى المعزولة والتي تعاني من تدهور انتاجيتها الزراعية وضالة نشاطها التجاري هم اصلح الشرائح الاجتماعية للحياة في المنظمة السرية .

وعلى العكس من شعور الانسان خارج المنظمة بالقرف والضيق من حياة العزلة والتآمر في وسط كهذا ، يشعر الكادر الحزبي بشيء كبير من المتعة النفسية في عمله السري بين جدران المخبأ !

المنظمة السرية والدولة

المخبأ الملفوف بالغموض والرعب والخوف من الوسط والمعبأ بمشاعر العداء ضد اطر الدولة وهيكلها العام يتحول فجأة الى دولة !

الكادر المقطوع عن المجتمع غير المروض يصبح بدون فواصل لاعداد كادر الادارة الحكومية !

واستنادا الى المعايير الثورة ، فان عليه لا ان ينسجم مع شروط الدولةواساسياتها بل ان ينسخ قيم المنظمة وتقاليدها الى الدولة واحلال نواميس العمل السري محل الاعراف الرسمية . ان جهدا استثنائيا سيبذل في مهمة التحويل التي تقضي اولا بايتاف التطور الطبيعي لنمو الدولة ومؤسساتها . وجعل مقياس نجاح السلطة الثورية مرهونا بحجم التحولات التي ستحدثها في هيكل الدولة واساليبها لصالح هيكل المنظمة واساليبها .

ان الدهشة ستكون كبيرة من قدرة المنظمة السرية على ابتلاع الدولة .

لكن قدرتها على ابتلاع الجيش امر يدعو للاعجاب !

لقد اكلت القارة القط السمين.

وفي عملية الاستحواذ على الدولة ينشأ صراع هو الاخر غير مسجل في سجل

الصراع الانساني المعهود ! اذ ينقض ومنذ الساعات الاولى لسيطرة المنظمة على السلطة الكادر الحزبي بموروثه السايكولوجي وفقره الاداري على مفاصل الادارة فيصطدم بالخبرة المستقرة في جهاز الدولة ويناضل من اجل طردها بما يسمى باعمال التطهير !

انه ـ الجهاز السري ـ يملك المسوغ الايديولوجي ، فالحزب اولا ثم الدولة التي تقع في مرتبة ادنى .

وتبعا لهذه النظرية فان الرسوم ـ البروتوكلات ـ ستتعرض الى هزة يقف امامها موظفو التشريفات في وزارة الخارجية مدهوشين بينما يطبق الصمت على افواه رجال القانون اذ يأخذ القائد الحزبي موقعا اعلى من رئيس الدولة رغم ان الاعراف الدستورية تنص على ان لا رأس اعلى من رئيس الجمهورية في البلاد !

ان الامين العام للحزب ميشيل عفلق في اول قائمة المراسيم ، وشبلي العيسمي الامين العام السابق ثانيا .. ويأتي رئيس الجمهورية احمد حسن البكر الثالث !

ان الوضع لم يكن هكذا ..

فقد اصبح رئيس الجمهورية بعد وفاة ميشيل عفلق امينا عاما للحزب مما يؤهل لاسمه ان يتصدر لائحة التشريفات ، وبهذا الاجراء نجح صدام حسين في رفض الاشكال الذي استسلم له سلفه احمد حسن البكر لكن صدام حسين لم يواصل سياسته ولم يعمم اسلوبه على غيره من المسؤولين في الدولة فبقي اسم المسؤول الحزبي في الخطاب الرسمي يذكر قبل اسم المسؤول الحكومي وان كان الحزبي طالبا والمسؤول الحكومي عميدا ورئيس جامعة .

في احتفالات وندوات الجامعة يذكر اسم رئيس الاتحاد الوطني للطلاب قبل اسم رئيس الجامعة وكلاهما حاضر في القاعة .

ولاينفك صدام حسين في خطابه اليومي يقلل من اهمية الخبراء والفنيين وينتقص من قيمته ويجير ماقد يحققونه من نجاح الى القيادة السياسية للحزب !

ان صراعا اخر في جدلية الحزب والدولة سينشأ بعد ان ينتهي الكادر السري من تمشيط اخر جيوب الادارة واقصاء خبراتها ، فحيث يكتسب بعض الحزبيين قدرا متواضعا من الخبرة تواجه المنظمة حالة كهذه لا بتطوير كفاءته وانما بتقفيزه من موقع الى موقع خلال فترات قصيرة مما يمنحه مركزا اعلى وخبرة ادنى ، وقد يطرد مكتسب الخبرة الجديدة بقرار صادر عن منظمته في اعقاب صراع داخل الجهاز الحزبي على مواقع الدولة والمعتاد في صراع كهذا ان ينتهي لصالح الحزبيين الناشئين .

ان القانون الذي يحكم العلاقات الحزبية هو التالي :

ان اول وجبه حزبية قادمة تستهدف اول وجبة حزبية سابقة من جانب اخر فان مشاعر المنظمة السرية قبل استلام السلطة ستظل مشحونة بالعداء ازاء اجهزة الدولة وهى حالة طبيعية ناجمة عن كون المنظمة خارج هيكل الدولة وكونها ايضا خاضعة لمراقبتها يضاف عامل مهم يتمثل فى شعور الكادر السرى بالحرمان من امتيازات الوظيفة هذا يفسر الى حد اسباب تقاعس دولة المنظمة عن احداث اى تغيير لصالح الادارة الحكومية وتركها تواجه ظروفها المعاشية مما يجعل الادارة الحكومية - تحت سلطة الحكم السرى - مجالا كبيرا قابلا للفساد وسوء التصرف والرشوة وعدم الشعور بالمسؤولية وتشترك الادارة الحكومية فى دول المنظمة السرية لا فى العراق فحسب فى قواعد الانحلال والتفسخ .

ان دولة مضغوطة بالاعراف السرية وهواجس موروثها كيف ستتصرف مع جوارها المحلى وجوارها الجغرافى ؟

وهل يستطيع محلل سياسى ان يمشى الى سطره الاخير والقرار العراقى قصير النفس والعمر ، قابل للتناسخ ؟ مما يدفع المتابع المتفرس فى الحدث العراقى الى التريث حتى ظهور الناسخ الجديد وعندها قد يكون قرار غزو الكويت احد المنسوخات المركونة على طاولة المنظرين الذين اعتادوا ان يقدموا المسوغ الايديولوجى للقرار وضده .

دولة المنظمة والانقلاب العسكرى

ينفرد كل منهما باسلوبه الخاص فى ادارة الدولة والمجتمع - المنظمة السرية والانقلاب العسكرى - ويشتركان فى استحضار تجارب القمع مع اختلاف فى الدرجة لمواجهة الاحتجاجات الشعبية المشروعة وكونهما يخرجان من صلب غير شرعى ولايحملان تفويضا دستوريا لامتلاك السلطة وفى سوى ذلك تتسع حلقات الفروق بينهما .

فعلى الرغم من أن الانقلاب العسكرى يضرب اعراف الدولة كمؤسسة شرعية فانه يخرج من احدى مؤسسات الدولة الاساسية [الجيش والقوات المسلحة] ولا ترتبط المنظمة السرية بهيكل الدولة ومؤسساتها .

هذا الفرق الادارى يسحب تاثيراته الكبيرة على نظرة كل من المنظمة والانقلاب الى اهمية الدولة ، فتضيق احتمالات اكتساح العسكريين لمؤسسات الدولة بالطريقة التى تلجأ اليها سلطة المنظمة ، وقد تبدو مؤسسة الانقلاب ملتزمة بمسؤولية حماية الكيان العام للدولة وعدم التفريط بمؤسساتها .

وعلى ان رجل الانقلاب العسكرى يتحيز لمؤسسته فانه لايشترط المرور بها

معيارا وحيدا للمواطنة الصالحة ، وهو الشرط الذى يصر عليه رجل المنظمة السرية الحريص على ان تعمد المواطنة بماء المنظمة لتكون جديرة بلقبها .

من جانب اخر قد ينشد العسكريون فى محاولة اكتساب الشرعية خلاصهم فى التقرب من او فى مجاملة المؤسسة المدنية ولا تدفع تقاليد المنظمة السرية رجالها لاكتساب الشرعية عن طريق لا يمر بالمنظمة نفسها لاعتقادهم ان التشديد على الولاء للمنظمة هو وحده الذى يمنحهم شرعية امتلاك السلطة والاستمرار بها .

ومهما اوغل النظام العسكرى فى عدائه لشرائح ديمقراطية فى الداخل فان العدو فى تقييماته يظل خارجيا وليس داخليا فى الوقت الذى يدور رجل المنظمة السرية بعدائه على الوسط المحيط به فيبدو اعداؤه محليين بالدرجة الاولى . قد يعنى ذلك ان احتمالات الصراع الداخلى الى حد الابادة الجماعية قد لا تكون هدفا مباشرا ويوميا من اهداف الحكم العسكرى بنفس الدرجة التى يستهدف بها رجال المنظمة السرية خصومهم فى الداخل .

من هنا كان ضحايا ستالين من السوفييت اعلى رقما من ضحايا هتلر من الالمان ، وضحايا الصراع فى اليمن الجنوبى وهو من امثلة نظام المؤسسة السرية كان اعلى رقما من ضحايا الشطر الثانى الخاضع لنظام الانقلاب العسكرى .

وفى السياق نفسه اوشكت ان تختفى من الذاكرة العراقية اختراقات الحكم العسكرى للرئيس عبدالسلام عارف ورئيس وزرائه طاهر يحيى امام ضحايا سلطة المنظمة السرية التى يقودها الرئيس الحالى صدام حسين .

بل ارتفعت اسهم الشريك الاول الرئيس السابق احمد حسن البكر - نصف العسكرى ونصف الحزبى - فى حكومة المنظمة السرية بعد انفراد [الحزبى كله] صدام حسين بالسلطة .

وقد ينظر الى الانقلاب العسكرى مخرجا مقبولا يستجير به مواطنو دولة المنظمة السرية للخلاص من عذابهم ، وهذا ماقد يفسر ترحيب احزاب وطنية وجماعات راديكالية ، الى جانب جماعات يمينية خالصة بانقلاب عبدالسلام عارف عام ١٩٦٣ ضد حكم المنظمة الحزبية .

وقد يفسر ايضا الامال المعقودة حاليا لدى الكثير من العراقيين على الجيش العراقى بانقلاب عسكرى يطيح بالمنظمة السرية الحاكمة .

يمكن ان ندخل فى هذا الباب ، تأييد الرومانيين للجيش ربيب شاوشيسكو للخلاص من حكم المنظمة السرية .

ان وجهة النظر هذه ينبغى الا تستخدم ذريعة لترجيح الحل العسكرى لازمة السلطة فى العراق وفى غيره كما ينبغى ان لايفهم منها استنكاف العسكريين عن

ايذاء مواطنيهم وتعريضهم لمذابح محلية ، لكن المؤكد عندنا ان العدوان الخارجي الذى قد تقدم عليه دولة المنظمة السرية لا يدخل ضمن بدأ توسيع الارض الوطنية كما هى الحال عادة عند الحكام العسكريين ، وانما للخروج من مأزق داخلى او انه يتم تحت رغبة حاكم المنظمة السرية لتوسيع جغرافيا الدم .

ان جدول الفروق بينهما يظل مفتوحا لاستقبال فقرات اضافية ، وقد يأتى اخرون فيكتشفون المزيد منها ، فرجل المنظمة شخصية ثالثة بين المدنى والعسكرى او هو كلاهما !

يتدرب على السلاح ، ويفرض على اتباعه نظاما صارما قد يكون اضرى من الانضباط العسكرى ويجرى الالتزام بمبدأ [نفذ ثم ناقش] الذى يسحق العقل الانسانى اجازة فى لحظة الحاجة اليه ، فيحول بين التابع المأمور والتفكير بمصيره .

فاذا ركبت المنظمة ظهر السلطة جعلت تفتيت المؤسسة العسكرية النظامية وافراغها من اعرافها فى مقدمة برنامجها الفورى العاجل التنفيذ وباستمرار حكم المنظمة ، تتسع قاعدة عسكرة المجتمع .

ونسمع قعقعة السلاح بصوت واضح خارج الثكنة وتأخذ الروح العسكرية الخالصة بالاضمحلال فتنتهى المنظمة السرية الى خليط غير متجانس بين ماهو عسكرى وماهو مدنى ويفقد كل منهما المجتمع العسكرى والمجتمع المدنى نظامه الخاص واعرافه المستقرة .

المثال العراقى

تجربة المنظمة السرية فى العراق تكاد تنجز مثالا جديدا فى النظام السياسى العربى فاذ يشكو العالم الثالث من هيمنة العسكريين على شؤون المجتمع ومقدرات الدولة يطارد المدنيون الصغار جنرالات الجيش وضباطه الكبار ويصدرون عليهم بمحاكم حزبية خاصة او بقرار عن زعيم المنظمة السرية احكام الموت التى تنفذ عادة بمهارة عالية .

لقد انتصر كاتم الصوت على مدفع الدبابة وحققت الضفدعة - الفولكس واكن - رقما قياسيا على طائرات الميغ والسوخوى بسرعة الانقضاض ! وصار قائد القوات الجوية - حردان التكريتى - كزميله قائد القوات المدرعة - حماد شهاب - ضريع الاصابع المدنية التى شددت من قبضتها على الجنرال السابق ، والحاكم العسكرى لانقلاب ١٤ رمضان رشيد مصلح التكريتى معلقا على مشنقة فى السجن المركزى تجاور جثة جنرال اخر مدحت الحاج سرى امين العاصمة وشقيق

رفعت الحاج سرى فى وقت واحد !

تجربة رائدة فى مجال تمريغ الغرور العسكرى تحت احذية البلاستيك جعلت تلك الصورة التقليدية فى الادب الثورى التى تتحدث عن احذية الجنود الثقيلة صورة منقرضة

وكان بسيرا على المراقبين وعلى الناس البسطاء ان يتمتعوا بمشهد الجنرال العسكرى يجلس القرفصاء الى جانب جنرال المنظمة رقيق الحاشية لين العريكة بطبيعة سلس .

ان قصة انتصار الكاتم المدنى جديرة بالدرس ومغرية وقد تأخذ مكانا خاصا فى تاريخ المنظمة السياسى على ان يحتفظ المحتجون باحتجاجهم وان يتريث قليلا من سيقدم النموذج اللبنانى ليدحض به ـ كتجربة مماثلة ـ اهمية التجربة العراقية .

ففى لبنان جيش صغير وطوائف مسلحة كبيرة لكل منها جيش وقادة ورئاسة اركان ! وفى العراق جيش عرمرم بذل على تأسيسه السير بيرسى كوكس مابذله زعماء مخلصون وغير مخلصين ليكون الاول فى تعداده والاقصى فى انضباطه والاعلى فى غروره .

ان الطريقة التى استخدمتها منظمة حزب البعث فى العراق عام ١٩٦٨ ويعود الفضل فيها للعضو القيادى البارز صدام حسين تختصر تجارب ثورية مماثلة ، وتنفرد بانفتاحها على تجارب التنظيمات السرية غير السياسية وقد تكون استفادت من الموروث العثمانى والاسلوب المملوكى فى بعض جوانبه ويعزز من نجاحاتها نظرية تنظيمية صارمة وقائد حزبى ديناميكى يمتلك رؤية شبه شاملة لميكانيزم المنظمة السرية ولعله فى الخلفية السياكولوجية والنشأة توأم المنظمة .

ان صدام حسين وحده منظمة سرية كاملة .

شرطى الحزب

على مدى عام من استلام السلطة اكتفى صدام حسين بالقليل الذى لا يرضى به اعضاء عاديون فلم تظهر عليه توازع حب السلطة بل كان يدفع برفاقه الى مسطحات الدولة فانغمسوا بالجنس والاضواء وهموم الادارة وتعرف المجتمع خارج الحزب على اسماء الوزراء وكبار المسؤولين ولم يكن احد يعرف الا القليل عن صدام حسين هذا القابع فى كوة المنظمة القانع بعمل حزبى بسيط .انه فقط يُوقع على بطاقات الهوية الحزبية التى تسمح لحاملها بحمل المسدس واحيانا الكلاشينكوف ! وكان يختار فى معتكفه حاشية بسيطة بطقوس اكثر بساطه وكان يشاركه فى صفة الكادر المتفرغ قائد حزبى اخر هو عبدالخالق السامرائى

المسؤول عن حياكة شبكة اعلامية وثقافية تستهدف عن طريق الحوار الهادى والشعار الجميل استمالة المثقفين العراقيين او على الاقل تحييد رؤيتهم الى حزب البعث ،فى محاولة لغسل ثيابه من بقع الدم القديمة وطموحه ان يبنى تحالفات صميمة مع اجنحة الحركة الوطنية العراقية بفرعيها العربى والكردى ربما شعر اعضاء القيادة الحزبية بشىء من الرضا ، فقد توصلوا ـ هكذا فهموا ـ الى صياغة ممتازة لتوزيع المسؤوليات .. فهم وزراء الدولة البارزون ملء الحدسات والديون وصدام حسين سيكون الكادر المتفرغ لشؤون الحزب التنظيمية ولعلهم استسلموا الى انه قد يسبق زميله عبدالخالق السامرائى فى حياكة شبكته الامنية وتزويدهم بمرافقين اشداء وحرس خاص يدرأون بهم عن مواقعهم ومساكنهم ونسائهم اى شر مبيت !

كنت احس ذلك الشعور لدى البعض القيادى صديقى منذ اواخر الخمسينات المستوزر للثقافة والاعلام عبدالسلام سلوم السامرائى الذى كان معجبا بتعبير توزيع المسؤوليات وما انفك يردده فى المؤتمرات الصحفية والاجتماعية الحزبية .

وقد يكون من اسباب الرضا والاطمئنان ان صدام حسين العنيد المقتحم وزعيم الجناح التعرضى فى الحزب ، سيتكفل لهم بتصفية ناجحة وسريعة لرفاقهم السابقين الذين جنحوا الى اليسار ساحبين معهم ثلاثة ارباع التنظيم .

اما العسكريون كحردان التكريتى نائب رئيس الجمهورية وصالح مهدى عماش النائب الاخر ، وحماد شهاب وزير الدفاع وسعدون غيدان حامل مفاتيح القصر الجمهورى السابق والتى سلمها لرجال الانقلاب ليلة ١٧ تموز ١٩٦٨ فلعلهم سخروا من صدام .. هذا الذى يوزع الهويات والمسدسات على القادمين الى الحزب من مقاهى المحلات الشعبية !

كان ذلك شعورا طبيعيا فحردان التكريتى كان قائد السلاح الجوى وصالح مهدى عماش الضابط المتمرس فى شؤون الاستخبارات العسكرية ، وحماد شهاب قائد اللواء المدرع العاشر الذى قطع المسافة فى ليلة الانقلاب مابين معقره فى الرمادى وبغداد [١٢٠كلم] فى اقل من ساعتين بهذه الحجوم المدججة بالسلاح الجوى والفيلق المدرع ما عساها ستصنع مسدسات المنظمة ؟

اللائحة الصغيرة من الجنرالات صرعى المنظمة قد تقدم اجابة متواضعة على هذا السؤال ..

اللواء رشيد مصلح ـ الحاكم العسكرى العام فى انقلاب ١٤ رمضان ١٩٦٣ اعدام شنقا .

اللواء مدحت الحاج سرى امين العاصمة اعدام شنقا .

الفريق حردان التكريتي نائب رئيس الجمهورية اغتيال .
الفريق عبدالرزاق النايف - رئيس وزراء انقلاب ١٩٦٨ ، اغتيال .
هذا اكتشف رفاق صدام خطلهم التاريخي ، فقد اعدوه لدور شرطي الحزب بينما كان يعد نفسه لدور جنرال المنظمة .

توفيت جلاس البناح اليميني لحزب البعث على السلطة العراقية عام ١٩٦٨ كان مناسبا ومصحيحا بحسابات دولية لقطع الطريق على جماعات يسارية كانت تتهيأ للانقضاض على الرئيس المسالم عبدالرحمن عارف كبش فداء على مذبح هزيمة حزيران ورسالة تبدئة الى الجماهير العربية بأن قوى شعبية ثارت للهزيمة واخذت مواقعها في قيادة قطر عربي جامح .

العامل الدولي اولا .. وتاتي العوامل الاخرى . ولا اهمية للتفاصيل ولا دور لمن ستبدو ادوارهم مثيرة للدهشة وهم يتسلقون هامات القصر الجمهوري .

الجنرالات السبعة .

كانوا ثلاثة . احمد حسن البكر وذراعاه حردان التكريتي وصالح مهدي عماش . والاخير امحضهم ولاء للحزب اما الاول فنصفه بعثي ونصفه عسكري والثاني عسكري محض بمواصفات الضابط العراقي .. سيف وكأس وانثى . لكنهم جميعا وعلى قدر متفاوت يشتركون بعقدة ذنب واحدة فقد خذلوا في تشرين الثاني [١٩٦٣] حزب البعث وتحالفوا مع خصمه الرئيس عبدالسلام عارف في انقلاب نصف دموي فحاز البكر نائبا لعارف وحردان وزيرا للدفاع وكلاهما تكريتي ، واقصي عماش عن اي موقع ثم اقصي الاول والثاني فيما بعد . ليعودا الى عماش مرة اخرى ويتشكل ثلاثي متقاعد يتطلع الى حلفاء من ضباط تحت الخدمة ، وممن يتمركزون في مواقع حساسه ، وقد عثروا على ثلاثي كان يعد لانقلاب عسكري ويتطلع الى واجهة سياسية . ويتشكل هذا الثلاثي من عبدالرزاق النايف معاون مدير الاستخبارات العسكرية النشط وابراهيم عبدالرحمن الداود الضابط الهادىء في قيادة الحرس الجمهوري وسعدون غيدان امر كتيبة القصر . فاتفق الفريقان على استلام السلطة وظهر في اليوم المحدد للانقلاب اسم ضابط سابع هو حماد شهاب التكريتي ان تشكيلا كهذا ومع نظام غير قمعي ورئيس غير دموي ستبدو عملية [الثورة] كما وصفها لي طه الجزراوي .. شاحنة عسكرية محملة باحد عشر حزبيا من شتيهم صدام ينتظرها الضباط الستة داخل بوابة القصر قبل ان يلتحق بهم الضابط السابع لم يكن انقلابا عسكريا . لم تتحرك دبابة لكن اطلاقه مدفع صغير كانت ضرورية لايقاظ الرئيس من نومه وليتوجه بعد مكالمة تلفونية

استمرت ثلاث دقائق مع ضباطه وحلفائهم الى المنفى بطائرة عسكرية خاصة وتقاسم الثلاثيان قيادة السلطة فاعطيت رئاسة الجمهورية ومجلس قيادة الثورة الى احمد حسن البكر ورئاسة الوزراء الى عبدالرزاق النايف والى جانبه صديقه القوي وزير الدفاع ابراهيم عبدالرحمن الداود والذي يقيم في السعودية منذ عشرين عاما . تدفعنا السهولة التي حصل فيها هؤلاء على السلطة للتساؤل عن اسباب فشل محاولة انقلابية قادها كبار العسكريين الناصريين ومعهم رئيس الوزراء وقائد سلاح الطيران ضد عبدالسلام عارف والتي تكررت بنفس الطاقم ضد عبدالرحمن عارف ، سألت مازحا احد قادة الانقلاب الفاشل العميد هادي خماس مدير الاستخبارات العسكرية السابق عن سر نجاحنا السهل نحن تنظيم البكر ، وسر اخفاق ذلك الانقلاب ؟

فرد خماس قائلا امام جمع من الصحافيين .. ماذا نفعل اذا كان [ابوناجي] لا يثق بالناصريين وابوناجي في اللهجة العراقية كناية يرمز بها عن الانكليز .. او العامل الدولي بشكل عام .

مصيدة الفئران

لم تكن المحاصصة ترضي الفريقين لا في تشكيلة مجلس قيادة الثورة ولا في مجلس الوزراء .. واضبح واضحا ان الفريقين يستعدان لانهاء التحالف في اقرب فرصة .

ولانهم جميعا عسكريون تصور النايف ان تحشيد الانصار العسكريين في المراكز الحساسة سيمده بقوة التحكم في القرار الاول فسارع لاجراء مناقلات بين الضباط ورفض ابعاد ضباط اخرين كانت جماعة البكر تستهدفهم منذ وقت ، اما البكر فقد كانت فرصته اقل في تحشيد قوات عسكرية موالية . لكنه عمل مايمكن عمله وترك للمنظمة السرية ان تحيك مخططا عاجلا لاقصاء شركائه في السلطة .

كانت خطة المنظمة سهلة وبسيطة جدا ، ولهذا لم يحسب العسكريون لها حسابا خاصا ، وسهولتها انها تعتمد على معايير لم تكن مألوفة في المجتمع فقد اوفد ابراهيم عبدالرحمن لاستطلاع القوات العراقية في الاردن وجرت استمالة الضابط الثالث سعدون غيدان ، اما رئيس الوزراء عبدالرزاق النايف فقد لبى الدعوة الى اجتماع خاص في القصر الجمهوري واذ اخذ مكانه في الصالة تقدم اليه من الخلف ثلاثة مسلحين بالمسدسات كان صدام حسين احدهم فاستسلم النايف وارسل الى المنفى مخفورا على طائرة عسكرية ، ولم يمض على مغادرة الرئيس المخلوع عبدالرحمن عارف على طائرة مماثلة اكثر من اسبوعين اشغل

فيهما النايف رئاسة الوزراء وتفقد خلالهما موجودات البنك المركزي العراقي في اول واخر نشاط له وكان احمد حسن البكر قد اصدر امرا الى قائد القوات العراقية في الاردن اللواء حسن النقيب باعتقال ضيفه وزير الدفاع وهو يقوم باول نشاط له وسوقه مخفورا الى بغداد لكن اللواء النقيب رفض تنفيذ الامر بتلك الصيغة مما اثار استياء مجلس قيادة الثورة .

قال لي صدام حسين عن هذه الحادثة ان حسن النقيب قد جبن وقال لي حسن النقيب في حديث مشترك جرى بمنزلي في الشام يوم ١٥ حزيران ١٩٨٥ انه اضطر للتعامل مع ضيفه وفقا لرتبته والتزاماته العسكرية وانه همس في اذنه بأن يستقل طائرة وينصرف بهدوء حتى لا نقع في موقف من الحراجة ، ونحن نحتقل وزير الدفاع امام جنودنا وضباطنا ، وكنت بهذا حريصا على صيانة كرامتنا العسكرية وتصرفت بطريقة لم يفهمها لا احمد حسن البكر ولا صدام حسين .

هذه العملية التي تمت في ٣٠ حزيران ١٩٦٨ ، صارت مثالا جاهزا لعمليات قادمة يستطيع بها الحزب ان يضرب خصومه في الوقت الذي يحدده دون ان تتناطح الدبابات وتزغ القاصفات

كانت فقط اعادة الحياة للطريقة التي اعتاد ان يتخلص بها المماليك حكام بغداد السابقون من خصومهم وحاشياتهم .. الدعوة الى اجتماع .. وتقوم قاعة الاجتماعات بدور مصيدة الفئران .

ان مصيدة الفئران اول عملية ناجحة لمنظمة الحزب بتفكير وتدبير صدام حسين .

سألت صدام حسين عن شيء يعتز به اكثر من سواه فقال .. عملية ٣٠ تموز .

ولعله محق وصادق ، فقد ظهر في مساء ذلك اليوم الرئيس احمد حسن البكر يلقي البيان الاول على شاشة التلفزيون وخلفه ثلاثة مسلحين ، كان صدام من بينهم ولم يكن الا القليل من العراقيين من يعرف اسم صدام والاقل ممن يعرفون صورته .

لقد فتحت عملية ٣٠ تموز امامه عالما فسيحا مشى اليه بعيون مفتوحة وقلب مغلق وهو يطل على تكوينات الحزب والدولة مشروخة الى اربع دوائر اختار الاقامة في الرابعة تاركا العسكريين الحزبيين في الاولى . والوزراء القادمين من المنظمة الحزبية في الثانية ، فيما كان يراقب على الدائرة الثالثة خطوات رفيقه المتمسك بشرعية الحزب والمتفرغ مثله للعمل في المنظمة والعازف عن مناصب الدولة عبدالخالق السامرائي وفوق ذلك فان عملية ٣٠ تموز مؤشر مبكر على امكانية نجاح المنظمة السرية في قمع المؤسسة العسكرية وعلى صدام ان يختفي

في اعماقها ، وعليه لكي يظهر على مسرح الحياة ان يقيم زمنا اطول في كوة المنظمة .

جنرالات المنظمة

اقام صدام في المنظمة بعيدا عن الانظار طيلة العام الاول ورفاقه في السلطة يتبخترون في الحلل المضاعف نسجها !

حردان التكريتي يستقدم مطربته المفضلة بطائرة عسكرية خاصة ، وصالح مهدي عماش اصبح الشاعر الذي يعارض الجواهري ! وسعدون غيدان على عهده وقد اغمد السيف وتفرغ للكأس والانثى وعبدالله سلوم تتجمد على وجهه عدسة التلفزيون فلا تبارحه سواء كان المتحدث هو ام انا .. وعبدالكريم الشيخلي المستوزر للخارجية يتنقل بسرعة الى طبقة الخارجية العراقية بينما بقية اعضاء القيادة القطرية على اهبة الاستعداد لان يحلوا محل زملائهم الذين يناضلون لاسقاطهم .

ان صدام حسين كان وحده الذي يعرف ان الخطوة الراهنة لاتقصد لذاتها ويعمل وفق برنامج منظم ورجاله في منظمة التمرض والاقتحام التي سميت مكتب العلاقات لايحبون عدسات التليفزيون ولا يستميلهم موقع على سطح السلطة رجاله دائما من الصف الثاني في الحزب واحيانا من الصف غير المرقم !

ناظم كزار طالب المعهد الصناعي الذي جيء به الى معتقل عسكري على الحدود العراقية الايرانية عام ١٩٦١ وخرجنا سوية فتوجهت بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ باحثا عن جريدة الحزب حيث اقيم مع عمودي اليومي وذهب ناظم كزار الى هيئة التحقيق التي اتخذت مكانها في مبنى على نهر دجلة كان في الاصل دار لاحد ولاة بغداد لقد اثار مشهده الدهشة وهو يحمل تابوتا استله من حانوتي في شارع الرشيد ومشى به نصف ساعة قبل ان يدلف الى غرفته الخاصة في هيئة التحقيق . ثم لتخرج بعد اقل من ساعة مجاميع المعتقلين الى باحة المبنى ، عارضين تفريغ اعترافاتهم على اجهزة التسجيل بعد ان قاوموا رجال التعذيب لاكثر من ثلاثة اسابيع ! اما ناظم كزار فقد امر مساعديه بحمل التابوت وقد انشطر الى نصفين في كل نصف منه ، نصف جثة .

لقد استدعى ناظم كزار من يعتقد انه كان اصلب معتقل سياسي بين رفاقه ولف الحبل حول رجليه ويديه وجسده وادخله في التابوت ثم اغلق الغطاء بالمسامير وقطعه من وسطه بالمنشار على مرأى من الموقوفين جميعا .

تجربة ناظم كزار هذه في معايير المنظمة السرية تمنحه اختصاصا نادرا دفع

صدام حسين لان يختاره مديرا للامن العام ويمنحه رتبة لواء عسكرى تنحنى له قامات العمداء والعقداء فى الجيش والشرطة .

هذا هو اول جنرال من جنرالات المنظمة يمنح الرتبة قبل ان يحملها صدام باربع سنوات .

اخر من رجال المنظمة محمد فاضل طالب كلية التربية حين التقيت به فى معسكر للاعتقال مع ناظم كزار والذى ينتهز ايام العطلة الصيفية لبيع الكبة فى محل والده فغلب عليه لقب والده .

كان الوحيد الذى تبدو قامته اقصر من قامتى ولم يكن بيننا فى غير ذلك شىء مشترك رغم انه كان يدرس العربية التى هى حقل اختصاصى .

شكل محمد فاضل وناظم كزار وشقى اخر معروف يدعى عبدالجبار الكردى محكمة تعقد جلساتها ليليا وقد اصدرت مرة احكاما بالموت على الكلاب السائبة التى تتسلل الى المعسكر . فنفذ ناظم كزار الاعدام خنقا بكلتا يديه فى [احد المحكومين] الى ان لفظ انفاسه . وكان محمد فاضل قد بنى سمعته الحزبية على قتل صديقه عبدالستار الكردى ، وكان هو الاخر شقيا وشقيقا لعبدالجبار الكردى الذى هاجم مجموعة من العمال اليساريين كانت تحتفل بمناسبة انعقاد مؤتمر عمالى بايعاز مباشر من منظمته فقتل ثلاثة منهم .

اما عبدالوهاب كريم الملقب وهاب الاعور وهو معلم من اهالى الحلة فقد استقدم الى بغداد ودشن عمله باغتيال الدكتور ناصر الحانى اول وزير خارجية لانقلاب ١٧ تموز لقد اصبح محمد فاضل عضوا فى القيادة القطرية اى عضوا فى مجلس قيادة الثورة ورقى عبدالوهاب عبدالكريم الى مرتبة عضو فى القيادة القطرية ايضا ، اما صدام حسين وقد قطع المسافة المطلوبة فقد ظهر فوق سطح الدولة بمركز جديد غير معروف فى هياكل المؤسسات والدول .

لقد اختار ان يكون نائبا لاحمد حسن البكر لا بصفته رئيسا للجمهورية . بل بصفته رئيسا لمجلس قيادة الثورة واذعانا لمنطوق المنظمة الحزبية واعرافها فى جعل موقع رئيس الجمهورية فى مرتبة ادنى اهمية من رئيس مجلس قيادة الثورة اصبح نواب رئيس الجمهورية تابعين لنائب رئيس مجلس قيادة الثورة صدام حسين ، ولم يعد من العسكريين غير احمد حسن البكر من هو اعلى مرتبة من صدام حسين وبهذا صار صالح مهدى عماش وحردان التكريتى وحماد شهاب وسعدون غيدان جنرالات مجلس قيادة الثورة اسماء ثانوية بادوار هامشية .

لقد كان منصب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة صفعة مهينة تقبلتها العسكرية العراقية بروح مسيحية عالية ، من يومها صار جنرال المنظمة مساند الجنرالات .

المنظمة والجيش

نجح برنامج تحويل المجتمع العراقي الى مجتمع صغير من مجتمعات المنظمة السرية نجاحا ملفت للانتباه .

وقد امتدت اصابع المنظمة الى مفاصل الدولة والمجتمع مغروسة في المدرسة والمكتب والمتجر وفي حقول الزرع المهجورة وحقق برنامج « تنظيم » الشعب العراقي خطوات جعلت المنظمة الحالية مثالا ستحذو حذوه منظمات تسعى لاخضاع المجتمع بالطريقة ذاتها .

ولعل أمثل اوشكت ان تتسرب الى الحركات السرية العراقية المعارضة حاليا ، لتنفيذ برامجها المستقبلية استنادا الى تجربة منظمة الحزب الحاكم .

اعتمد برنامج الحزب في عملية ترويض المجتمع العراقي على نشر منظمات حزبية ، ونقابات عمالية ومهنية تجعل كل عراقي محشورا في زاوية من زوايا التنظيم

فللطلاب اتحاد في كل مدرسة ومعهد وللمعلمين نقابة وللفلاحين جمعيات فلاحية وهكذا الاطباء والمهندسون والمحامون . اما التجار فقد تحولت غرفة التجارة الى غرفة حزبية وانفرد اتحاد النساء بنساء العراق .

وكان ذلك كافيا ، لان يستريح رجل المنظمة الاول رئيس الجمهورية الحالي لو ادرك معنى الراحة ، فالشعب العراقي ليس اكثر من « طلاب صف مستجد » في مدرسة عسكرية .

ينهضون من نومهم على صوت البوق ويفطرون على صوت البوق ويدرسون على صوت البوق قبل ان يدعوهم البوق الى فراش النوم !

والبوق في الشعب العراقي مسؤول حزبي او نقابي !

وقد يكون البوق طبيبا خاملا ، يدعو الاطباء لحضور مظاهرة في شارع الرشيد وقد يكون البوق رئيسة اتحاد النساء تدعو الماجدات للاحتفال بعيد ميلاد رئيس المنظمة .

لكنه ليس النجاح الاكبر للمنظمة الحزبية .

قد يكون مبررا للعراقيين ان يرعبهم الطبر ، هذه الفأس البابلية التي صارت تستخدم كما تستخدم البلطة عند الرومان .

واذا وجد عراقيون لايرضخون للاغراءات ولا يتطلعون الى المنظمة السرية بحثا عن موقع للنفوذ والوجاهة او للمال والوظيفة ، ففي اختبارات الموت يتساوى الشعور بالخوف بين الجميع .

استسلام الجيش

لكن النجاح الاكبر للمنظمة السرية يتمثل فى قدرتها العجيبة على ابتلاع الجيش العراقى .. وان يستسلم المجتمع العسكرى لقوة المنظمة ، لقد اكلت الفأرة قطها السمين ، هكذا المنظمة تاكل الجيش .

وفى تجربتها مع الجيش اثبتت المنظمة حقائق جديدة كشفت عن هشاشة « العسكرية العراقية » على الرغم من عراقة هذه المؤسسة .

كان العراق اكبر الاقطار العربية حصة فى اعداد خريجى الدراسات العسكرية العثمانية وقد قارب عدد الضباط العراقيين عند قيام الحرب العالمية الاولى واحتلال بغداد على الالف ضابط .

وكان ممكنا لهم ان يقودوا المقاومة الشعبية الوطنية ضد الاحتلال البريطانى ، لاسيما ان هؤلاء الضباط لم يشتركو جديا فى الحركة العربية ولم يتعرضوا الى ملاحقات كالتى تعرض لها الشاميون والذين اعدم الاتراك اعدادا منهم اثناء الحرب .

لقد استسلم معظم الضباط العراقيين للقوات البريطانية منذ الشهور الاولى للحرب ، وتحولوا فى معسكرات الاسر ، الى العمل مع الانكليز ضد الدولة العثمانية بعد ان تيقنوا من خسارتها .

وكان واضحا ان علاقاتهم بالانكليز كانت اعمق واقوى من علاقتهم بمبادىء الثورة العربية التى انضووا تحت لوائها .

وكان قرار تاسيس الجيش العراقى قد صدر فى مؤتمر القاهرة الذى عقدته وزارة المستعمرات البريطانية برئاسة المستر تشرشل ، وحضور الممثلين البريطانيين فى بلدان الشرق فى منتصف اذار .

الانقلابات العشرة

وفى اعقاب مؤتمر المستعمرات بدأ المندوب السامى البريطانى فى العراق بتشكيل قوة محلية تغنى القوات البريطانية عن مواجهة نشاط الوطنيين العراقيين.

معنى هذا ان الجيش العراقى تم تشكيله فى اذار ١٩٢١ وليس فى كانون ١٩٢١ وهو التاريخ الذى وضعته السلطة فى محاولة تزوير ذكية لابعاد تاريخ تاسيس الجيش العراقى عن مؤتمر المستعمرات البريطانية فى القاهرة .

لكن هذه المحاولة لم تغير من واقع الحال . فلم تكن الدولة العراقية قد تاسست ، ولم تصدر ارادة ملكية بتاسيس الجيش لان الملك فيصل الاول لم يكن قد اختير

بعد على عرش العراق وانما تأسس الجيش بقرار صادر عن السير بيرسى كوكس المندوب السامى البريطانى انذاك ، تنفيذا لقرار مؤتمر القاهرة ، اما الملك فقد توج فى ٢٣ اب ١٩٢١ وجرب الجيش اول معاركه ضد الاكراد المسلمين .

ومابين عامى [٩٣٣ ـ ٩٣٦] استباح العسكريون مدنا عربيا فى الجنوب وكردية فى الشمال قبل ان يقود الجيش اول انقلاب عسكرى فى المنطقة العربية اواخر عام ١٩٣٦ .

وقد ارغم الملك على تشكيل وزارة كان قد رشحها قائد الانقلاب الفريق بكر صدقى وعاد فى ١٩٤١ الى الساحة السياسية قادة عسكريون كانوا يفرضون على البلاط مرشحهم ،حتى انتهى الامر بهم الى قيادة حركة عسكرية ضد الوصى على العرش الامير عبدالاله الذى لجأ الى قاعدة عسكرية بريطانية

ان الجيش العراقى ، لا الشعب العراقى ، هو الذى تحرك اولا فى صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨ لاسقاط النظام الملكى وابادة العائلة المالكة وهو ترفع الراية البيضاء

وعاد الجيش او بعض الجيش الى انقلاب فاشل فى الموصل فى اذار ١٩٥٩ .

وشهد عام ١٩٦٣ انقلابين عسكريين فى الثامن من شباط والثامن عشر من تشرين الثانى .

واخفق انقلابان عسكريان قادهما رئيس الوزراء على رئيس الجمهورية فى عام ١٩٦٣ .

وشهد شهر تموز من ١٩٦٨ انقلابين عسكريين الاول فى ١٧ تموز والثانى فى ٣٠ منه وهو الانقلاب الذى جاء بحزب البعث جناح ميشيل عفلق الى السلطة .

لماذا يثنون على الجيش ؟

ولم تؤثر عشرة انقلابات خلال ثلاثين عاما على موقف التبجيل والتكريم والثناء الذى يغدقه المثقفون العراقيون وقادة الاحزاب والحركات السياسية على الجيش العراقى .

ويملاء العجب افواهنا ، فليس ادعى للاستغراب ، من مثقفين يتنافسون فى الثناء على مؤسسة حالت وتحول بينهم وبين حق امتلاك الثقافة وحق التعبير عنها ومن احزاب سياسية تتبارى بتكريم المؤسسة العسكرية التى سعت وتسعى الى تجميد الاحزاب ومطاردة اتباعها .

ويتساوى اليمين واليسار فى الثناء على الجيش الذى يطارد اليمين واليسار .

ان موقفا كهذا غير معروف فى الاقطار العربية الاخرى !

ولم يكن ضباط البيش كما تصورتهم قصائد الشعراء وادبيات الحركات السياسية مثالا للفروسية والشجاعة فقد اتسمت العلاقة بين الضباط وجنودهم في المجتمع العسكري العراقي ، بطابع يفتقر الى الحدود الدنيا من المثل الانسانية والى التزام غير قليل بمعاني المواطنة ، فضلا عن معاني الحرفة او وحدة وضرورات السلوك في العمل المشترك . لاسيما المتصل منه بالمهمات العسكرية التي تتطلب الاقتحام وروح الفداء والتضحية .

ويستخدم الضباط ضد جنودهم انماطا من السلوك الذي تمارسه اجهزة الشرطة السرية مع المذنبين المعتقلين في اقبية المخافر ، فضلا عن الممارسة التقليدية التي تنبعث من شعور الضابط العراقي بالسمو والتعاظم امام الجنود بشكل خاص والمجتمع المدني بشكل عام .

ولايتوانون عن استغلال وتوظيف قوانين الخدمة العسكرية والانضباط العسكري واطاعة الاوامر لاغراض الخدمة الشخصية وتشغيل الجنود خدما في منازلهم وحراسا شخصيين لاطفالهم .

وتتعامل ربة البيت العسكري مع الجندي في منزلها بالطريقة المعتادة التي يتعامل بها زوجها الضابط مع جنوده في المعسكر .

فقد يحدث الانسلاخ الطبقي عند هؤلاء الفقراء المتوجهين الى الكلية العسكرية منذ اللحظة التي يضعون فيها الرتب على اكتافهم . ويصبح من العسير الا في القليل النادر مشاهدة شيء من الانسجام بين الضابط ومجتمعه الطبقي القديم .

ولم يجد الجنود [المضطهدون] صعوبة في السيطرة على ضباطهم !

فقد ظهر قادة عسكريون امام جنودهم في فترة المد الشعبي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بصورة لاتنم عن الشجاعة .

يصف اسماعيل العارف وهو احد الضباط الاحرار وقائد عسكري ووزير سابق مشاهد عن انتفاضة الجنود ضد الضباط قائلا « بث الجنود موجة من الرعب بين الضباط والقيادات وقد ذهب بعض القادة من الضباط ضحية الفوضى التي لعب المخربون دورا في اثارتها اذ قتل امر الكتيبة المدفعية المقدم جلال احمد في البصرة على يد جنوده حين هاجموا مقر الكتيبة بعد ان فقدت السيطرة عليهم . واخرجوا آمرهم وقتلوه وعلقوه على مدخل باب الثكنة كما هاجم بعض الجنود آمر الانضباط في الناصرية اولا ان تمكن البعض من انقاذه بأعجوبة .

وفي اوائل ماير ١٩٥٩ دخل الى دائرتي مذعورا سقدم اللواء الرئيس الاول

الركن حسين عبدالجبار واخبرني بانه تلقى مخابرة تلفونية من مساعد الفوج الثالث الموجود في معسكر « الوشاش » في بغداد الذي اخبره ان مظاهرة ضخمة قام بها الجنود ، وهم يهاجمون الان مقر الفوج والضباط وينوون القبض على وكيل آمر الفوج للفتك به .

وقال ان الموقف متأزم والضباط محاصرون في غرفة مقر الفوج وقد انضم الى جنود الفوج الاف الجنود الذين توافدوا من الوحدات المجاورة . وعندما توجهت الى مقر الفوج شاهدت الافا من الجنود يحملون العصى الغليظة والحبال وغيرها بايديهم وهم في هرج ومرج يحيطون بمقر الفوج وقد اقفل الضباط الغرف على انفسهم طلبا للنجاة ، ولعدم قدرتهم على السيطرة على الجنود .

ويختتم اسماعيل العارف هذا المقطع من مذكراته التي نشرها قبل عام من وفاته بترجيه مسؤولية ماحدث الى الحزب الشيوعي العراقي .

تجربة صدام مع الجيش

بقليل من الانصاف وكثير من الشجاعة ، نعترف بأن صدام حسين المدني الذي لم يؤد الخدمة العسكرية استطاع ان يكشف عن هشاشة المؤسسة العسكرية وكأنها لم تترعرع في احضان العسكرية التركية ولم تتطور في احضان العسكرية البريطانية .

وكانت برامج ترويض الجيش - ان لم اقل اذلاله - قد نجحت بجهود العسكريين انفسهم وقد تحولوا الى رعايا واتباع مأمورين تحت اشارة المسؤول في المنظمة السرية .

كان الجيش مشكلة صدام الكبرى التي اعتقد ان حلها سيكون اصعب من حل جميع مايعترضه من مشاكل .

لكنه اكتشف انها المشكلة التي لم تكلفه جهدا خاصا للخروج منها بنتائج باهرة!

يمكن تلخيص برنامج صدام حسين بالنقاط التالية

١- تلغيم الجيش بارسال الوف الطلبة الفاشلين في الدراسة الثانوية لقبولهم في المدارس العسكرية فتخرج هؤلاء برتبة نائب ضابط لكنهم سرعان ماتحولوا الى ضباط ويشكل هؤلاء حاليا معظم قادة الجيش وضباطه الكبار اذ مضى على بعضهم اكثر من عشرين عاما في الخدمة وهي مدة تؤهلهم لحمل رتبة جنرال .ان ولاء هؤلاء سيكون للحزب وليس للمؤسسة العسكرية .

٢- شراء العسكريين الكبار بمنحهم القدم العسكرى والمكافآت المالية وامتيازات

اخرى كالسيارة والسكن !

٣ـ الاعدام العلنى للضباط حيث يكلف جنودهم بتنفيذ الحكم فى ساحة المعسكر.

٤ـ استخدام العسكريين الحقيقيين الذين كانوا قد انتموا للحزب فى سنوات سابقة لتفتيت القيم العسكرية .

٥ـ ان جميع من اشير اليهم فى الفقرات السابقة سيقومون بمهات استخبارية ضد زملائهم .

٦ـ اعتبار الالتزام بالامر الحزبى اولا ثم الامر العسكرى اذا كانت المنظمة قد وافقت عليه .

٧ـ تشكيل ميلشيا عسكرية فى مواجهة الجيش والتى تسمى بالجيش الشعبى .

٨ـ تسريح الضباط القدماء باستمرار واحلال اخرين من نشأوا فى المنظمة السرية.

٩ـ اخضاع الاعراف العسكرية الى اعراف المنظمة السرية على مابينها من تناقض ، فقد يكون العسكرى برتبة جنرال لكن درجته الحزبية هى اقل من مرتبة ضابط صغير فى وحدته العسكرية ومعنى هذا ان الجنرال سيتلقى اوامره من ضابطه الصغير .

١٠ـ كان صدام يتعمد انتداب شخصية مدنية مهزوزة او غير مهمة ليكون مسؤولا عن المكتب العسكرى . كمحمد فاضل ابوالكبة وعزت الدورى العامل القديم فى مصنع الثلج او احد اقرباء الرئيس من نواب الضباط السابقين .

ان اى اجراء فى برنامج صدام حسين كان يمكن ان يثير حفيظة المؤسسة العسكرية لكن احدا لم يعترض بطريقة يمكن ان نحتج بها على رفض العسكرية العراقية سيطرة المنظمة الحزبية وزعيمها صدام حسين الذى بادر فى وقت مبكر الى حمل رتبة فريق اول ركن ، قبل ان يحمل رتبة الفيلد مارشال الحالية .

وقد يكون ذلك كله امرا ثانويا بالقياس الى تجربة صدام حسين مع الجيش وهو يقود العسكريين الى الحرب فاذا قتلوا فان قانونا لتزويج ارامل القتلى يبيح انتقال الحقوق التقاعدية الى الارملة المتزوجة .

اى ان يموت الضابط والجندى بامر صدام وتتزوج ارملته من احد الوافدين الذين سيتمتعون بسيارة الشهيد ومكيفه الهواء التى قد لا يحصل عليها العراقى قبل ان يموت !

ان الجيش العراقى سيبقى مطلوبا للثأر من نفسه ، قبل ان يكون مطلوبا للشعب العراقى بتبرئة ذمته واعادة اعتباره فى المجتمع .

والا فان العراقيين سوف لن يتساهلو مع تعاظم فى غير مكانه وتسام بلا سمو قد يصدر عن ضابط واكثر فى المستقبل القريب ازاء جنوده وازاء شعبنا هناك .

دولة غير دستورية

فى اعقاب ثورة الرابع عشر من تموز الغى الدستور الملكى الدائم وشرع دستور مؤقت على امل اعداد دستور دائم للدولة ، الا ان اضطراب الاوضاع الداخلية وتعاظم التآمر على الثورة ونظامها الجمهورى خاصة بعد الخروج من حلف بغداد وتحرير النفط العراقى من منطقة الاسترليني وتحجيم الاحتكارات النفطية بعد صدور قانون رقم ٨٠ ، فضلا عن اخطاء مشتركة لايبرأ من مسؤوليتها كل من سلطة الثورة والاحزاب المؤيدة والمعارضة على السواء فقد ساعدت على استمرار الدستور المؤقت اكثر من اربع سنوات طالبت فيها القوى الوطنية حكومة الثورة بتسريع اصدار دستور دائم وقد اجرى الزعيم عبدالكريم قاسم فى حينها عددا من اللقاءات والمشاورات مع رجالات القانون وزعماء الحركة الوطنية فى العراق حول الشكل الدستورى للجمهورية الجديدة ، ولم تسفر تلك المحاولات عن فعل جدى باتجاه اصدار دستور دائم حتى يوم ٨ شباط ١٩٦٣ حين الغت الحكومة الجديدة الدستور المؤقت بدستور مؤقت اخر .

وفى عام ١٩٦٤ وبعد انقلاب عبدالسلام عارف حاول رئيس الوزراء الليبيرالى عبدالرحمن البزاز اقناع رئيس الجمهورية باصدار دستور دائم فباءت محاولته بالفشل ، واعتقد البزاز ان الفرصة اصبحت مواتية بعد مقتل عبدالسلام عارف وتعيين شقيقه عبدالرحمن عارف رئيسا للجمهورية من خلال الضغط على الرئيس الجديد والذى اطلق اليد لرئيس وزرائه بالعمل دونما تدخل لكن البزاز فوجىء باحتجاج العسكريين المحيطين برئيس الجمهورية والذين نجحوا بابعاده عن رئاسة الوزارة وبتنحية البزاز تنحت اخر محاولة جادة لاصدار دستور دائم للدولة العراقية.

دستور ١٧ تموز !!؟

وفى ١٧ تموز وعلى اثر انقلاب عبدالرزاق النايف وعدد من ضباط القصر ضد عبدالرحمن محمد عارف واستسلام المنظمة السرية للسلطة صدر دستور مؤقت جديد بقرار من مجلس قيادة الثورة ومازال هذا الدستور ساري المفعول منذ «٢٢» عاما وقد جرت تعديلات عليه بقرار من مجلس قيادة الثورة يحمل رقم تسلسل اعتيادى كان يكون رقم التعديل ٢٥٠ بينما يكون القرار رقم « ٢٤٩ » هو اعفاء

سيارة مرسيدس من الرسوم الجمركية او تعيين موظف .

بهذا الازدراء اخذت تتعامل سلطة الانقلاب مع دستور البلاد الذى تستمد منه القوانين والتعليمات شرعيتها . لقد حدث مثلا ان قانونا صدر فى عام ١٩٧٠ دون سند له فى الدستور وحتى اكتشف هذا بعد مرور عدة شهور سارعوا لاصدار قرار عاجل بتعديل الدستور واعطائه تاريخا لاحقا « هذه الحادثة يعرفها السيد سالم النعمان » المستشار القانونى السابق لانها جرت فى عهده .

دولة مؤقته

طبيعى ان الدستور المؤقت يعنى فترة انتقال تمر بها الدولة وهو لايصلح لمدد تقاس بالسنين فلا توجد فى الاعراف الدولية دولة انتقالية تعيش حالة الاستثناء لاكثر من سنة او سنتين او ثلاثة فى اقسى الظروف لكون الدولة لا تأخذ شكلها النهائى المستقر دون دستور دائم يحدد الاسس القانونية والشرعية لهذه الدولة او تلك وبدون دستور دائم تظل الدولة عائمة غير مستقرة تفتقر الى الركائز الاساسية لاستمرارها ، ومن هنا يبدو التعارض المنطقى واضحا عند من يدعى قوة دولته ومتانتها وهو يعيش بظلال دستور مؤقت ، غير ان النظام فى العراق قد استطاب للاستثناء واستراح عند المرحلة الانتقالية فلم يعد يتذكر ان فى العالم دساتير دائمة واشكالا شرعية مستقرة لانظمة الدول .

الدستور المؤقت عبث دائم

ان استمرار النظام العراقى للحياة وانزال دستور مؤقت منذ ربع قرن يعكس الحالةالشاذة لطبيعة الحكم واصراره على العبث بمقدرات المجتمع من خلال التعديلات التى يجريها على الدستور المؤقت بقرار يعده عادة مكتب امانة السر دون اجتماع الاعضاء ويعكس التصور الذهنى لصدام حسين ومجموعته ويؤكد عدم صلاحيتهم لمسؤولية الدولة من خلال عدم تقديرهم ووعيهم لشروط بناء الدولة ومهماتها الاساسية والتى يشكل الدستور الدائم الدعامة الاساسية فيها .

الدستور الكويتى

لا حاجة للتذكير بان دولة صغيرة كالكويت مثلا استكملت استقلالها فى ٢٥ شباط ١٩٦١ قد انجزت لها دستورا دائما بعد اقل من ١٢ شهرا بينما كان العراق امضى فى ظلال الدستور المؤقت إثنين وثلاثين سنة ..

ان صدام حسين يتألم جدا حين يستمع الى اخبار الاستقرار فى الدول

المجاورة له وهو بغض النظر عن طبيعة نظام هذه الدولة او تلك لايشعر بارتياح لاستقرار جيرانه حتى ولو كان نظاما على شاكله ..الاردن حليفه القديم والجديد ، لكنه لايشعر باهمية استقرار دولته !

وان من غير المتوقع صدور دستور دائم للدولة العراقية في ظلال صدام حسين وشلته لعجزهم عن وعي الاهمية الدستورية للدولة بالاضافة الى رغبتهم في بقاء العراق دولة عائمة بين دول ثابته الدعائم ، وصدام حسين « يؤدلج » ذلك محتجا بشرعية الثورة وكأن الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي تعيش بدون دستور دائم ودون قوانين ، وكأن الثورة عنده سطو ليلي على السلطة وتحويم القوانين ، وجعل الاستثناء قاعدة !!

قوانين فريدة

كيف تصدر القوانين في العراق ؟! وماهو الفرق بين المرسوم والقانون ، ماالفرق بين الامر الذي تصدره السلطة التنفيذية والقانون !!

في دولة صدام حسين تتساوى المراسيم والقرارات والاوامر والقوانين .

ولاتعجبوا فقد اصدر صدام « قرارا » اعلن فيه ان « قرارات » مجلس قيادة الثورة هي قوانين وكل قرار يصدره المجلس قانون وكل قول لصدام يصدر بقرار من المجلس قانون !!

وكل كتاب يصدره قانون .

وكل امر يصدره قانون .

وهذا « حالة قانونية » لايعرف لها مثل في «دولة» اخرى فالمعروف ان المرسوم يختلف عن القرار والقرار يختلف عن القانون الا قرارات صدام فهي قوانين وعليكم ان تتصوروا كم قرارا يصدره صدام شخصيا او من خلال مكتب امانة سر مجلس قيادة الثورة لتعرفوا كم قانونا يتحكم بمصائر العراقيين حاليا وكيف تصدر القوانين والسهولة التي يصنع فيها القانون .

ولكي تكونوا في الصورة نذكر بان امين مجلس قيادة الثورة الفعلي هو علي الحسين ابن عم صدام حسين ، وهو جندي هارب يحمل شهادة الدراسة الابتدائية!!

ان القوانين التي تسمى عراقية ، للاسف تصاغ بلغة غير قانونية ، وتشيع فيها الاخطاء اللغوية وتفتقر الى مقومات الصيغة القانونية المعروفة .

صباح .. سويلهم قانون !!

وكمثال يحكى لنا مأساة القانون في ظل صدام حسين وكدليل على ازدراء

صدام حتى بقوانينه .وكتعبير حي عن فهم رئيس الدولة العراقية للقانون ماحدث على شاشة التلفزيون الذى اعتاد نقل وقائع زيارات وحكايا صدام بتفاصيلها .. ففى احدى المرات ظهر صدام بالتليفزيون هاربا الى قرية غير اهلة بالسكان ، فتقدم نحوه رجل اعرج كان الوحيد الباقى فى القرية بعد ارسال ابنائها الى القادسية ، سأله صدام عن سبب عرجه ، واجابه بالسبب وشكا اليه من مشكلة تواجهه فقال له صدام ولماذا يحدث لك ذلك . قال الشاب الاعرج انه القانون ياسيدى وهنا اشار صدام الى مرافقه مسؤول الحماية صباح مرزا قائلا

تعال صباح اكتب المشكلة ، ويكره سويلهم قانون !!

هكذا تصنع القوانين ! صباح " يسوى " القانون بامر شفوى عاجل من صدام؟!

والحديث منقول بتفاصيله فى التلفزيون ، ولدى عرضه اثار استياء الناس وعوتب مدير الاذاعة والتليفزيون على ذلك فى جلسة خاصة فقال ، ماالعمل اذا لم استطع حذف مشهد من مجموعة الزيارة ان الحياة ربع قرن داخل دستور مؤقت قادت شعبنا فى العراق الى ان يعيش وسط حالات الشذوذ والغرابة والانسحاق ، مع التاكيد بان تشريع دستور دائم للدولة من قبل صدام سوف لايؤدى الى تحسين الاوضاع القانونية للمواطن العراقى ، لان دستور صدام الدائم سوف يأتى نسخة منه ويعكس صورته ، لن يلزم صدام نفسه باحترام دستوره كما لم يلزم نفسه باحترام قوانينه اليومية .

ومثل ذلك يحدث داخل الحزب فقد وضع صدام النظام الداخلى على الرف وراح يعبث بالمنظمة الحزبية واعضائها كما شاء له الهوى ، ولعل مافعله بالدكتور منيف الرزاز مثال على عبثه بالقوانين والانظمة الرسمية والحزبية ، لقد فصل اعضاء الحزب وقياداته دون حاجة الى الرجوع للنظام الداخلى الذى وضعه هو وزمرته .

ان المشكلة الرئيسية لاتكمن فى انعدام دستور دائم للدولة فحسب ، بل تكمن فى شخص غير مؤهل لان يكون على رأس الدولة وقد فعل خلال سنوات حكمه مايدل على انه لايحترم مسؤوليته ومايعيشه شعبنا فى العراق تحت سلطة صدام يقودنا الى تلك الحقيقة .

اغرب القوانين

ان الاشارة الى عدد من القوانين الشاذة والغريبة التى اصدرها صدام تعكس شذوذه وعقده وافكاره وقد عكفت لجنة من رجال القانون المنفيين والمهاجرين على احصاء القوانين الشاذة الى اصدرها صدام منذ عام ١٩٦٨ حتى اليوم وهى

بصدد عرضها على لجان حقوق الانسان ولجنة العفو الدولية .

برلمان المنظمة السرية

ابتداء ينبغي التنبيه الى أن الصيغة البرلمانية التي تقابل الصيغة الثورية فيما نسميه بالديمقراطية الشعبية قد تعرضت الى هبوم كاسح منذ سنوات وقد وجد صدام الحل في استعمال مصطلح « المجلس الوطني » للتوفيق بين الصيغتين وهو توفيق لفظي مع الاشارة الى ان صدام لم يبتكر من عنديات هذا المصطلح وانما استخدمه الزعيم عبدالكريم قاسم في اعقاب ثورة « ١٤ » تموز ومازال الاسم الذي وضعه مكتوبا على مبنى البرلمان الذي شيد في العهد الملكي وافتتحه عبدالكريم قاسم في العهد الجمهوري .

المهم ان الشعب العراقي ظل يستمع الى وعود بقيام مجلس وطني في البلاد منذ انقلاب عبدالرزاق في ١٧ تموز ١٩٦٨ والذي جاء بصدام التكريتي وعائلته الى السلطة ولم يظهر مايشير الى اجراء انتخابات برلمانية الى ان انفرد صدام بالسلطة بعد حملة اعدامات بين تنظيماته اودت بحياة عبدالخالق السامرائي و٧ اعضاء في مجلس قيادة الثورة و ٣٠ اخرين من الكوادر الحزبية والرسمية وكعادته بعد كل مجزرة اعلن صدام انه سيجري انتخابات تشريعية وكان احمد حسن البكر هو الذي كان يعرقل قيام المجلس المذكور حتى اذا خلا الجو تماما لصدام سارع الى هذا « المكسب !!» وهذه طريقة من طرق صدام في الاساءة الى من اركبوه ظهور المواطنين وسيدوه على مقدراتهم .

ومن خلال ضجة اعلامية استدعى فيها طارق عزيز « ١٥٠ » صحفيا من انحاء العالم ليشهدوا مولد التجربة الجديدة لانتخابات المجلس الوطني في العراق نشرت اسماء الذين وافق مجلس قيادة الثورة على ترشيحهم بعد اجتيازهم للشروط المطلوبة بينما ابعد اكثر من نصف المتقدمين عن الترشيح وحرموا من هذه « الفرصة » .

وكان يوم الانتخابات مشهدا من مشاهد السخرية لاينساه شعبنا وكانت النتائج صورة كاريكاتيرية تعكس عقلية صدام وشلته ، الامر الذي اكد للصحفيين ان هذه تجربة فريدة حقا ولانظير لها في العالم كما يقول صدام بحق ، فعلى سبيل المثال اعلن عن فشل جميع جملة شهادة الدكتوراه وذوي السمعة الحميدة امام جميع المرشحين الذين يمقتهم الجهاز الحزبي قبل المجتمع ويزدري بهم الحزبيون قبل ان يحتقرهم الوسط الانتخابي ، وكان الناس يتساءلون في مناطقهم من يكون مرشحهم وما اسمه ، وكان من مهازل صدام وعدوانيته واستخفافه بالناس انه

ارسل شقيقه من امه الى مدينة الثورة الكادحة التى تضم ابناء العمارة وبعض المحافظات الجنوبية ليكون نائبهم !!! ولم يكن احد من فقراء الثورة وبسطائها يعرف اسم سبعاوى لكن النتيجة ظهرت قياسية اذ اعتبر سبعاوى، صاحب اكبر مجموعة مرشحى المجلس فى العراق كافة !!

وبعيدا عن التفصيلات نحدد مزايا مجلس صدام وخصائصه الفريدة التى لانظير لها فى تجارب الدول بالضبط كما قال صدام للصحفيين وكما ردد ببغاوات الاعلام ..

١ـ معروف ان الشعب هوالذى يختار ممثليه فى المجالس البرلمانية اما مجلس صدام فقد اختارته السلطة ووافقت عليه ثم طرحت الاسماء لموافقة الناخبين الذين عليهم ان ينتخبوا خمسة اشخاص فى وقت واحد وليس مرشحا واحدا كما فى العادة وهذه صيغة نعترف انها فريدة .

٢ـ معروف ان البرلمان هو الذى يسحب الثقة عن الحكومة فيسقطها . اما مجلس صدام فقد نص قانونه على حق الحكومة ممثلة بمجلس قيادة الثورة اسقاط بعض او كل اعضاء المجلس الوطنى وقد حدث ان صدرت قوائم عن مجلس قيادة الثورة بفصل اعداد من « النواب !!» الذين لم يرفعوا اصابعهم للتطوع والقتال فى قادسية صدام وقد جاءت صيغة قرارات الفصل مشابهة الى قرارات فصل مستخدمى الحكومة وموظفيها وهذه صيغة هى الاخرى فريدة ، فلم يسبق لسلطة فى العالم ان اصدرت قوائم بفصل اعضاء برلمانيين وانما قد يلجأ وفى حالات خاصة جدا واستثنائية عدد من اعضاء البرلمان لتقديم مقترح بسحب او تجميد عضوية البرلمان اذا ضبط فى مخالفة اخلاقية من النوع الذى يسىء الى سمعة البرلمان .

٣ـ جرى قيام المجلس الوطنى فى ظلال دستور مؤقت واستمر تحت ظلال الدستور المؤقت وهذه صيغة فريدة هى الاخرى لا نظير لها فى العالم اذ المعتاد ان البرلمان ينتخب من خلال دستور دائم للدولة او انه بعد انتخابه يشرع الدستور الدائم .

٤ـ حين يذكر المجلس الوطنى فانما تقفز الى الذهن والى الواقع اولى البديهات والمسلمات المستمدة من اسم المجلس او البرلمان باعتباره مؤسسة تشريعية لها صلاحية اساسية محددة باصدار التشريعات والقوانين ، الا مجلس صدام فهو منزوع الصلاحيات ، ولا علاقة له بتشريع القوانين ، وحينما سئل صدام حسين لدى اجتماعه بمجموعة من موظفى وزارة الاوقاف فى شمال العراق عن سبب فشل المجلس الوطنى واقتراح احدهم « بتقوية المجلس ..!!» عن طريق منحه صلاحيات

اصدار القوانين قال صدام بالحرف الواحد وكما نشر في الصحف واذيع في اذاعاته وقد اقتطعناه من جريدة الثورة العراقية في عددها الصادر يوم ١٩٨٢/٧/١٢ حول رؤية صدام الى مجلسه !!! واتهامه له بانه لو اعطى صلاحيات لتأخر العراق تسع سنوات وان صدام يصدر سنويا مئات القوانين !!

ماهي قيمة أن نقول شكليا والله المجلس الوطني العراقي نعطيه كل الصلاحيات بما في ذلك صلاحيات صدام حسين بامكاننا ان نعمل ذلك ونقول ذلك ونقول ولاقانون يصدر الا من المجلس الوطني .. لكن كم قانون يتمكن ان يصدر المجلس الوطني .

خذوا القوانين التي يصدرها مجلس قيادة الثورة والتي يصدرها صدام حسين من مركزه كرئيس مجلس قيادة الثورة رئيس الجمهورية تجدوها بالمئات .

المجلس الوطني يبقى عشر سنين لايتمكن ان يصدر قانون سنة واحدة من القوانين التي تصدر عن مركز الرئاسة ومجلس قيادة الثورة .. اذن لو اعطينا المجلس الوطني نقول حتى نقويه اذن سمناه عطلنا العراق تسع سنوات .. هل هذا مفيد للعراق نحن كعراقيين نريد بلدنا يبنى بسرعة نريد كلنا نشارك كلنا به .. ولكن هل المسألة هي ان نعطي صلاحيات لواحد لاينهض بها ونعطل اخرين يتمكنون ان ينهضوا بصلاحيات اضافية ..كلا .

الذي ينهض بصلاحيات اضافية نعطيه والذي ينهض بصلاحيات صغيرة نقويه كي تصبح امكانياته اعلى .. ينهض بامكانيات قليلة نقويه لكي تصبح امكانياته اعلى حتى ينهض بالمسؤولية بصورة اعلى .. لانعطل له »

هل كنتم ستصدقون احدا ينقل عن « رئيس دولة » مثل هذا الكلام الذي يصف فيه مجلسه النيابي الذي استدعى « ١٥٠ » صحفيا للكتابة عنه ، وانفقت ثلاثة ملايين دينار لاغراض دعائية و «انتخابية » ان صدام وبنوع من الحقد يشعرك وكانه يعقد المقارنة بين دولته ودولة اخرى وليس بين مكتبه الخاص والمجلس الوطني لينتهي من المقارنة بأن القوانين التي يصدرها صدام « تجدوها بالمئات » .. بالمئات اي دولة هذه التي تصدر بها القوانين بالمئات وهل المفروض ان تصدر القوانين بالمئات اية قوانين هذه التي تطبخ بالمئات هل هي قوانين الجباية والابتزاز التي تفرضها مؤسسات دولة صدام على الناس ام هي قوانين العقوبات بالموت ..

من جهة ثانية يلاحظ استخفاف صدام بالمجلس واعترافه بفشله وعجزه وهذا فضل من صدام وشجاعة لاتنكر ، فقد ايد سابق ان طرحته الاحزاب الوطنية من اراء التشكلة الهزيلة لهذا المجلس وفي هزال قانونه الذي اقيم على ضوئه ..

وقد ارسل رئيس المجلس الوطني واعضاؤه برقية شكر وتأييد كما هي عادتهم

بعد كل خطاب لاسيما وان خطابه كان خاصا بهم وبتقييمه لهم ؟

٥ـ ينقل التلفزيون مشاهد من اجتماعات المجلس الوطني التي يحضرها صدام وهي صورة مقصودة للتشهير بهذا المجلس الهزيل ، فلم يسبق ان تحولت قاعة برلمانية الى ناد للرجل الشعبي تنشد القصائد الداجة بما فيها من اسفاف ورخص ويجري الهتاف والتصفيق مع مايصاحبها من دبكات وهوسات يؤديها « النواب »

٦ـ ومن الخصائص الفريدة لتجربة صدام الفريدة انه اجاز للنائب ان يبقى موظفا كأن يكون سكرتيرا او مديرا عاما او معاون مدير ، اننا نستبعد هنا مناقشة هذه الميزة الفريدة نقاشا قانونيا كأن نقول ان عضو البرلمان او المجلس ليس موظفا وانه ينتمي الى السلطة التشريعية والوظيفة تعني انتماءه الى السلطة التنفيذية او الحكومة ، لكن صدام جعل النائب المحترم موظفا بأمره مدير عام او وزير لزيادة الاستخفاف به ، وقد يكون الرجل حسن النية في هذا المزج بين السلطات لجهله وعدم درايته ، اذ يستوي عنده رجل الحكومة برجل السلطة التشريعية ، والعيب ليس في صدام وحده بل في هذه المجاميع التي سمحت لنفسها بان تقوم بدور مرقصي القرود والعازفين على المزامير والذين يمنحون صدام حق الاستخفاف بهم الى هذه الحدود .

٧ـ وتجربة صدام البرلمانية الرائدة ، اوجدت مجلسين تشريعيين الاول هو مجلس قيادة الثورة الذي يتشكل من صدام وشقيق زوجته مع سبعة اخرين ، وهو المجلس الاصلي ، ومجلس وطني وهو البرلمان الذي لايحق له اصدار القوانين !!

فلا تعجبوا .. انها دولة المنظمة السرية ..

الأب الروحي والابن البار

ميشيل عفلق

صدام حسين

جنرال المنظمة

سيكلوجية صدام

ذبح المؤسسين

حين وضعه مجيد خدوري في لائحة القادة العرب الاثنى عشر الذين اختارهم لكتابة (عرب معاصرون) لم يكن الاعلى صواب على الرغم من اعتراضات عالية النبرة صدرت من هنا وهناك . لكننا اذ ندعو لدراسة ميشيل عفلق من وجهات نظر مختلفة لانتفق مع الجملة التي اختتم فيها الاستاذ خدوري بحثه قائلا (وقصارى الحديث فان عفلق سياسي مفكر ولكنه من الطراز الحالم الرومانسي الذي لايعدم ان يكون له مكان في المجتمع) .

ان الاستاذ خدوري اخذ بالانطباع الذي روج له خصوم عفلق واتباعه ايضا ، في انه رجل مثالي حالم ويستبدل خصومه كلمة رجل بعجوز ويضيفون صفة الخرف !!

ميشيل عفلق ليس كذلك ، ليس مثاليا ولا رومانسيا ولا حالما ولا خرفا وان مثل هذه التقييمات لاتصلح اساسا لدراسة احداث المنطقة العربية خلال الاربعين سنة الماضية والتي كان دور ميشيل عفلق غير الواضح كبيرا على مانعتقد استنادا الى مجموعة حقائق لا على اساس الاعجاب الهش ولا الكره المتعصب .

لايمكن ميشيل عفلق الذي ولد عام ١٩١٠ الى العمل في الواجهات ، وهذا ماجعل دوره مجهولا دائما فهو يفضل الانزواء خلف شخصية ذات نفوذ في المجتمع للعمل نيابة عنه كالاستاذ زكي الارسوزي صاحب فكرة البعث الاولى وشريك عفلق في تاسيس الحزب واكرم الحوراني السياسي السوري وصلاح البيطار زميل عفلق القديم .

لكن عفلق ما ان ينتهي من مرحلة حتى يسرح شريكه في الحزب مع اعتقاد الاوساط السياسية ان الشريك هو الاقوى والاكثر نفوذا في مجتمع الحزب او في المحيط العام .

وقد مرت على الحزب زعامات كانت مؤثرة في المنظمات القطرية وذات نفوذ على الجهاز الحزبي كعبدالله الريماوي ومنيف الرزاز في الاردن وفؤاد الركابي وعلى صالح السعدي في العراق ،فانتهت حياة هؤلاء الحزبية واحيانا حياتهم الشخصية وبقي ميشيل عفلق .

ان هذه الحقيقة يمكن ان تحرك عاملا من عوامل الرد على القائلين بان ميشيل عفلق مثالي وحالم وعجوز خرف .

هناك حقائق اخرى قد تكون اكثر دلالة على انه ميشيل عفلق احد ادهى واخطر الشخصيات ذات الادوار التاريخية في المنطقة .

لقد اقيمت اول وحدة عربية فى التاريخ العربى الحديث بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ وكان لجماهير سورية دور اساسى فى اتخاذ قرار الوحدة وظهر البعثيون الخلصاء للوحدة مندفعين لاختزال الكثير من المراحل فى الطريق لتحقيقها ولم يكن امام ميشيل عفلق الا الاذعان لكنه وهو يصدر فتوى شرعية الوحدة مع مصر كان يخطط لفسخ عرى الوحدة مستعينا بكل من اكرم الحورانى وصلاح البيطار .

وقد كشفت القيادة القومية لحزب البعث فى حركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ عن دور اساسى لهذا الثلاثى فى انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١م .

فى هذا الوقت كان ميشيل عفلق يقود دموة منفعلة وغير مدروسة للوحدة الفورية بين العراق والجمهورية العربية المتحدة ولم تكن ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ قد استكملت بعد بناء هيكلها الوطنى ومانجم عن تطورات دموية اعقبت ثورة ١٤ تموز وانتهت بالاجهاز عليها وعلى زعامتها الوطنية فى ٨ شباط ١٩٦٣ .

لكن ميشيل عفلق داعية الوحدة الفورية كان يقف فى الاتجاه الاقليمى لسلطة حزبه منذ عام ١٩٦٨ حتى وفاته فى عام ١٩٨٩ موقف المؤيد والمساند حتى اذا ظهرت بوادر وحدوية لدى الرئيس احمد حسن البكر ، بادر ميشيل عفلق لاجهاضها فورا حيث اصبح دعاة الوحدة مع سورية متهمين امام حزبهم فانتهوا الى ساحات الاعدام وانتهى احمد حسن البكر محجوزا فى داره .

اما الامين العام المساعد للحزب الذى رشحته الاوساط امينا عاما لحزب البعث الموحد بوحدة العراق وسورية منيف الرزاز فقد اعدم بطريقة وحشية .

هل يمكن لرجل كهذا ان يكون حالما ومثاليا او عجوزا خرفا ؟

لقد اجهزت منظمة ميشيل عفلق فى العراق على ثورة ١٤ تموز التى اخرجت العراق من حلف بغداد ، وحين ثار الايرانيون بعد عشرين عاما ضد الشاه محمد رضا بهلوى المعروف بارتباطاته الغربية تقدمت منظمة ميشيل عفلق والتى تقود السلطة العراقية للقيام بدورها التاريخى المعهود والتصدى لاسقاط الثورة الايرانية كما اسقطت الثورة العراقية فكانت الحرب العراقية الايرانية .

ان ميشيل عفلق نجح فى جعل بغداد وهى المركز القديم للحضارة الاسلامية مركزا للتآمر الصليبى على الحضارة الاسلامية وقد قطع حزبه فى العراق اية أصرة له بالتراث العربى والثقافة الاسلامية .

وهذه حالة شاذة فى معايير الحركات القومية التى تبدأ من وعى التراث القومى واحياء علوم اللغة والتركيز على التراث فى عملية بناء الحاضر .

ومن هنا لم يظهر اهتمام فى اوساط البعث العراقى بالتراث العربى . ولم يسمع عن بروز محقق او كاتب تراثى من بين صفوف البعثيين العراقيين .

وعلى مستوى الاداء اللغوى تشكو العبارة السياسية فى ادبيات الحزب من تدهور بنائها البلاغى وفداحة الخطأ النحوى .

ولم يكن كون عفلق مسيحيا سببا لابتعاده عن التراث العربى - الاسلامى فقد برز اعاظم التراثيين العرب من بين المسيحيين .

وفى العراق كانت مدرسة الاب انستاس الكرملى تتوازن فى جهدها التراثى مع مدرسة التنوير الاسلامى لجمال الدين الافغانى وقد اغنى الكرملى وتلامذته المسيحيون والمسلمون المكتبة العربية باجل واندر الكتب التراثية .

من جانب اخر لايخلى ميشيل عفلق الا بالقليل من الاتباع المعجبين والمحبين ليس فى الوسط القومى فحسب ولكن فى داخل حزبه ايضا .

وانا شخصيا وقد امضيت فى الحزب - كاتبا ربع قرن لم استشهد مرة واحدة بكلمة واحدة لميشيل عفلق لا فى مقال ولا فى محاضرة او دراسة .

سألت صدام حسين.. لماذا لاتكون انت امينا عاما للحزب بدلا من ميشيل عفلق؟

فأجاب .. لاتكن كالسوريين الذين تنكروا له ولا كالرفاق الذين عرضوا على رغبة مماثلة .

قلت افضل مافعله السوريون انهم تخلصوا منه .

قال لكن على صالح السعدى (يقصد الامين القطرى للحزب فى العراق عام ١٩٦٣) فعلها قبل السوريين وسقط .

قلت الامر معك مختلف .

قال بقدر احترامنا للقيادة التاريخية سنكون فى وضع افضل لمواجهة السوريين .

ولم يكن ميشيل عفلق راغبا مرة فى التفاهم مع الحزب فى سورية بينما كان الدكتور منيف الرزاز متحمسا للوحدة مع سورية .

ان خط ميشيل عفلق انتصر كالعادة ! وقوة صدام حسين فى القيادة مستمدة من ولائه التام لميشيل عفلق ولكن ممن يستمد ميشيل عفلق قوته ؟!

يبدو لى ان الحلفاء قبيل او اثناء الحرب الثانية كانوا وهم يخططون الى مرحلة مابعد النازية وجدوا من المناسب لاستمرار مصالحهم فى المنطقة العربية تأييد او خلق تشكيلات سياسية لركوب الموجة القومية التى كانت تتقدم الى السواحل العربية بسرعة . وتأييد او خلق مضادات لها فى الوقت نفسه .

فبينما كان الشعار القومى يستقطب احلام الشباب العربى ، ظهر ميشيل عفلق التلميذ الاستشراقى القادم من باريس ، ليجير حركة الانبعاث القومى له شخصيا

وينجح فى ذلك نجاحات هائلة فى الوقت الذى بدأ تيار اخر يقوده سعادة بالدعوة الى القومية السورية !

اما بيار الجميل فقد اسس الكتائب اللبنانية .. الذى اعتقده ان ميشيل عفلق لايفهم بسهولة مالم يوضع فى هذه الصورة وعلى يمينه بيار الجميل وعلى يساره انطون سعادة وسياسى ثالث هو كميل شمعون الذى اخفق فى بناء هيكل حزبى يضارع مابناه الثلاثة الاخرون .

مفكر مسيحى أم مستشرق ؟

حدثنى المحامى السورى منير عبدالله تلميذ زكى الارسوزى وراويته المعروف ان الارسوزى كان مستاء ومندهشا من منح بابا الفاتيكان لميشيل عفلق وسنام الفاتيكان لجهوده فى خدمة المسيحية ، بينما كان شائعا ان الكنيسة لم تكن راضية عن اتجاهات عفلق القومية فضلا عن كونه من اتباع الكنيسة الارثوزكسية.

ان مجيد خدورى يطلق على ميشيل عفلق وصف المفكر المسيحى ويقول (ان ميشيل عفلق بوصفه مفكرا مسيحيا لم يستطيع التاثير الا فى الشبان المسلمين الذين طغى ولاؤهم للوطن على ولائهم للدين اما الكهول الذين لايزال المقام الاول عندهم للدين فان تاثرهم بهذه الافكار لم يكن سهلا رغم تودد عفلق للاسلام)

ولم يكن عفلق خطيبا مفوها ، او متحدثا يسحر سامعيه : فاذا تحدث فالى فئات قليلة ، لكن شخصيته الانعزالية والمنطوية ساعدته على المكوث فى المنظمة السرية والانسجام مع طقوسها .

. اننا لانميل الى استخدام كلمة مفكر فى وصف ميشيل عفلق ولا الى وصفه بالمسيحى ، وقد كان المسيحيون العرب الذين عاصروا ميشيل عفلق او الذين سبقوه اساتذة المعجم العربى ، والتحقيق اللغوى والرواية التاريخية ، بينما ينقطع ميشيل عفلق عن تراث الامة فلم ترد له فى جميع كتاباته استشهادات تاريخية او ادبية ولم يجعل التاريخ العربى مرجعا لكتاباته .

وبهذا يبدو ميشيل عفلق اقرب الى صورة المستوطن والمبعوث الاوربى منه الى صورة المسيحى العربى .

لكن اتباع عفلق ومدونو سيرته يواصلون منحه الالقاب الفكرية بسخاء غير محدود .

والغريب ان يشارك فى كرم الالقاب كاتب ليبرالى مشبع بالبحث الاكاديمى هو الاستاذ مجيد خدورى الذى يسمى ميشيل عفلق فيلسوف الحزب والاستاذ خدورى لايحتاج الى من يحلل له مكونات عفلق الفكرية .

الخليط الفكرى

رؤية المؤرخ البريطانى توينبى الى صناع الحضارة ونظريته فى الاعتكاف والعودة والتحدى والاستجابة تشكل وحدة من المسروقات الفكرية التى ساهم مثقفون وسياسيون عرب واجانب فى اخفائها داخل منظمة ميشيل عفلق السرية . رغم ان ميشيل عفلق ظل يستخدم هذه الرؤية بعد ان منحها اسما اخر هو الانقلابية .

فى نظرية توينبي يعتكف صانع الحضارة .. يغيب .. يحاور نفسه يطهر اعماقه فى نظرية توينبى بالاتصال الروحى ، ثم يعود الى الناس ، لتبدأ مرحلة التطهير الجماعى .

هكذا اعتكف السيد المسيح ، ردحا من الزمن واعتكف النبى محمد (ص) فى غار حراء ثم عاد الى اهله بالدعوة الاسلامية .

اما ميشيل عفلق فقد وحد عمليتى الاعتكاف والعودة فى مصطلح واحد ، هو الانقلابية التى قسمها الى مرحلتين .. انقلاب على الذات وانقلاب على المجتمع اى عودة .

لكن الامر لم يتوقف عند حد السطو الكامل على نظرية توينبى فى الاعتكاف والعودة ، فاستعار جانبا اخر من فلسفة توينبى فى التحدى والاستجابة حيث يطارد هذا المصطلح اوراق ميشيل عفلق واحاديثه حتى دخل فى اذهان كتاب السياسية اليومية انه من مبتدعات قاموسه السياسى.

ان توينبى وحده قد لايرضى حاجة الاستاذ عفلق المتطلع الى نوع من الاشتراكية ونوع من العنف .

ومعنى هذا ان اللجوء الى كارل ماركس سيكون متوقعا بل ضروريا مادامت الرغبة قائمة فى الكتابة الاشتراكية .

لكن مالم استطع ان استوعبه حتى الان محاولة ميشيل عفلق تكييف ايديولوجية نيتشه وتأهيلها للسكن مع الماركسية .

ولا اعرف كيف اتحد الفيلسوفان ماركس ونتشه فى معتقد مشترك يدعو له ميشيل عفلق على انه من نتاجه الفلسفى الخاص والاغرب من ذلك ان يجرى عفلق ترتيبات فكرية للقاء اخر بين مادية ماركس ومثالية برجسن .

مكون الأمة

فى اواخر الخمسينات وحين بدأ اسم ميشيل عفلق يلمع فى احاديث سياسية

انصرفت لمراجعة اصول افكاره . ولم اجد صعوبة في اعادتها الى اصحابها الشرعيين في محاضرة قدمت في مدينة الرمادي مركز محافظة الانبار تمتد من الحدود السورية الى مشارف بغداد لكن الظرف السياسي في ذلك الوقت من عام ١٩٦١ فرض علي ان اشير الى مصادر (النظرية) برغبة للتوضيح لا برغبة التفضيح !

وعندما توفي توينبي اواسط السبعينات نشرت على صفحتين من مجلة « الف باء » البغدادية مقالا بعنوان « توينبي رجل من اقربائنا » ركزت فيه على علاقة مطروحنا الفكري بنظرية توينبي في الاعتكاف والعودة والتحدي والاستجابة وتركت للقارىء ان يستنتج

استشهد بهاتين المحاولتين لابعاد ظنون متوقعة في ان تكون رؤيتي الحالية لعفلق نتاجا سلبيا لرد فعل على انتماء سياسي سابق .

واذ كانت يد عفلق تمتد الى طاولة توينبي ، فانه لم يدع اعادة النظر في بناء او تجديد نظريته متلما فعل مع الامة العربية التي يراها امة غير متكونة وعليه وعلى منظمته السرية تقع مهمة اعادة تكوين الامة العربية !

لعل ذلك هو « افضح » مافي ميشيل عفلق من استفزاز لم يقف في مواجهته المثقفون والسياسيون .

فلا يعقل ان تكون الامة برسالتها السماوية وتراثها الفلسفي والادبي وتجربتها الحضارية امام عفلق امة غير متكونة وهي تنتظر التلميذ الاستشراقي القادم من باريس لاعادة تكوينها .. هنا تبرز « المهمة السرية » التي كان مفروضا ان تظل مختبئة في المنظمة لكن ميشيل عفلق استسهل تحدي التيارات الفكرية المرتبطة بتراث الامة حين نقل طابع المهمة الى العلنية والجهر بها .

ان اعتقاد ميشيل عفلق بانه يعيد تكوين الامة سرى في اذهان العديدمن اتباعه .

وكان الشاعر الاسكندروني سليمان العيسى قد تصور وهو في اوج اندفاعه للرئيس عبدالناصر ان ينوب عبدالناصر عن ميشيل عفلق في تجديد الدنياحين قال حلم الذرى ان تستفيق حضارة ويجدد الدنيانبي اسمر

على الرغم من ان الشاعر خرج كثيرا على الحدود التي رسمها مرشده الروحي الذي لايسعى لتجديد الامة ، بل لاعادة تكوينها .

الغيبوبة الاعتكاف

كان على ميشيل عفلق وهو في مهمة كهذه لتكوين الامة ان يترسم خطى"

الانبياء » ليحقق نظرية توينبى فى الاعتكاف والعودة .

كان يغيب دائما وتستمر غيبوبته فيقال مرة انه غائب فى البرازيل واخرى فى الارجنتين وثالثة فى بيروت !

والغيبوبة اصبحت فى تقاليد اتباعه . فقدغاب صدام حسين ادعى كل صاحب بيت ان صدام غاب فى بيته !

لكن غيبوبة التلميذ الاخر طارق عزيز وزير خارجية العراق الحالى ، بقيت طى الكتمان فلم يتحدث عنها احد .

ومن الغيبوبة يستدعى عفلق للاشراف على « سلطة جديدة » اقامها اتباعه للتو فيتردد ، ويتمنع قبل ان يصدر فترى بشرعية السلطة ومباركة القائمين عليها .

السؤال الان هو اين ولماذا كانت « غيبوبة » عفلق ؟

والسؤال يصح ان يوجه عن غيبوبة صدام حسين وطارق عزيز وكلاهم غاب فعلا عن الانظار فى ظروف لم تكن تستدعى الغيبوبة .

التبشير بالدكتاتورية

يدعو ميشيل عفلق اتباعه الى التنديد بالنظام البرلمانى ويستعير مصطلحات كارل ماركس ولينين فى تشديد حملة نقدية صارمة ضد الديمقراطيات الغربية واعتبارها اسلوبا يتحكم فيه الرأسماليون بشعوبهم المستضعفة !!

ان ميشيل عفلق لم يبدأ حياته السياسية من هذا المنطلق . فقد شارك فى الدعوة الى الانتخابات البرلمانية بحماس

ورشح نفسه للنيابة عام ١٩٤٣ فى دمشق الى جانب كتلة يمينية . وقد اخفق فى الحصول على القليل من الاصوات .

وعاد عام ١٩٤٩ مرشحا الى جانب كتلة يسارية فلم يكن حظه فيها افضل من حظه فى الاولى .

وكررها ثالثة فى عام ١٩٤٩ مرشحا فى الانتخابات النيابية عن حزبه واخفق مرة ثالثة فلى الحصول على الاصوات المطلوبة .

عندها جعل ميشيل عفلق محاربة الديمقراطية هدفا فى عقيدته السياسية ولجأ الى تشجيع الانقلابات العسكرية املا فى الوصول الى السلطة وشرع يدعو الى اقامة نظام فكرى للتبشير بالديكتاتورية وقد طرح حلولا واهدافا ومشاريع تكتسى فيها الدكتاتورية بالحرير الوحدوى واصبحت الدعوة الوحدوية صنوا للدعوة الدكتاتورية .

لقد نجح عفلق فى الدعوة للدكتاتورية حيث اخفق فى امتحان الديمقراطية :

عفلق يتبرأ

وفى حياته السياسية لم يقدم ميشيل عفلق مثالا لاتباعه فى الدفاع عن عقيدته ، فقد انهزم فى اول مواجهة صغيرة بين الحزب وسلطة حسنى الزعيم ١٩٤٩ واعلن مانسميه فى العراق « بالبراءة » من العمل الحزبى وهى تساوى فى الادبيات الاسلامية التوبة من عمل سىء .

ان رسالة ميشيل عفلق الى حسنى الزعيم الذى يسترحمه طالبا العفو والمغفرة وداعدا بانسحابه من الميدان السياسى ، كانت فضيحة اخلاقية قبل ان تكون سياسية ظهر فيها ميشيل عفلق رجلا يفتقر الى الشجاعة المطلوبة فى الدفاع عن معتقداته السياسية .

لكن الغريب ان ميشيل عفلق عاد الى الميدان الحزبى دون ان تترك رسالة التوبة او البراءة اثرا فى نفسه ، كالاثر الذى تركته فى احمد حسن البكر ، رسالة توبة مماثلة قدمها الى عبدالسلام محمد عارف عام ١٩٦٤م .

انطباعى الشخصى

التقيت بميشيل عفلق اول مرة فى فندق ببغداد عام ١٩٦٣ ، فشعرت كأننى ازور مريضا فى مستشفى التدرن ، وجهه المحنط لايثير احساسا روحيا واصطناعه الكلام الحكيم لاينم عن شخصية حكيمة فعلا . وقد خرجت بعد ساعة وكأنى اخرج من مشاهدة مسرحية بطلها يهودى قديم .

وعندما عدت الى مكتب الجريدة سألنى رئيس التحرير كريم محمود شنتاف عما اذا كنت سأكتب فى عمودى اليومى انطباعاتى عن الاستاذ ميشيل عفلق ؟ ولم يتوقع صاحبى ان يكون جوابى اقتراحا له بأن يعود ميشيل عفلق الى بيروت لكى نتجنب حساسية الشعب العراقى ازاءه !

وفى دعوة حزبية ، استمعت الى ميشيل عفلق اخر مرة فى نيسان ١٩٧٩ ، ولم يتغير لا انطباعى عنه ولا طبيعة حديثه المخنوق والمكرور والدائر بمنحنى مغلق .

لكن هذا التلميذ الاستشراقى رغم افتقار شخصيته للجاذبية استطاع ان يقيم له مركزا خاصا فى مركز الخلافة العباسية وان تتحرك المنطقة باصابع مريديه واظافر اتباعه .

وكان اسمه يتصدر لائحة التشريفات فى بروتوكول الخارجية العراقية ، قبل اسم رئيس الجمهورية ، فاذا مات حمله الرئيس على كتفه وذرف عليه دمعة حارة قلما تجود بها عينه .

وصلى عليه شيوخ الدين الاسلامى ، وصار ضريحه بأمر السلطة مقاما من مقامات الائمة الى جانب موسى الكاظم وابى حنيفة والشيخ عبدالقادر الكيلانى .

ارث عفلق الدموى

وليشيل عفلق ارث دموى واتباع دمويون . لكن صدام حسين الرئيس العراقى الحالى قد تجاوز الدور الذى توقف عنده رفاقه السابقون ولهذا فان المرور فى سايكولوجية صدام حسين قد يعطى صورة عن احلام ميشيل عفلق التى تحققت قبل وفاته لكن شخصية صدام حسين ضاعت بين ركام الثناء والشتيمة .

صدام شىء ام لا شىء ؟ بغض النظر عن سذاجة اعلامه الترجمى وبغض النظر عما تطرحه المعارضة والمعارضون وقد اسقدت جبهتهم فى الطريق العربى من تطوان حتى الدوحة ؟

هذا الخارج من قرية العوجة كيف تشكلت اطاراته النفسية والفكرية والعملية ؟ وكيف استطاع الانتقال من زرائب القرية الفقيرة الى المواقع الاولى فى الدولة ؟ واذا كان ذلك امرا اعتياديا لحدوث فكيف استطاع ان يصرع القادة ويشرد الاحزاب ويغزو الدول ويغير الطبيعة السكانية والاخلاقية للمجتمع العراقى ؟

واذا انخدعت به عناصر هنا واشخاص هناك فكيف انجرت الى مشروعه احزاب ومنظمات ودول ذات تراث عريق وخبرة سياسية واسعة ؟

واذا فات ذلك على احزاب وطنية ومنظمات عراقية وعربية فكيف فات ذلك على حزبه ورفاقه الذين من المفروض ان يكونوا قد خبروه قبل ان يصرع الواحد منهم بالاخر ؟ ويشترك السابقون منهم بابادة اللاحقين ؟

كيف استطاع ابن المنظمة السرية الصغيرة ان يلوى عنق الدولة بمؤسساتها الكبرى ؟ وان يربط وهو المدنى غير المؤهل عسكريا القادة العسكريين الحقيقيين على خشبات الاعدام ويزج بجيش محترف عريق فى ساحات الموت دون هدف ؟

وكيف يتلمس القارىء العربى المخنوق تحت ركام الشتيمة والتشهير والخارج توا من فصول التأليه والتبجيل التى لم تحظ بها شخصية عربية قبله لا من حجم التأليه ولا من حجم التشهير ، كيف يتلمس هذا القارىء طريقه ؟

الذى نعتقده ان صدام حسين لم يشرح ولم يعرف وان عمليات التعريف به قاصرة ومبتسرة وان ظاهرة غير مكتشفة حتى الان تتحكم حاليا بمقدرات العراق وتطمح للتحكم بمقدرات دول عربية اخرى لم تعط الاهتمام الذى تستحق بل لم يجر التثقيف بمخاطرها الوجودية والحضارية .

ان صدام ظاهرة خاصة وقدرة خاصة ونظام خاص .

ليس فاشيا لان للفاشية شروطها وليس عشائريا لان للعشائرى التزاماته وشروطه . ولاينبغى اخضاعه للمنهج المقارن لاننا اذ ذاك سنخفق فى العثور على مماثل تاريخى .

ومن الخطورة بمكان استخدام المقارنات التاريخية للتعريف بصدام لان ذلك سيؤدى حتما الى اعادة النظر فى الاحكام والمعايير الصادرة ضد العديد من تلك الشخصيات فى مختلف عصور التخلف والانحطاط .

أن المنهج المقارن حين يستخدم لتحليل شخصية صدام حسين فانه يؤدى الى نتيجة تاريخية جديدة تظهر فيها وجوه منبوذة فى تاريخ الشعوب مقبولة وطيبة ورحيمة لكن صدام حسن يمكن ان يختزل ،

والطريق الى اختزاله يمر من طريقه اليومى بين قرية العوجة مسقط رأسه ومركز ناحية تكريت وقد حمل قضيب الحديد وهو صبى فى الحادية عشرة من عمره متوجها الى السنة الاولى فى الدراسة الابتدائية فى الوقت الذى غادر اقرانه الى المرحلة الثانوية .

نشأ صدام حسين يتيما فى مجتمع لايجد الايتام فيه مأوىً ولا دارا للرعاية ولم يكن خاله الحاج خيرالله طلفاح صادقا فى ادعاء تبنيه والاشراف عليه فقد ترك طلفاح مدينة تكريت الى بغداد فى الوقت الذى دخل فيه صدام حسين الى المدرسة .

لكن صدام لم يستسلم فحمل عصاه ولجأ اليها وهو يبعد بها الاشواك عن قدميه والكلاب عن نهش ثيابه فاذا دخل المدينة وضع عصا الحديد داخل دشداشته .

ربما ولد حوار داخلى وتفاهم سايكولوجى بين صدام والعصا وقد يكون مجحفا فى ولائه لها تعويضا عن غدر المجتمع وقسوته ، فلم يعد يثق باحد الا بها ولم يحب احدا غيرها فاذا ماأتيحت الفرصة لهذا الصبى ان يكون فى الموقع الاول من الدولة فليس متوقعا ان ينظر الى المجتمع نظرة حب او ثقة .

انه لايصدق ان شخصا مثلى كان يحبه وان رفاقه فى الحزب او رعاياه فى الدولة يحملون له شيئا من الود وقد يعتقد ان مايطرح من مشاعر نحوه انما هو نوع من الكذب ففى الوقت الذى كان محتاجا الى المجتمع لم يمد له احد يد المساعدة حتى اذا تربع على قيادة هذا المجتمع بدأت مشاعر البعض تتملق لموقعه وليس له شخصيا .

وانا على ثقة ان الف اغنية عن صدام حسين فى اذاعة بغداد قد ترضى اى شخص الا صدام فهو وحده الذى يدرك زيف الكلمات وكذب المشاعر ، لكن

المشكلة الخطرة فى افرازات هذه العقدة ان تتطور مشاعر بغض المجتمع فى اعماق صدام فتنتقل من طابعها المحلى الاقليمى الى طابعها العربى ومعنى هذا ان جغرافيا الانتقام ستبدو اوسع .

وقد يكون غزو الكويت احد تعبيرات هذه العقدة على الرغم مما ابداه الكويتيون له من ود واسناد ودعم اعلامى ومالى .

ان تخريب مؤسسات الاعلام الكويتية وتدمير الدينار الكويتى مثلا لايختلف عن اغتيال مروان التكريتى الذى اوصل صدام الى السلطة فى انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨. خردان

لقد كان الاعلام الكويتى صديقه وكان الدينار الكويتى من اشد مسانديه فى حربه ضد ايران .

اذن واستنادا الى سايكولوجيته المعذبة ، فان الكويتيين بدينارهم القوى سيوضعون فى دائرة المجتمع الذى يعانى صدام من عقدة اضطهاده فى طفولته وقد ان له تصفية الحساب وبغير ذلك فلا يبدو ان ممكنات اخرى لتحليل مايقدم عليه صدام من اجراءات تتسم بروح العداء ورغبة التدمير يمكن ان نلجأ اليها فى فهم شخصيته .على ان لانضع جانبا سايكولوجية العمل فى المنظمة السرية وظروفها وعلاقاتها مع الجوار والاتباع والدولة ، وهو المرضوع الذى خصصنا له ابحاثا مستقلة قد تخرج فى كتاب .

وتبقى رغبة التدمير ليست جنوحا طارئا فى وعى صدام حسين وقد تحولت الى نظام متكامل يتعامل به وعلى ضوئه مع الاحداث والقوانين والسياسات . وقد تكون الحرب غير المبررة ضد ايران كبرى المحصلات التى افرزتها رغبة التدمير باشلائها وانقاضها والتهاب النخيل والتهام القدرة الانسانية للبلدين حتى اذا هدأت جبهة الحرب فان رغبة التدمير ستبحث عن فريسة اخرى ينفس الرجل فيها عن مكبوتاته .

ولعل الصورة الكويتية المحطمة مثال على حيوية روح التدمير وتأججها فى وعى ولا وعى صدام حسين .

وستبحث رغبة التدمير وروح العداء عن ايران اخرى وكويت ثانية .

ذبح المؤسسين

لم يسع عفلق لتأسيس قيم رفاقيه ، فهو اذ يدعو الى سلخ القيم السائدة ، فانه لم يقدم لاتباعه قيما انسانية جديدة . ولم تنشأ بين الحزبيين اواصر صلات اجتماعية حميمة ، من تلك العلاقات التى تفرضها روحية العمل المشترك واعتناق

الافكار المشتركة .

ربما لان هذه الافكار تخلو من اهداف انسانية حقيقية فنشأ البعثيون في العراق على قاعدة الاخوة الاعداء .

ومازلت اكرر ، ان البعثي لايحب البعثي . وان احدا لايثق باحد في الجهاز الحزبي . فاذا اتفق اثنان على رد مشترك ، فلانهما في عداء مشترك لاخر .

وقد ابقى اسم الحزب حيا عامل واحد ، هو السرية التي توفر للصراعات الشخصية حجابا يسترها عن الظهور فوق سطح المجتمع ، ولو خرج الحزب الى النور لانتهى منذ الايام الاولى لظهوره وهذا ماجعل الحزب يحجم عن العمل العلني.

ففي عام ١٩٦١ وكان الصراع شديدا بين اجنحة الحزب الداخلية وكانت حكومة عبدالكريم قاسم تنظر في اجازة الاحزاب السياسية ، اقترح كادر بعثي تقديم طلب الى وزارة الداخلية لهذا الغرض . لكن رد فعل قيادة الحزب ، كان غاضبا على هذه الاقتراح .

فقد ابلغ « صالح عبدالحق » نقيب المعلمين في الرمادي وصاحب الاقتراح بان من شأن ذلك الاقتراح ان ينهي الحزب بسرعة وبطريقة لاتستطيع السلطة تحقيقها.

وفي اعقاب استلام الحزب للسلطة عام ١٩٦٣ اضيف عامل اخر لاستمرار الحزب وبقائه ، فقد كان التعلق بالسلطة يغذي الحزب بالمتحمسين المتحفزين للاحلال مكان رفاقهم الذين يتعرضون لعمليات الفصل والعزل والتجميد .

وحصول السلطة يتمحور النشاط وتلتف القلوب المختلفة لكن ذلك لم يمنع من ظهور صراعات علنية حادة بين اجنحة الحزب ، فاذا كانت قواعد الحزب تلتف حوله لكي تتقدم نحو السلطة بخطوات اسرع فان السلطة كانت من جانب اخر من عوامل تفتيت الحزب وتعدد الانشقاقات وقد تكون مشاهد الصراع الدامي بين جناحي الحزب الحاكم ، ماثلة امامنا وقد تمترس جناح على صالح السعدي عام ١٩٦٣ كما تمترس الجناح الاخر بزعامة حازم جواد وتدخلت طائرات القوة الجوية في النزاع واستعملت مصيدة الفئران المملوكية في تلك الصراعات حيث دعي قادة جناح اليسار الى اجتماع حزبي انتهى بالقاء القبض عليهم وتسفيرهم خارج العراق .

قلت لصدام حسين لولا وجودك في قيادة الحزب ، لقاد كل رفيق انقلابا على الاخر وعلى الحزب! فاستانس لهذا الكلام وانشرحت اساريره ثم قال (ولا تستثني احدا) .

قلت استثنى اثنين منهم هما عدنان الحمداني وحسن العامري (عضوا القيادة القطرية انذاك).

قال ولماذا استثنيتهما ؟

قلت لان الاول (مسالم) ولانه يحبك الى درجة لايرى فيها طريقا اخر . اما الثاني اي حسن العامري فلو وضعته رئيسا للموظفين في مؤسسة صغيرة فسيعتبر ذلك اعلى مقام يحلم به فكيف وهو الان عضو في مجلس قيادة الثورة ؟

ان كلامي هذا لايبتعد عن واقع الحال كثيرا فما ينهض به صدام حسين ، كان سينهض به الاخرون ، والفرق بينهم في الدرجة ، وليس في الاتجاه ، ودرجة صدام الدموية حادة للغاية تعاونت على تشكيلها طفولة معذبة وبيئة قاسية فاذا تلفحت هذه الظروف بافكار ميشيل عفلق ظهرت الى الوجود شخصية كشخصية صدام حسين الحالية

من جانب اخر ، لايتبغى الظن باننا نعتمد فقط على سايكولوجية صدام كعامل وحيد يقف وراء صعوده السياسي وقد يكون مقبولا اعتراض صارخ النبرة على مطروحنا السايكولوجي هذا .

فاذا كان صدام حسين دمويا فلم يكن رفاقه في الحزب حمامات سلام .

لقد امضيت في الحزب ربع قرن ولم امر على عضو حزبي لايحمل استعدادا لدور كدور صدام حسين .

ان شعارا مكتوبا على باب كلية القانون والسياسة في بغداد وعلى ابواب كليات اخرى يشير الى بيت شعر هزيل لشاعر هزيل يقول

حزب تشيده الجماجم والدهتتحطم الدنيا ولايتحطم

ان رفاق صدام المختلفين معه ، الذين شدهم على خشبات الادعام ، او الذين يعارضونه في السر ، يتمسكون كثيرا بهذا الشعار ويتمنون ان يفعلوا مايفعله صدام حسين .. ان تتحطم الدنيا وان يقيموا امجادهم على الجماجم والدماء .

ان صدام حسين اذا كان ظاهرة شاذة بمعيار المجتمعات السليمة ، فانه لم يكن ظاهرة شاذة بمعايير الحزب ، وانا واحد من الناس الذين كانوا يعرفون دموية صدام ، لكن انتمائي الحزبي ،وانسجامي مع عقيدتي واحلامي السياسية يجعلني - مادمت في الحزب - اغض الطرف عنها ، ولا ارى فيها شذوذا عن سير الحزب العام ، واو ان تبريرا اطرحه لايقنع احدا بان صدام حسين الرئيس يختلف عن صدام حسين النائب وقد عرفته نائبا لا رئيسا .

ان الفرق بينه في الحالتين لايعني انه كان وهو نائب للرئيس احمد حسن البكر - اقل عدوانية لكن وجود الرئيس البكر - وهذا ماكتشفناه فيما بعد - كان يحول

بين صدام وبين انفراده في اتخاذ قراراته واطلاق طاقاته دونما حدود .

اذن هل كان العامل الدولي وراء صعوده السياسي كما يرى رفاقه السابقون ويؤكده جناح واسع من الحزب المتحد بالبعث السوري ؟

ان اتهاما كهذا لا اظنه يتطلب مناقشة موسعة ، ولايستدعي تقديم الشهادات فالمعروف عن مشروع ميشيل عفلق زعيم الحزب ومرشده الروحي ، انه خرج من مشروع التغريب وان اتباعه لايشعرون بتناقض فكري لا مع المصالح الغربية ولا مع الفكر الغربي ، وقد يكون ذلك سببا موضوعيا يختفي وراء النجاحات التي حققتها منظمة الحزب في ضرب الحركة الوطنية العراقية والاجهاز على ثورة ١٤ تموز .

ولهذا لم يجد الوطنيون في حزب ميشيل عفلق مجالا حيويا لنمو الافكار المعادية للاستعمار . واذا كان ميشيل عفلق قد نجح في رمي الاتباع العراقيين الوطنيين المنضوين الى حزبه خارج الحزب فان الوطنيين السوريين في الحزب نجحوا في رمي عفلق خارج الحزب وتنظيف منظمتهم من اثاره واتباعه .

لكن صدام حسين هل كان وفيا للحزب ؟

ان الفقرات التالية لاتذهب الى الاعتقاد بان صدام حسن كان حريصا على هيكل الحزب و كوادره مثلما كان حريصا على خط ميشيل عفلق ووفيا له وصادقا معه وهو يحمل نعشه على كتفه في نقل تلفزيوني حي وقد ترك ميشيل عفلق مدرسة كبرى للتآمر تتوارثها اجيال الحزب ومنظماته ولم يبتدع صدام حسين له اماني جديدة ، فامنية كل بعثي عراقي ، تدور حول مايستحضره من افكار واساليب لانجاح تحالف مع تكتل في الحزب ضد التكتل الاخر ، والانفراد باعضاء التكتل المنتصر وتصفيتهم الواحد بعد الاخر .

مجموعة الخطوة الاول

سمع باسم صدام التكريتي (هكذا كان اسمه) لاول مرة في اعقاب محاولة خطط لها ونفذها حزب البعث لاغتيال الزعيم عبدالكريم قاسم الذي كان يتجول في شوارع بغداد دون حماية شخصية . وقد ورد اسمه في التسلسل الثاني ، وكان احد القارين في الوقت الذي اصطف المشتركون في المحاولة امام المحكمة ودافعوا عن مواقفهم بصرف النظر عن عدالتها ، ومنذ ذلك اليوم والجهاز الحزبي يتساءل عن كيفية تسلل نصير مبتدئ، في الحزب الى مجموعة قيادية مكلفة بعملية خاصة دون علم مسؤول التنظيم عبدالخالق السامرائي والذي كان صدام حسين نصير اخيه ، خلافا للتقاليد الحزبية .

والجهاز الحزبي يتساءل ايضا عن كيفية هروب صدام قبل ربع ساعة من وصول افراد الشرطة الى المخبأ ؟ وكيف تم هذا التوقيت ومع من ؟

ان بعض المراقبين المعنيين بدراسة تلك الفترة يعتبرون الحصول على جواب صحيح على هذه الاسئلة كفيل بان يفتح امامهم سرا مغلوقا قد يساعد على معرفة الجذور الاولى لارتباطات صدام حسين .

ويتساءل الجهاز الحزبي عن المدى الواسع في قبول الكذب وتدوينه واملائه على الصحفيين والكتاب الذين تناولوا دور صدام حسين في محاولة الاغتيال كأمير اسكندر وفؤاد مطر اذ تحول صدام حسين الى بطل المحاولة وقائدها الذي يوعز لافرادها بالحركة والتصرف وهو امر يضحك الجهاز الحزبي ويجعل هذه الكتابات مجالا للتندر اذ كيف يستطيع نصير ان يقود اعضاء قيادة قطرية وبينه وبينهم ست مراحل وست درجات يحتاج الى قطعها في الظروف العادية لبضع سنوات .

ان هذا يشبه منطق من يقول ان الجندي يقود في المعركة ضباط هيئة الاركان لكن هذا المنطق سيكون مقبولا عند المكلفين بكتابة التاريخ الشخصي لرجل كصدام حسين حين يستلم المكلف شقة مفروشة في باريس ومجلة مطبوعة في لندن .

ان الحقيقة التاريخية اكبر من الرشوة عادة وابقى من التزييف . فكيف اذا كان شهود الحقيقة احياء ولهم ذاكرة على تدوين الحدث الصحيح .

ليس هذا هو المهم رغم اهميته بقدر اهمية نصير مغمور في منظمة صغيرة يشترك بعملية كبيرة مع قادة الحزب الكبار وقد تحول الصبي الحزبي الى قيادي بارز في الدولة والحزب فكيف سيتصرف مع اول مجموعة قيادية استدعته بمهمة خاصة ومنطق الحياة يفرض في هذه الحالة نوعا من الاعجاب والرفاء لهؤلاء الذين اشركوه معهم في عملية واحدة .

كان المفروض ان يتعامل هذا النصير مع تلك المجموعة القيادية بما يقتضيه منطق الاحزاب والجماعات وحتى منطق العصابات وان يعاملهم على الاقل لا بالحسنى والتقدير بل بالتسامح الذي عاملهم المعتدى عليه في محاولة الاغتيال (الزعيم عبدالكريم قاسم) الذي لم يستطع الذهاب الى فراشه في الليلة التي تقرر فيها تنفيذ حكم الاعدام بالمشتركين في المحاولة فتوجه قبل ساعتين من التنفيذ الى محطة الاذاعة والتلفزيون ليعلن تنازله عن حقه والعفو عنهم واطلاق سراحهم والاعتذار الى عائلة سائقه الذي اغتيل في المحاولة !

لكن صدام حسين قاد رجال المحاولة الى الموت واحدا بعد واحد .

١ـ فؤاد الركابي مؤسس حزب البعث في العراق وممثل الحزب في اول حكومة

شكلت بعد ثورة ١٤ تموز فقد اسندت اليه وزارة الاعمار وعمره آنذاك (٢٨) عاما وهو مهندس من اهالي الناصرية جنوب العراق اتهمه صدام بالتجسس لصالح الولايات المتحدة الامريكية واودع في سجن شرقي بغداد وكلف سجين متهم بقتل امرأة يدعى عبداللطيف السامرائي بقتل الركابي مقابل وعد باطلاق سراحه ، اذ اجهز السامرائي على فؤاد الركابي بسكين زودته بها ادارة السجن وكان من الممكن ان يسعف الركابي في المستشفى لولا وصول امر مسبق من صدام حسن وقد ادهله عدم وفاة الركابي بتركه مسجى على النقالة حتى لفظ انفاسه .

٢ـ اياد سعيد ثابت عضو القيادة القطرية لحزب البعث ومن ابرز المشتركين في محاولة الاغتيال ومن الذين ادركوا في وقت مبكر ان وصول صدام حسين الى السلطة سيعرض حياته للخطر فترك العراق الى المنفى وقد حكم عليه بالاعدام واخفقت محاولات صدام حسين لاغتياله .

٣ـ خالد على الصالح كذلك وهو يعيش في المنفى حاليا .

٤ـ سعدون البيرماني دبر له حادث سيارة اودى بحياته وحياة زوجته .

٥ـ سمير عزيز النجم قربه صدام ورفعه الى عضو قيادة قطرية ودبر له محاولة اغتيال في حادث طائرة كانت متجهة الى السودان للتهنئة بمحاولة انقلاب لم تنجح ضد جعفر النميري وقدحشد صدام في الطائرة عددا من الشخصيات الحزبية المطلوب تصفيتها كان من ابرزها محمد سليمان الشخصية السودانية ذات النفوذ الواسع وحمودي العزاوي المستشار السابق في السفارة العراقية في الكويت والذي قاد عملية اغتيال حردان التكريتي هناك وعضو المكتب العسكري صلاح صالح (صهر عدنان الحمداني) والذين قتلوا في الحادث ونجا سمير عزيز النجم باعجوبة فطالب باعفائه من مسؤوليته الحزبية فوافق صدام وارسله سفيرا واعفاه من المسؤولية مرة اخرى واعاده ثالثة ثم ارسله سفيرا في القاهرة وعاقبه رابعة بنقله الى موظف صغير في مديرية الري .

٦ـ سليم الزبيدي من اوائل الذين جرب فيهم سم الثاليوم ، فتوفي ولم تشخص اسباب الوفاة ، وكان الاعتقاد انه مصاب بالسرطان .

٧ـ عبدالكريم الشيخلي استمر فترة شريكا لصدام تزيد على عشرين عاما وقد نفذ عددا من المهام الخاصة وارسل وهو وزير خارجية الى الكويت لتهريب قتلة حردان التكريتي في طائرته الخاصة ، اغتيل بالرصاص في ٨ نيسان ١٩٨٠ وكان محالا على التقاعد .

الطريف ان المكلفين باغتياله استخدموا سيارة تحمل لوحة كويتية ولانعرف السر في هذا الاختيار.

تحالفات المنظمة السرية

التحالف المحلى

التحالف العربى

شخصيته غير المستقرة وسايكولوجيته الميالة الى الانتقام وعدم التزامه باهداف وطنية وقومية وانسانية ثابته انعكس على تحالفاته المحلية والعربية والدولية والشخصية وقد فرض عليه مجتمعه القديم ومكونه فى المنظمة السرية ، سوء الظن وعدم الثقة بالغير ، فبات ذلك سمة رئيسية من سمات السياسة العراقية .

وبقدر احساسه الصغير بالمصالح الصغرى التى يرجوها من تحالفاته فان تلك التحالفات تطرح عادة باشكال عربية ومضامين وطنية وعقائدية وقومية كبرى ، كضرورة الجبهة المعادية للاستعمار والعلاقات الكفاحية مع رفاقه والوحدة العربية والتعاون المشترك ، ولهذا تنجر الاحزاب والشخصيات والحركات السياسية والدول المعنية لمشروعاته السياسية حتى اذا اكتشفت دوافعه الحقيقية تكون قد دفعت ابهظ الاثمان .

ومن خلال استقراء طويل ومتابعة استغرقت عشر سنوات لعلاقات صدام الشخصية والحزبية والوطنية والقومية ، اكتشفنا ان تحالفات صدام على تلك المستويات كانت تنتهى نهايات دموية وانه كان دائما المبادر لعقد تلك التحالفات وهو المبادر ايضا لتقويضها وان التنازل الجغرافى والعقائدى يلازم كل ازمة تتعرض لها سلطة صدام حسين الشخصية .

ان قانونا من قوانين السياسة العراقية الراهنة ان اخطارا يعالجها صدام بتنازل اساسى عن جوانب من عقيدته السياسية لارضاء الطرف الاخر وتمييع مبررات ضغوطه عليه وبتنازله عن جزء من الارض العراقية .

فى الايام الاولى لاستلام السلطة عام ١٩٦٨ كان الخطر الذى يهدد صدام حسين وجناحه ياتى من الجناح اليسارى لحزب البعث المرتبط بالتنظيم السرى والذى يضم اكثر من ٧٥ بالمائة من قواعد الحزب وتنظيماته والذى يرفع شعارات واهدافا اشتراكية ويتهم جناح صدام بارتباطه مع المعسكر الغربى ومع المصالح الطبقية المناوئة لمصالح الطبقات الشعبية الفقيرة فكان على صدام لكى يواجه هذه الاتهامات ان يدخل وقد دخل فعلا بمزايدات يسارية واصدار قوانين مستوحاة من الماركسية اللينينية تجاوزت الحدود التى قد يقف عندها الماركسيون الحقيقيون كقانون العمل وقانون الاصلاح الزراعى وتعديلاته والسيطرة الكاملة على التجارتين الداخلية والخارجية وتسمية القطاع العام بالقطاع الاشتراكى فيما بعد وهى تنازلات عقائدية لم تكن من صلب الافكار الرسمية لميشيل عفلق وحزبه .

وفى عام ١٩٧٠ وحيث كان صدام حسين يواجه ضغوطا من جنرالات مجلس

قيادة الثورة وقادة حزبين متنفذين ولانه كان يسعى لاكتساب سمعة شخصية كرجل قادر على تقديم حلول لمسائل مستعصية كالمسألة الكردية اندفع صدام حسين لفتح حوار مع زعيم الحركة الكردية الملا مصطفى البارزانى وكان باستطاعة البارزانى ان يمدد خارطته الكردية حتى ضواحى بغداد وصدام حسين سيوقع دون تردد .

وحين اشتدت ضغوط الثورة الكردية عام ١٩٧٥ من جانب وضغوط دولية ضد سياسة صدام حسين (الراديكالية) مع الشاه محمد رضا بهلوى فى الجزائر تنازل فيها للشاه عن نصف شط العرب .

وفى اثناء حربه ضد ايران وحاجته الى المال العربى والدعم العربى من المملكة العربية السعودية ودول الخليج ولكى يرضى المعسكر الغربى المساند له الغى صدام حسين القرارات الاشتراكية التى اصدرها فى السبعينات وصار ينافس زئيسة الوزراء البريطانية فى مشروع فردنة مؤسسات الدولة وبيعها للقطاع الخاص باستثناء فرق واحد فقد تحولت المؤسسات البريطانية الحكومية الى شركات مساهمة عن طريق بيع الاسهم الى الراغبين من البريطانيين بينما بيعت المؤسسات الاشتراكية العراقية الى اقرباء الرئيس والمنتفعين من تجار السلطة .

ولو كان القادة الايرانيون على دراية بقانون التنازلات الذى يحكم سياسة صدام حسين حينما يواجه ضغوطا تهدد مركزه فى السلطه ووافقوا على ايقاف الحرب فى اعقاب احتلال الفاو عام١٩٨٦ لربحوا الفاو واجزاء اخرى بمعاهدة كان صدام حسن سيوقعها وسط تصفيق الجماهير العربية !

وهنا اسمح لنفسى بان اقدم بدور من يقدم النصيحة للكويتيين بعدم الاستعجال فى الحث على العودة الى بلادهم لان ضغوطا جدية اذا احاقت بمركز صدام ستكون كافية لا لانسحابه من الكويت فحسب بل تسليمهم اجزاء من البصرة وعندها سيكون بطلا قوميا يقدم ارض العرب للعرب كما هو اليوم بطل فى غزو ارض العرب .

ان هذا الاستقراء يضع امامنا الحقائق المثيرة مقرونة بالتحالفات السهلة والمعقدة التى اقامها صدام حسين على المستويات الاربعة المحلية والعربية والدولية والشخصية .

١ـ اتفاقية التحالف مع الحركة الكردية جناح الطالبانى لمواجهة الحركة الكردية التى يتزعمها الملا مصطفى البارزانى مابين عامى ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ .

٢ـ اتفاقية اذار ١٩٧٠ مع الحركة الكردية بزعامة الملا مصطفى البارزانى .

٣ـ اتفاقية الجبهة الوطنية العراقية مع الاحزاب والحركات السياسية عام

٤ـ اتفاقية الجزائر مع شاه ايران عام ١٩٧٥ .
٥ـ اتفاقية الوحدة مع سورية عام ١٩٧٨ .
٦ـ اتفاقية مجلس التعاون العربي المشترك عام ١٩٨٩ .
٧ـ اتفاقية عدم الاعتداء المعقودة مع المملكة العربية السعودية .
٨ـ تحالفاته الشخصية داخل الحزب .

التحالف الاول

١ـ التحالف مع الطالبانى

استنادا الى مبدأ قديم فى السياسة البريطانية اعنى مبدأ الضد النوعى رجد صدام حسين فى جناح متمرد على الحركة الكردية يقوده جلال الطالبانى فرصة لاستخدماته فلا تكون السلطة فى مواجهة الاكراد العراقيين بل تتوجه بنادق الاكراد ضد الاكراد .

استخدم هذا المبدأ فى مجالات تطرقنا الى بعضها وسنتطرق الى تطبيقات اخرى فى هذه السياسة .

ابدى صدام حسين لزعماء هذا الجناح ليست التسهيلات المطلوبة فحسب وانما مشاعر ودية فياضة غمرت الوفد الكردى المفاوض .

فى تلك الاثناء كنت مديرا للصحافة فابلغت رانا اهم بمغادرة المكتب بضرورة البقاء فى ديوان وزارة الاعلام لاعادة النظر فى قانون المطبوعات رقم ٢٠٦ لسنة ١٩٦٩ والذى ساهمت فى وضعه لتعديل مادة تتيح للوزارة اغلاق جريدة (التآخى) الناطقة بلسان الحركة الكردية التى يتزعمها البارزانى واصدار جريدة (النور) الناطقة بلسان جناح الطالبانى ، فاصدرنا القانون الجديد المعدل فى ساعة متأخرة من الليل فيما كان العدد الاول من جريدة النور جاهزا للتوزيع .

وقد اتسعدت قاعدة قرائها وكانت متنفسا للكتاب القوميين العرب والقوميين الاكراد، مما دفعنى الى تزويدها باخبار خاصة خطيرة احيانا من خلال رئيس التحرير حلمى شريف الموجود حاليا فى بغداد .

ولم يمض عام على صدور جريدة النور وعقد التحالف مع الطالبانى حتى ابلغت مرة اخرى بضرورة تعديل مادة من قانون المطبوعات تتيح لنا اغلاق جريدة النور واعادة (التآخى) الى الصدور !

كان موقفى صعبا للغاية لكننى لم امتثل لرغبة الوزير عضو القيادة القطرية بقطع علاقاتى حالا مع من يمت بصلة الى جناح الطالبانى الذى اعتبرته السلطة

عدوا وهو حليفها ، فابلغت الوزير بعد ايام وفقا لطلب خاص من احد اقطاب جناح الطالبانى انهم يرغبون فى اقامة احتفال بمناسبة عيد النوروز القومى .

رفض الوزير ذلك مهددا بان القبض سيلقى على المشتركين فى اى اجتماع كردى لايعترف به الملا مصطفى البارزانى ! ولم ينقل ذلك للاكراد بل توجهت الى مكان الاحتفال المقام فى احدى بساتين ناحية المدائن على بعد ٢٠ ميلا عن بغداد والذى انتهى بسلام . كما انتهى تحالف صدام حسين مع هذا الجناح دون اراقة دماء ، لكن صدام ظل يشعر برغبة ملحة لايذاء حلفائه الى ان تحققت فى مجزرة دموية تعرض لها الطالبانيون فى وقت لاحق .

٢ـ التحالف مع البارزانى

من المسلمات السياسية ان اتفاقا مع الاكراد لايمر بالزعامة البارزانية يظل ناقصا وغير فعال . اما اتفاق السلطة مع الطالبانى فقد توخت السلطة فيه ان يكون حقلا لتطبيقات الضد النوعى ومحاولة لتعزيز الجانب العراقى فى المفاوضات التى كانت جارية مع الملا مصطفى البارزانى .

ان صلابة البارزانى وتمسكه باهدافه القومية يجعل قادة الحزب الحاكم يتحاشون الدخول معه فى حوار لكن صدام حسين كان مستعدا لان يدفع ورقة بيضاء فى طريقه الى لقاء الزعيم الكردى الرابض على جبال كلاله وسيكون ذلك ضروريا لصدام حسين الذى يخوض صراعا مصيريا ضد جنرالات مجلس قيادة الثورة لكنه اذا نجح فى مهمته فسيكون فى موضع الزعيم الذى يتجاوز المطروح اليسارى القادم من رفاقه المنشقين ومن زعماء الحركة الوطنية الداعين لحل المشكلة الكردية حلا سلميا ديمقراطيا .

وبهذه الاحلام والنوايا توجه صدام حسين الى لقاء الملا مصطفى البارزانى والاتفاق على بيان ١١ اذار لحل القضية الكردية ومنح كردستان الحكم الذاتى . وباعتقادى فان توقيع ذلك البيان كان احدى اهم خطوات التحفز على السلطة التى قطعها صدام حسين حتى عام ١٩٧٠ لكن ملامح البارزانى كانت تشير الى عدم ثقته بنوايا الطرف الاخر والشك فى اخلاصه .

حدثنى الدكتور احمد عبدالستار الجواري وزير التربية والتعليم انذاك والموفد للتشاور مع البارزانى بعد ظهور ازمة خفيفة بينه وبين الحكومة فى اعقاب بيان اذار انه ابلغ البارزانى تحيات كل من الفريق حردان التكريتى والفريق صالح مهدى عماش نائبى رئيس الجمهورية واستعدادهما لحل اى اشكال وفقا لروح بيان اذار . ووفقا لرغبة الرفيق صدام حسين ! فرد عليه البارزانى .. ان كان حردان

وعماش يثقان بصدام حسين ، فانا مستعد للثقة به ايضا واذا كانا لايدريان ماذا يبيت لهما صدام فعليك ان تنقل اليهما تمنياتي بالبقاء بعيدا عن مؤامراته .

ولم يمض سوى اشهر حتى طرد حردان التكريتي واغتيل فيما بعد .

لقد اید لی ذلك الحديث السيد مسعود البارزانی الذی كان حاضرا اللقاء .

اسوق هذه الامثلة لاسناد حقيقة متداولة عن الطبيعة الاخلاقية لتحالفات صدام الغارق فی الشكوك وسوء الظن وروح العدوان . لكن محاولة اغتيال الزعيم الكردی مصطفی البارزانی ستسجل مرحلة اعلی من هذا السياق .

فی اعقاب صدور بيان اذار عام ١٩٧٠ لحل المشكلة الكردية زارنی فی مكتبی بوكالة الانباء العراقية الشيخ عبدالجبار الاعظمی وهو من علماء الاعظمية المرموقين حاملا خبرا علی قصاصة راجيا الموافقة علی تحويله الی قسم الارسال المحلی وكان الخبر مقتضبا جدا ويدور حول سفر وفد مشترك من علماء الدين الی كردستان والالتقاء بالزعيم الكردی الملا مصطفی البارزانی لتكريس العلاقات القائمة بين المسلمين الاكراد وبقية ابناء العراق .

وقد اسرنی الشيخ الاعظمی بمصدر الخبر ورجا الاستفسار من مدير الامن العام ناظم كزار الذی اكد لی فی مكالمة هاتفية صدوره عن القيادة .

سألت الشيخ الاعظمی عن خافيات مهمته فاجاب بطيبة قلب وشیء من الاعتزاز بدوره ان السيد النائب (صدام حسين) والاخ ابو حرب (كاظم كزار) كلفاه بمساع حميدة لدی البارزانی الذی يثق بشيوخ الاسلام ولا يثق برجال السلطة العراقية .

واضاف الشيخ الاعظمی هامسا ان السيد النائب (صدام حسين) قد اهدی مشكورا اعضاء الوفد وهم اكثر من عشرة علماء ملابس دينية كاملة وان مرافقی الوفد وهم سواق السيارات سيقدمونها لنا قبيل وصولنا الی مقر البارزانی لنكون علی افضل صورة .

فوجئنا فی اليوم التالی وكنا نتابع زيارة الوفد الاسلامی ان البارزانی نجا من محاولة لاغتياله اثناء لقائه باعضاء الوفد الذين قتلوا بالاجماع وكشف النقاب عن ان الملابس التی قدمت لهم كانت ملغومة وقد تم تفجيرها باللاسلكی من قبل سواق السيارات التی اقلتهم .

حدثنی مسعود البارزانی فيما بعد عن كيفية نجاة والده ان التفجير تم فی اللحظة التی تقدم حامل اكواب الشای لتسليم الكوب الی والده فاصبح حامل الشای الذی تمزقت اوصاله بالتفجير حاجزا بين الملا مصطفی وبين محدثيه الملغومين .

٢ـ التحالف مع الحزب الشيوعى العراقى

من تقاليد التحالف الجبهوى فى العراق ان جبهة وطنية لن تكون مجدية وفعالة مالم يكن الشيوعيون طرفا فيها . وكانت الاحزاب القومية ومنها البعث العراقى تسعى لاكتساب الصفة اليسارية واوصاف اخرى كالتقدمية والثورية بالاقتراب من الحزب الشيوعى العراقى .

وكانت اجنحة من اتباع ميشيل عفلق منكبين على اعادة النظر فى كتابات ميشيل عفلق وبناء قاعدة فكرية جديدة للحزب تستلهم او تدور على الاقل حول اطار الماركسية اللينينية .

والغريب ان عبدالخالق السامرائى وهو فى جناح ميشيل عفلق وقيادته التاريخية، ظل يبحث عن مرتكزات ماركسية لحزبه حتى يوم اعتقاله من حزيران عام ١٩٧٣ واعدامه فى اب ١٩٧٩.

الا ان رغبته فى اقامة تحالف مع الحزب الشيوعى والتى تبناها قاتله صدام حسين قد تحققت بعد ٤٥ يوما على غيابه من الساحة السياسية ، فتوجهت امال الشيوعيين الى صدام حسين الذى سيتطور لاحقا الى قائد ثورى من طراز كاسترو وكان كاتب هذه السطور يشارك الشيوعيين فى هذا الاعتقاد .

وقعت اتفاقية التحالف الوطنى ونقل التلفزيون العراقى وقائع الاحتفال الذى تحدث فيه عزيز محمد زعيم الحزب الشيوعى العراقى املاً ان يتطور التحالف الى مستوى اعلى بينما ركز احمد حسن البكر على انه تحالف استراتيجى وليس تكتيكيا .

فى اليوم التالى كانت تعليمات قد وزعت على الجهاز الحزبى تطلب فيه القيادة القطرية تقديم مقترحات وافكار لتفتيت الحزب الشيوعى العراقى !! وكان اخطر تلك المقترحات التى اخذت طريقها الى التنفيذ ان يجرى تلغيم الحزب الحليف بزرع افراد مندسين من اجهزة الحزب الحاكم والامانة العامة فى صفوفه وان اقتضى ذلك تركهم اعمالهم والتحاقهم باعمال اخرى فى محافظات ثانية .

وانتهى التحالف باقدام صدام حسين على اعدام احد عشر طالبا من اتباع الحزب الشيوعى بتهمة استمرارهم فى التنظيم بعد دعوتهم للخدمة العسكرية وقد نجم عن تقويض التحالف تشريد العديد من المثقفين العراقيين الى المنفى .

التحالفات العربية

١ـ سورية والعراق

فى احصائية لاستقراء العلاقات بين العراق وسورية منذ استقلال الاخيرة عام ١٩٤٧ حتى العام الحالى ١٩٩٠ توصلت الى نتيجة مذهلة ، فالتوتر الحاد ساد العلاقات بينهما ثلاثين عاما ولم تشغل العلاقات الحسنة الا اقل من ثلاث سنوات واشغلت العلاقات الفاترة السنوات العشر الباقية.

هذا الخلاف المعمر بين القطرين ينفرد بخاصية غريبة فهو ليس كغيره من خلافات الدول المجاورة على الحدود ولايقتصر الخلاف بينهما على اختلاف النظامين . بل هو قائم والبلدان فى نظام متماثل محافظا ام راديكاليا .

غير ان مايدعو للاستغراب ان تشتد الخصومة بين البلدين وتغلق الحدود ويمنع السفر وتبطل وسائل الاتصال وهما يخضعان الى اهداف معلنة واحدة .

سألت صدام حسين مرة ، لماذا لاتقوم بيننا وبين سورية علاقات حسنة ؟ فأجاب ان علاقات حسن الجوار مبدأ لايجوز ان يحكم العلاقات بين سورية والعراق .. فاما ونام واما خصام .

ثم اوضح المقصود بالونام وهو حق العراق فى اخضاع سورية (المنشقة) الى القيادة التاريخية لحزب البعث اى قيادة ميشيل عفلق وجناحه المطرود من الحزب وطبيعى ان حلا مثل هذا سوف لايرضى به الجانب السورى ، وقد القى بميشيل عفلق واتباعه ومدرسته المتآمرة خارج تاريخ البعث .

التناوب الوحدوى

فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، كان السوريون يبحثون عن الوحدة ويتشبثون بها .

وفى الاربعينيات ، حتى نهاياتها كان العراقيون يبحثون عن الوحدة ويتمنع السوريون .

سأل مراسل الاهرام ، السياسى السورى فارس الخورى ، عام ١٩٤٩ ، كيف تعارض الاتحاد مع العراق بينما كنت من دعاته فى السابق ؟ فرد الخورى قائلا: « عندما دعوت لهذا الاتحاد كانت سورية تحت النفوذ الفرنسى ولم يكن امامنا سبيل للتخلص من هذا النفوذ الا بالاتحاد مع العراق ، فأعلنت على رؤوس الاشهاد بيعه فيصل الاول ملكا على سورية والعراق . اما الان ، فقد زال شبح النفوذ الفرنسى وتمتعت سورية باستقلالها فى ظل دستورها ، فلم يعد هناك مبرر للسير وراء هذه الوحدة » .

ولم نعثر على شجاع عراقى بمستوى فارس الخورى ، ليقتنعنا بما وراء حماس

العراق الى الوحدة مع سورية خلال الاربعينات .

ولماذا توقف الحماس بعد عام ١٩٤٨ ؟ ففى تلك الفترة وبعد مصرع الملك غازى واختيار الامير عبدالاله وصيا على العرش ، دخل الى سيناريو العلاقات بين البلدين عامل شخصى محض يتمثل فى البحث عن عرش للامير عبدالاله ، قبل ان تنتهى وصياته على العرش العراقى فى مايو ١٩٥٣ ، لم يعلن سياسى عراقى للشعب العربى عن شىء من تلك النوايا فيما استمر الخطاب العراقى على مستواه العالى من الهياج الوحدوى ، لتغليف جهوده الرامية الى حجز عرش لولى العهد ، بأوراق الوحدة الواهية حتى اذا اقيمت اسرائيل فى عام ١٩٤٨ توقف العراق عن دعوة الوحدة ، بينما شرع السوريون بالدعوة اليها ، والعراقيون يتمنعون بل يغمزون الجانب السورى المطالب بالوحدة ..

يقول طه الهاشمى « ان الاتحاد العراقى السورى فكرة سورية بحتة ، فكر فيها رجال سورية المسؤولون وغير المسؤولين ، حينما ادركوا ان الخطر احدق ببلادهم ، فطلبوا النجدة

جريدة العالم العربى بغداد ٢ مايو ١٩٥٠ .

وبعد ثلاثة ايام على تصريح الهاشمى ، قال نورى السعيد فى محاضرة القيت فى بغداد وكأنه يعيب على السوريين انهم بدأوا يطالبون بالاتحاد بسبب وجود اسرائيل !

ومعنى هذا ان الموقف العراقى يفتقر الى الدافع القومى بينما كان السوريون يلجأون الى العراق فى ظروف تهديد خارجى [فرنسا ثم اسرائيل] اى انه موقف تابع من حاجات الامن القومى لكن السوريين كانوا يرفضون الاتحاد الكامل بسبب ارتباط العراق بمعاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا .

ومابين عامى ١٩٥٤ ـ ١٩٥٨ تجددت محاولات العراق لضم سورية بالقوة الى حلف بغداد وقد اخفقت محاولتان لاستخدام القوة فى عامى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ كان مخططا لهما ان تكونا دمويتين

وكان اديب الشيشكلى الذى رشح لتزعم الحركة الانقلابية الاولى . قد انسحب فى اللحظة الاخيرة محتجا على الاسلوب الدموى المخطط مفضلا اللجوء الى التغييرات البيضاء ، لكن مصدرا عراقيا عزا انسحاب الشيشكلى الى ضآلة المبالغ الموضوعة تحت تصرفه .

تقول وثائق المحكمة العسكرية الخاصة « ح ٢ ص ٤ » ان نورى السعيد اتصل بحكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا للمساهمة ببعض المال والسلاح واتفق اخيرا على قيامهما بتجهيزه بقسم من الاسلحة فأوفدت الحكومة العراقى الضابط صالح

مهدى عماشى الذى اصبح فيما بعد من زعماء حزب البعث العراقى الى روما ليقوم مع الوزير المفوض العراقى هناك عبدالملك الخضيرى بشراء صفقة من الاسلحة ، وهى التى ارسلت الى بيروت وقد اخفقت المحاولة الانقلابية التى خطط لتنفيذها فى يوم الهجوم الثلاثى على قناة السويس .

يقول زعيم الحزب القومى السورى المشارك فى المحاولة فى حديث لباتريك سيل فى الاول من كانون الثانى ١٩٦٠ ان العراقيين كانوا يتخبطون فى الظلام كما كنا نتخبط لقد كانوا فقط ينقلون التعليمات التى يتلقونها من البريطانيين . وفى المحاولة الثانية التى اكتشفتها السلطات السورية ، وكشفت عنها وثائق الخارجية العراقية بعد ثورة ١٩٥٨ فقد اشارت الوثائق الى اجتماع عقده فى اسطنبول « لوى هندرس » نائب وكيل الخارجية الاميريكية ومبعوث الرئيس ايزنهاور مع الملك فيصل الثانى والامير عبدالاله ، وقد طرح مشروع لغزو عراقى لسورية بأسناد اميركى ، وبمساعدة حشود تركية على الحدود السورية لكن السوريين واجهوا هذا المحاولة باللجوء الى الوحدة مع مصر وقيام الجمهورية العربية المتحدة .

الكويت فى مشروع الجمالى

نتوقف عند مشروع الدكتور فاضل الجمالى الذى قدمه الى الامير عبدالاله ليعرضه على الحكومة البريطانية اثناء زيارته الى لندن فى السابع من تموز ١٩٤٩ والذى يتضمن ثلاثة مبادىء :

١- ضرورة اتجاه البلاد العربية نحو الاتحاد ، اهمية اتحاد سورية والاردن مع القسم العربى فى فلسطين .

٢- ضرورة معاونة بريطانيا فى تطمين مصر والسعودية فى ان الاتحاد دفاعى تقضيه مصلحة العرب لصد خطر اسرائيل .

٣- مساعدة العراق فى تحديد الحدود مع الكويت والبحث فى ضم جزيرة وربه وبوبيان لتسهيل انشاء ميناء عراقى .

ولعلها المرة الاولى التى تدخل فيها الكويت طرفا فى سيناريو العلاقات العراقية السورية . ففى الوقت الذى يدعو فيه الدكتور الجمالى لاتحاد عراقى سورى ، يكون فى شأنه ان تصبح الموانىء السورية على الابيض المتوسط منافذ عراقية ، يدعو مشروع الجمالى البحث فى قضية جزيرتى وربه وبوبيان كمنفذ مائى للعراق.

ان الدكتور الجمال ومازال حيا يستطيع ان يقدم عرضا صحيحا لما وراء مشروعه ونتائج مباحثات الامير عبدالاله فى لندن .

الميثاق الوحدوي الاخير

في ذروة توتر العلاقات السورية ١٩٧٨ فوجيء الرأي العام العربي المحلي بأعلان رغبة العراق في الوحدة مع سورية وما تبعه من تطورات ، دفعت الرئيس السوري حافظ الاسد لزيارة العراق وزيارة صدام حسين لدمشق ثم توقيع الميثاق في بغداد بين الرئيس احمد حسن البكر والرئيس حافظ الاسد ، وقد جرت خطوات سريعة لتنفيذ بنود الاتفاق الوحدوي .

كان اعلان الرغبة العراقية في الاتفاق مع السوريين صادرا عن موقف مشترك لكل من احمد حسن البكر وصدام حسين ، اما الجانب السوري فلم يشعر في يوم ما انه طرف في صراع ضد العراق ، وقد حاول الرئيس الاسد اكثر من مرة ان يفتح حوارا مع الجانب العراقي لوضع خطوط لتفاهم وحدوي مشترك ولهذا استجاب بسرعة الرغبة العراقية .

والان وقد مضى على اعلان الميثاق وفشله اكثر من عشر سنوات ولم يصبح ممكنا اصدار احكام صحيحة على ملابسات مازالت غير واضحة وغير معروفة لا للاوساط الشعبية فحسب بل لاوساط في السياسة العليا .

وقد يكون الرئيس حافظ الاسد واحدا ممن يجهلون الاسباب التي ادت الى اعلان العراق تلك الرغبة في الوحدة مع سورية واقدامه على تخريب الاتفاق !.

لكن لا ادعي معرفة تلك الاسباب في الحالتين ، واذا كان ممكنا معرفة دوافع البكر الوحدة مع سورية فليس سهلا معرفة ماحدث في الجانب العراقي ، وادى الى اعلان مايسمى بمؤامرة حافظ الاسد على صدام حسين ! .

لا احد يعرف شيئا عما حدث ، لان شيئا حقيقيا لم يكن قد حدث .

مشروع الاختبارات

اراد احمد حسن البكر ان ينهي حياته السياسية بما ينسجم مع اهداف الحزب القومية وكان خالص النية في دعوته للوحدة مع سورية ، بينما وافق صدام حسين على المشروع الوحدوي لاستخدامه كورقة عباد شمس في اختبار من سيندفع للوحدة ومن سيتحفظ ،ولان رغبة الوحدة صدرت من صدام حسين ايضا فقد اندفع جناحه في الحزب الى ذلك ، بينما وقف جناح البكر بين متفرج وبين متحفظ وبين رافض ومشكك بجدوى الوحدة ! ولم يندفع اي منهم بنسبة اندفاع البكر للوحدة ! . ولم يكن جناح صدام حسين ومنهم عدنان الحمداني وغانم عبدالجليل ومحمد محجوب وظاهر محمد امين ، يدركون انهم في اندفاعهم للوحدة كانوا

يقتربون من ساحة الموت !

وهذا الذى حدث .

فقد اعلن صدام ان هناك مؤامرة تستهدفه بعد ان اصبح رئيسا للجمهورية بأربع وعشرين ساعة بطلها الرئيس حافظ الاسد والمجموعة التى اعلن عن اتهامها بالمؤامرة واعدامها فى الحال وهى مجموعة صدام حسين ! بينما اصبح جناح البكر سيد الموقف بزعامة طه الجزراوى واخرين .

ان هذا التحليل قد يكون افضل معلومة تنقل من شاهد لايملك شهادة لان شيئا لم يحدث !.

الكويت مرة اخرى

لكن زيارة جورج براون وزير خارجية حزب العمال البريطانى السابق الى العراق فى اذار ١٩٧٩ ، قد تكون نقطة تحول فى مسار الاحداث فى المنطقة وكان جورج براون يقدم دائما استشارات شخصية لصدام حسين ، حيث يتحدثان فى اجتماع مغلق فى اغلب الاحيان وقد يحضر الاجتماع طارق عزيز فقط .

سألنى عدنان الحمدانى مرة ماذا يفعل جورج براون فى العراق ؟

فاستغربت من قيادى يسأل رجلا فى القاعدة ، لكن اشرت الى الدار الملاصقة لبيته حيث يقيم غانم عبدالجليل عضو مجلس قيادة الثورة ومدير مكتب صدام حسين قائلا عند جبهة الخبر اليقين ، فقال الحمدانى : هذا لايعرف شيئا ! .

قلت : ان صدام حسين نقل ما اسماها بملاحظات جورج براون وسمعتها وسمعها حاضرون .

يقول صدام ناقلا ملاحظات براون :

اذا كنتم تسعون للوحدة العربية فقد اخطأتم البداية ان اتفاقكم مع سورية اكبر خطأ ارتكبته السياسة العراقية ، لان سورية متورطة بلبنان وهى فى حالة حرب دائمة مع اسرائيل واقتصادها ضعيف ومعنى هذا ان على العراق ان يرسل بقوات الى جانب قوات الردع السورية وان يتحمل مشكلات وجوده فى لبنان وان يكون فى حالة الانذار الدائم لمواجهة اسرائيل وان يخصص نصف ميزانيته لانعاش الاقتصاد السورى وعشره الاخر ، رشاوى للسوريين ، قلت له والكلام لصدام ظ وكيف ترى البداية اذن قال براون : من الكويت !

ومن يمتلك الكويت يستطيع ان يصل الى تلوان !

مصر والعراق

في قمة عربية عقدت في بغداد عام ١٩٧٨ ظهر صدام حسين اشد اندفاعا من مسؤولين عرب لابعاد مصر عن منظومتها العربية وفرض حصار سياسي وثقافي واقتصادي كالذي تفرضه مكاتب مقاطعة اسرائيل في الجامعة العربية ، تحت غطاء معارضة الصلح المصري الاسرائيلي ولكي يظهر صدام حسين قائد اليسار ، والحاضن المخلص للقضية الفلسطينية وشاركت في الحملة دول ومنظمات واحزاب عربية ولكن من منطلق مختلف فاذ تبدو المعاهدة المصرية الاسرائيلية سببا يختفي وراءه الموقف العراقي ، فان نوايا اقليمية محضة كانت تدفع صدام حسين للانفراد بالنضال العربي ، ومحاولة اخذ البيعة الجماهيرية للعراق قائدا للامة العربية وقد تجاوزت الحملة الاعلامية ضد مصر اهدافها السياسية الى التشكيك بأهمية مصر الحضارية ، فجرت ملاحقات المصريين في كل مكان عربي ، وكان صانعي الحملة كانوا ينتظرون ذهاب انور السادات الى اسرائيل ، ليبدأوا بعمليات تصفية الحساب مع مصر والمصريين .

كانت اراقب حماس « المدفوعات الاعلامية » لتحويل البوصلة السياسية على مصر ، الى هجمة عامة على المصريين . فلم يكتفي بالتقليل من اهمية الدور الحضاري لمصر ، بل كان العراق قائد الحملة الاعلامية ـ يشكك بالولاء القومي للمصريين ، ويلوح الى احتمالات الاستخدام الاستخباري للعمالة المصرية وكنت اشعر ان هدف الحملة يرمي الى عزل مصر وتجميد دورها القيادي لكي يتاح للعراق ان يشغل الفراغ الذي ستتركه مصر في الساحة العربية . ولم تكن الحملة الممولة بالمدفوعات العراقية ، معنية كثيرا بالموقف السياسي الذي اتخذه الرئيس المصري انور السادات من قضية الصراع العربي الاسرائيلي ، فقد كانت مصر ، لا اسرائيل ، والمصريون ، لا الاسرائيليون ، هدف الحملة التي اخذت في جوانب منها ناوح بضرورة طرد المصريين العاملين في الدول العربية .

وما زلت اعتقد ان تطوعي للرد على تلك الحملة في مقالات نشرتها جريدة السياسة كان اندفاعا غير محسوب النتائج .

ففي سلسلة مقالات تحدثت عن مخطط لسلب الدور القيادي المصري سواء كانت السياسة المصرية راديكالية او محافظة لكن مقالا اعادت نشره جريدة الجمهورية القاهرية على الصفحة الاولى في العدد الصادر في ٢٤ كانون الثاني ١٩٨١ ، ترك ردود فعل سلبية في الاوساط الرسمية العراقية وابدى السفير العراقي في الكويت ـ في حديث مشترك ـ امتعاضه معتبرا اياه خروجا واضحا على اهداف السياسة العراقية

المفاجأة .. ان مسؤولا عراقيا كبيرا كان فى طريقه الى مسقط اسر لى بعد ايام بان مهمته ستتناول التوسط لدى الجهات العمانية لفتح حوار مع الرئيس المصرى انور السادات ، فى الوقت الذى كانت حملة الاعلام الممولة فى ذروة هجومها على الرئيس انور السادات .

ان ذلك عزز من قناعتى بان سياسة صدام حسين لم تكن معنية بالموقف السياسى لمصر ، فهى اذ تمد خطوط التفاهم مع انور السادات ، فانها تعترض على كتابات تدعو للتعامل مع مصر والمصريين وفقا لمنطلق قومى وحضارى .

وباعتقادنا فان التحول الكبير الذى طرأ على العلاقات العراقية المصرية فى عهد الرئيس حسنى مبارك ، كان ممكنا ان يستمر لو ان السادات لم يتعرض لحادثة الاغتيال ، فانتهز صدام حسين مجىء الرئيس حسنى مبارك الميال لتحسين علاقات مصر مع المجموعة العربية ليكون البطل القومى المطالب بعودة مصر الى الجامعة العربية ، والاخذ بيدها ودعمها بتوسيع فرص العمالة المصرية فى العراق ، كما كان البطل القومى الذى نجح فى اقصاء مصر عن عرقها العربى وتجويع شعبها .

والهدف فى الحالتين واحد ، هو ان يكون صدام حسن بطلا فى كل مرة .

حين يحارب مصر

وحين يصالح مصر

حين يحارب ايران

وحين يصالح ايران

وهو الان بطل يريد ان يأكل نصف اسرائيل ،فهل هى تهيئة لان يكون البطل الذى يعيد لاسرائيل نصفها المأكول فى الضيقة والقطاع ؟

ان رؤيتى الشخصية لاتبعد كثيرا عن هذا المانيشيت الذى اراه فى الطريق الى صياغة التبشير .

لكن المصريين اعتقدوا ان حب صدام حسين لهم ،لا يساويه الا حبهم لمصر ! وساعد على تكريس هذه الفكرة طيبة الفرد المصرى من جهة والرشوات التى قدمت لبعض الكتاب والصحفيين المصريين الذين ساهموا فى خلط الصور واعطاء ماهو شخصى ، تقييما قوميا عالى الاحساس بالمسؤولية ، وقد فات على المصريين كما فات على شخصيا ان صدام حسين لايسعى من اقامة تحالفاته على مبادىء النفع المتبادل ، والمصالح المشتركة وانما لتوظيف اطراف التحالف لخدمة اهدافه الخاصة وتوريطها بمشاريعه .

ولم يكن مجلس التعاون العربى المشترك الذى دعا اليه العراق ، وتم التوقيع

عليه فى شباط ١٩٨٩ من قبل رؤساء الاردن ومصر واليمن والعراق ، سوى مثال للتحالف القومى المبطن باهداف شخصية تتصل باحلام صدام فى قيادة المنطقة العربية ، وكان متوقعا ان ينتهى هذا التحالف العربى ، كما انتهت تحالفات صدام حسين مع الزعامة الكردية فى بيان اذار والزعامات الوطنية فى اتفاقية الجبهة الوطنية اذ فوجئت الاوساط المصرية بوصول وجبات من جثث المصريين العاملين فى العراق الى مطار القاهرة وقيام اجهزة الامن العراقية بمهاجمة المصريين واطلاق النار عليهم .

هكذا الحل المفضل لايخرج عن دائرة الموت ولون الدم والمجزرة .

لكن مالم يتوقعه المصريون ان ينتهى التحالف العراقى المصرى بالمجزرة الكويتية .

اما التحالف العراقى السعودى والذى بادر اليه صدام حسين بضخ مجموعة من مشاريع حسن النية وتقربه الى المعادلات السعودية والخليجية فقد انتهى بعملية غزو الكويت فى الطريق الى احتلال المنطقة الشرقية وحقول النفط الاسطورية .

سياسات المنظمة السرية

دبلوماسية المنظمة

السياسة الفلسطينية

السياسة النفطية

المنظمة السرية والمعارضة

دبلوماسية المنظمة السرية

ان كلا من الدبلوماسية الغربية والشرقية والدبلوماسية فى العالم الثالث تسعى للوصول الى نقطة هدف تسمى معلومات العدو ومحاصرة نشاطه . الا ان الفرق بين هذه الدبلوماسيات يتعلق بتحديد معنى العدو ، فالعدو فى الدبلوماسية السوفيتية معروف [النشاط الذى تقوم به اجهزة الحلف الاطلسى وحلف شرق اسيا والنظام الرأسمالى بشكل عام] والعدو فى الدبلوماسية الامريكية والغربية معروف هو الاخر [حلف وارسو والانظمة الاشتراكية والمعادية للمصالح الغربية].

والعدو فى الدبلوماسية الاسرائيلية هو مجموع الشعب العربى والشعوب الاسلامية .

لكن العدو عند الانظمة الدكتاتورية وانظمة الانقلابات العسكرية هو المواطن ليس الخارج على ارادة السلطة فحسب بل هو ايضا المختلف معها فى الرأى وفى نظام صدام اصبح المستقل والمحايد عدوا لانه خارج تعريف الولاء الذى حدده هذا النظام فهو خاضع بالتالى الى رقابة الاجهزة البوليسية واستجراباتها .

فماذا يعنى وجود معارضة فى الخارج ؟

انه ببسط التحليلات يعنى ان حكومة ما تتصرف تصرفا دكتاتوريا وتمارس عملا من الاعمال المنافية لمبادىء حقوق الانسان وتمنع التعبيرات الطبيعية عن الحريه واختلاف الرأى وتفرض بالقوة سطوتها على الناس من خلال اجهزة مدربة على فنون التعذيب واجراءات قمعية تصدر على شكل قوانين ، عندها يجد المواطن الرافض طريقه الى خارج الوطن تاركا ارضه ومسقط رأسه وملاعب صباه الى حيث الغربة ومافيها من فقدان لاساسيات الحقوق الوطنية والمدنية .

وقد ينوب عنه فى المواطنة غرباء تستقدمهم الحكومة بديلا عن المواطنين المنفيين والمهجرين والمهاجرين كما يحدث حاليا فى العراق .

السفارة فى منفر

ومن الطبيعى ان تتشكل تنظيمات سياسية فى الخارج او ان تنقل الاحزاب والحركات مراكز نشاطها من الداخل الى الخارج فتتكون قوة وطنية خارج البلد .

ولكى تواجه حكومة المنظمة هذه الحالة تتحول المهمة الدبلوماسية فيها لتؤدى دور مخفر الشرطة هذا الذى يحدث هنا فى لندن وهناك فى باريس وبيروت وعواصم اخرى .

وتجرى المعركة بين الشعب والحكومة فوق ارض لا هى لهذا الشعب ولا هى

لتلك الحكومة .

اما مؤسسات النظام فى الداخل فتختص فى مواجهة المعارضة السرية ، وهكذا يتوزع العمل القمعى والبوليسى بين شرطة الامن فى الداخل وبين الشرطة الدبلوماسية ومديرها السفير او القنصل .

وفى حكومة كحكومة العراق حاليا ومن خلال ظروف استثنائية فريدة وتشريعات متوحشة لمواجهة مطاليب الشعب وبظهور حاكم من نمط صدام حسين تكشفت مواصفات ارهابية مستفيدة من التراث القمعى فى الانظمة الفاشية ، وانتقلت هذه المهمات الى الدبلوماسية العراقية وبالدرجة التى دفعت صدام نفسه الى الاعتراف بها وتعريف السفير على ضوئها بانه [عين المقر] .

لماذا عين المقر ؟

ان الفحص العاجل لهذا التعريف يكشف الابعاد البوليسية لمهمة السفير كما يكشف المرامى الارهابية المتدنية التى يفكر فيها هذا النظام .

لماذا عين المقر ؟ لماذا لايكون السفير وجه النظام ؟ لماذا استبدل صدام الوجه بالعين والنظام بالمقر ؟

ان اجابة بسيطة على هذه التساؤلات ترسم الشكل المبسط لشخصية صدام وحدود تفكيره .

لقد استكثر على السفير ان يكون وجها وان كان كالحا فجعله عينا استطلاعية ، والعين كما هو معروف تعنى الجاسوس ، وهذا الجاسوس او العين لايرى ولايتابع ولايراقب اى لا يتجسس لصالح البلد او النظام وانما هو عين المقر ... والمقر هو مركز القيادة والقيادة هى صدام نفسه .

فالسفير لايساوى عنده سوى كونه جاسوسا شخصيا تابعا له اسوة بافراد الشرطة السرية وقد حصر مهماته بهذا الاطار الاستخبارى .

ومادام العمل الدبلوماسى فى تصور نظام بغداد بالشكل الذى عرضناه فلا عجب ان يكون افضل من يرشح دبلوماسيا فى وزارة الخارجية ، اكثرهم استعمالا لعينه واكثرهم استعدادا للتنكيل برجال الحركة الوطنية .

ان الامر لم يتوقف عند حدود المراقبة والتنصت واستخدام العين انما ظهرت مهمة اضافية للعمل الدبلوماسى ، اذ يأخذ السفير دور مأمور المخفر وتتحول مراكز السفارة الى مؤسسات امنية مدججة بالسلاح وبعناصر البوليس السرى وتخصص داخل كل سفارة اقبية لاغراض السجن والتعذيب مما شكل نموذجا جديدا لهندسة مبانى السفارات العراقية الجديدة ولعل مبنى السفارة فى الكويت

صورة لهذا الشكل المعمارى .

الطفرة الدبلوماسية

اما العلاقات الادارية مع المقر فقد اصبحت وزارة الخارجية نفسها [وبوزيرها] تابعة لرئيس المخابرات العامة وبهذا فقد اصبحت صورة الدبلوماسى العراقى معروفة الابعاد والمواصفات .

فلم تعد الدبلوماسية علما تشمل دراسة القانون الدولى العام والخاص ولم يعد مطلوبا من عين المقر وحاشيته ان يكون ملما بتاريخ وتطور العلاقات الدولية والمعاهدات والاتفاقات التى تنظم هذه العلاقة ولم تعد الدبلوماسية فنا يقتضى الاحاطة التامة بالعرف الدبلوماسى واساليب الاتصالات الدبلوماسية والتقاليد الخاصة بالبروتوكول ولا يشترط شىء من الدراية والحذر والحيطة واللباقة والقدرة على التخلص من المزالق والبراعة فى الوصول الى الغرض المقصود. كما لم يعد تعلم لغة البلد المضيف ضرورة ملحة .

ان الدبلوماسى فى حكومة صدام شخص منزوع القلب ميت الاحساس او مفتول العضلات .. يتم تدريبه على دروس عملية فى زرع الالغام وكتابة الرسائل الملغومة واستخدام اجهزة التنصت وتدريب [المرشح الدبلوماسى] على اساليب متابعة المعارضة واستخدام الوكلاء .

من هنا زرعت عواصم العالم بسفراء وصلوا الى السلك الدبلوماسى نقلا مباشرا من اقبية المنظمة السرية وجرى ابعاد الدبلوماسيين من اصحاب الكفاءة والمعرفة خارج وزارة الخارجية . وابعد العسكريون الكبار سفراء فى افريقيا حيث لا حاجة له هناك لدبلوماسى المنظمة السرية .

ان اسلوب الطفرة الوظائفية الذى استخدمه صدام هو فى الوقت ذاته طفرة اجتماعية كبرى كان ذا مردودات ايجابية لصالح النظام .

ان انتقال شخص يعمل فى هيئة تحقيقية فى قصر النهاية او فى قبو المنظمة الى وظيفة سفير او قنصل او مستشار ثقافى او صحفى يشبه الانتقال المسرحى من مشهد الى مشهد او لعله يشبه حلما من الاحلام يجعل مثل هذا الشخص حريصا على اداء المهمات الموكولة اليه بل المزايدة على تقديم مهمات بوليسية متطورة ليكون موضع اهتمام المقر حفاظا على وضعه الجديد .

اى ان اختيار المعزول اجتماعيا ونفسيا عن حضارة المدن والمدينة المعاصرة والبعيد عن الجو الثقافى الانسانى ، لمهمات دبلوماسية ساعد صدام على خلق مجموعة من المرتزقة الباحثين عن المال والشهرة والجنس .

ان المنظمة لاتستطيع ان تتعامل مع ذوى الحس الحضارى او الذين ينحدرون الى وظائفهم عن طريق تدرج طبيعى بحيث تبدو الوظيفة لهم حالة عادية يستطيعون الاستغناء عنها فى اى وقت .

ان هذا النمط من الدبلوماسيين والاداريين لم يعد له وجود فى الدبلوماسية العراقية ذلك ان مخطط التوظيف بقانون الطفرة لا يعطى ثماره المرجوة دون استخدام الجزء المتمم له والمتمثل باسلوب الاعادة الدراماتيكية للعنصر المخالف او المتردد او من يشعر المقر ان عينه لم تعد ترى وان ذراعه مشلولة ، فتصدر القرارات باعادة السفير معلما فى احدى القرى او مضمدا فى مستوصفه القديم.

ان التهديد الادارى باعادة [الدبلوماسى] الى وظيفته السابقة يكفى لبث الذعر فى قلبه حفاظا على مركز صعد اليه ولم يعد فى رأسه مجال لفكرة العودة الى سابق عهده .

ان هذا العرض يساعد على فهم مايبدو انه حالة من التماسك فى أجهزة المنظمة الدبلوماسية بحيث لم يتهيا الا لقليل منهم ترك هذا النظام .

جدول الاهتمامات الدبلوماسية

او تهيئت فرصة للوطنيين العراقيين بالاطلاع على اوراق وزارة الخارجية والمخابرات العامة فما هو جدول النسب الموزعة على تلك الاهتمامات ؟

٤٠ بالمائة من التقارير مرفوعة من موظفى السفارة ضد السفير او المستشار او القنصل .

٤٠ بالمائة من تقارير المخابرات سفير وسفارة ضد النشاط الوطنى .

٢٠ بالمائة عن توزيع اموال ومعونات للوكلاء والاعلاميين وهذه النسبة تدخل فى النسبة السابقة حول محاصرة النشاط الوطنى للمعارضة العراقية . اى ان الحكم الوطنى القادم فى العراق سوف لايجد معلومة واحدة عن النشاط الاسرائيلى للسبب التالى .

ان كلمة العدو فى السياسة العراقية الحالية تعنى المعارضة ضد النظام وعدا ذلك فهم اصدقاء.

ان اسرائيل ليست لها قوة معارضة لحكومة صدام فهى لاتدخل فى خانة الاعداء الذين تهتم الدبلوماسية العراقية بمراقبة تحركاتهم . ويؤكد ذلك خلو البرامج التدريبية للسفارات العراقية وسفرائها من فصل خاص بمواجهة النشاط الصهيونى ، ولاتنص البرامج التدريبية على شىء من الاهتمام الدبلوماسى او الاستخبارى بمواقع النشاط الاسرائيلى ، وتعتبر الخارجية والمخابرات العراقية افقر الاجهزة العربية معلومات عن اسرائيل .

فلم يسجل لها انها ساعدت على معرفة اسماء الجواسيس الاسرائيليين ومواقع عمل الموساد ولم يحدث تصادم على الاطلاق بين المخابرات العراقية والمخابرات الاسرائيلية رغم النشاط المتزايد للاخيرة .

اما وصول العميل الاسرائيلي الى الموقع الذي يختاره في نظام صدام فاصبح من السهولة بحيث لايكلف الموساد اكثر من صورة فوتوغرافية لصدام حسين يحملها العميل الى السفير العراقي ليحجز له تذكرة على اول طائرة عراقية الى بغداد .

موتى الضمير .. موتى الهلع

ان صورة العنصر الدبلوماسي تبدو وكأنها تعني الطمأنينة والراحة والحماية الامنية لاسيما ان المعارضة العراقية لم تستخدم اساليب اغتيال الدبلوماسيين او اختطافهم لاعتبارات اخلاقية على الرغم من ان هؤلاء الدبلوماسيين وبتعريف صدام نفسه عيون المقر وادواته الارهابية المسورة بالمال والحصانة الدبلوماسية الا ان استقراء تاريخ الدبلوماسيين في جهاز صدام يكشف حالة غريبة فهؤلاء المكلفون بمراقبة المعارضة يعانون من مراقبة داخلية يكاد لاينجو منها احد . فالسفير خاضع لتقارير امنية ترسل في بريده الدبلوماسي الى ادارة المخابرات وقد يساهم في كتابتها سكرتيره الخاص او سائق سيارته او حارسه الشخصي كما يتعرض المستشار لنفس السلسلة من التقارير الاستخبارية ويعيش هؤلاء بدوامة قاتلة من [الصراع على البقاء] على حساب تنكيل البعض والتقارير لغتهم المشتركة وليس بينهم لغة اخرى مشتركة واذا كان رجل المعارضة العراقية قد اراح ضميره الوطني مما يجلب له راحة نفسية عامة فان عنصر السفارة يعيش في حالة من تأنيب الضمير والشعور بالخسة واذا لم تكن مثل هذه الحالات قريبة من بعضهم لسقوط اخلاقي عام ، يصيب مثل هذه العناصر عادة فان حالة الخوف والقلق والهلع صفة ملازمة لجميع موظفي السفارات العراقية لاسيما حين يفتح البريد الدبلوماسي وحين تبرق اليهم شيفرة من الخارجية . فهم يتحولون من موتى الضمير الى موتى الهلع بعد كل بريد دبلوماسي وبرقية عاجلة وامامهم شريط من صور الاشباه الذين استدعوا الى بغداد ولم يعودوا ، ولم يعرف مصيرهم .

ان حياة الذل والذعر والهلع والخوف من المستقبل . هي حياة الدبلوماسي في سفارة صدام سفيرا ام سائق سيارة .

وان استقراءا عاجلا لاسماء سفرائه المعروفين بملاحقة رجال المعارضة وقيامهم شخصيا بتصفيات دموية لعدد من العراقيين في الخارج ، تشير الى ان اعداد

كبيرة منهم انتهت الى ساحات الاعدام ، بينما يعيش رجال معارضون لصدام منذ انقلاب ١٧ تموز حتى الان بطمأنينة الحاضر وثقة المستقبل .

لقد استدعى صدام واحدا وعشرين سفيرا الى مؤتمر ولم يعودوا الى مقرات اعمالهم ، كما لم يعودوا الى منازلهم فى العراق فهل استطاع سفراء صدام او صدام نفسه استدعاء رجال المعارضة بهذه السهولة وربطهم على خشبات الاعدام.

لقد قتل القتلة تلك هى حالة سفراء وموظفى سفارات العراق . واذا كان مثل هذا الكلام عاما فلنتذكر قليلا من الاسماء ونتساءل عن مصير السفراء والملحقين الصحفيين والقناصل والمستشارين الذين عينوا بعد انقلاب ١٧ تموز او الذين عينوا دبوماسيين فى السبعينات اين هم الان مع كل ماقدموه من تقارير وما نصبوه من كمائن لرجال المعارضة ؟ واين عيون المقر ؟؟

ادناه قائمة سريعة بعيون المقر الذين وضعهم صدام على المشانق او شدهم على خشبة الاعدام فى الساحة المجاورة للقصر الجمهورى .

المصير الدبلوماسى

اين وزراء الخارجية الذين اشرفوا من بغداد على مهمات عيون المقر وزودوهم بالوسائل المطلوبة لمطاردة المنفيين ؟

اين وكلاء الخارجية الذين ساعدوا وزراءهم على اداء مهمة من النوع المنافى للكرامة الانسانية ؟

لقد استوزر للخارجية منذ انقلاب ١٧ تموز عام ١٩٦٨ حتى الان .

[٦] وزراء هم :

الدكتور ناصر الحانى اغتيل فى بيته

عبدالكريم الشيخلى اغتيل فى محلة الاعظمية

مرتضى الحديثى قتل فى السجن

شاذل طاقة قتل مسموما فى المغرب

طارق عزيز على لائحة الانتظار

سعدون حمادى كذلك

اما وكلاء الخارجية فقد تم اعدام :

محمد صبرى الحديثى

قاسم السماوى

ومن السفراء قتل واعدم

حمودى الفزاوى قاسم كلكاوى

محمد حسين الشامى مدلول ناجى

عدنان شريف .. واخرين .. !

ويقبع فى السجن اكثر من [١٢] سفيرا استدعاهم المقر الى بغداد ولم يعودوا .

ان الدبلوماسى فى السفارة العراقية يؤخذ مغمورا ويرفع كلما انتهى من تنفيذ عملية، الى ان يصل حدا يقرر فيه رئيس المنظمة تصفيته ، وكما يحظر على عضو المنظمة تقديم الاستقالة او التلكؤ عن اداء عمل او المناقشة قبل التنفيذ ، يحظر ذلك على سفراء ودبلوماسى العراق فمن هم المطاردون .

رجال المعارضة ام عيون المقر ؟؟؟

عينة من دبلوماسى المنظمة

نبيل نجم التكريتى - مستخدم صحى - مضمد - فى قرية - سفير حاليا فى القاهرة .

عاصم التكريتى - معلم مدرسة - سفير فى الكويت اثناء الغزو .

غافل التكريتى - معلم مدرسة - سفير فى موسكو حاليا .

اسماعيل حمودى التكريتى - مضيف ارضى فى الخطوط الجوية - سفير فى انقره .

فاضل صلفيح - امه تكريتية - سفير فى الهند .

نورى ويس التكريتى - معلم مدرسة - سفير سابق فى باريس وحالى فى احدى العواصم الاوروبية .

صباح حورانى - مستخدم فى محطة وقود - بانزينخانة - سفير فى طرابلس .

عبدالجبار غنى الدورى - عامل فنى فى السكك الحديدية - سفير فى بون - وسابقا فى الكويت .

خيرى الراوى - موظف فى معمل خياطة - سفير فى اليمن .

ياسين الجبورى - شرطى مخابرات فى هيئة التعذيب « بقصر النهاية » - سفير فى مسقط .

انور عبدالرزاق - مضمد صحى - سفير فى مدريد .

دولة المنظمة العراقية ومنظمة الدولة الفلسطينية

فى ايديولوجيا الحزب .. فلسطين ليست قضية مركزية ولكنها القضية المركزية . والفرق بين المصطلحين هو الفرق بين المزايدة وتضعيف المزايدة لكن الحزب حين استبدل البسملة الاسلامية بالبسملة الفلسطينية لم يكن مزايدة ، كان فقط فى

مراقعه التقليدية على الحافات القصوى من الاسلام ، لا من مراتع العشق الفلسطيني .

يفتتح الخطاب الحزبي باسم حزبنا حزب فلسطين فيعلو صراخ القاعة وتعلو نبرة الاخلاص الطنان فلا تدانيها نبرة الخطيب الفلسطيني في القاعة ذاتها فيصطرخ الجمع ولا تكاد تعرف من منهم المدين للاخر .

ان واحدا من الافكار التي ينبغي تصحيحها في اطار العلاقات العراقية الفلسطينية ، الاعتقاد بأن الفلسطينيين مدينون للعراق كظهير مخلص وكمخزن دائم التجهيز .

ربما كان الاصح من وجهة نظرنا على الاقل ان السلطة العراقية ومنذ عام ١٩٦٣ مدينة كليا لفلسطين ، لا سيما سلطة الحزب الحاكم حاليا الذي اعتاد ان يتزود بوقوده الثوري من المحطة الفلسطينية وبشرعيته في الشارع من [فتوى القضية المركزية] فيسري قادته الى القصر الجمهوري ملثمين بالعلم الفلسطيني فاذا استراحوا او طاب المراح شرعوا بحرب سرية او علنية لاستئصال الفلسطينيين الذين لايحبون فلسطين مثلهم ولا يخلصون لقضيتها .

سيارة فتح

في مطالع عام ١٩٦٣ كان من العسير على الذهن العراقي ان يفصل بين المنظمة العراقية والمنظمة الفلسطينية ، وكما رفض الحزب عبارة [قضية مركزية] لانها اقل من المطلوب فقد استبدل عبارة الخندق الواحد بالحضن الواحد .. وبورك الحاضن الايسر .

اما ابوعمار فقد تزعم في تعاليم الحزب لا منظمة فتح بل منظمة الحزب الفلسطينية .

ولما لم يكن البعث العراقي مؤسسات اعلامية لكونه خارج السلطة فقد اختفى وراء نقابة المعلمين العراقيين التي يرأسها الدكتور احمد عبدالستار الجواري ، الشخصية التي تتمتع بنفوذ واسع في اوساط الاعتدال القومي وقرر تشكيل لجنة اسناد فتح ترتبط بالنقابة وقد كلفت بمسؤوليتها الاعلامية .

كنت انذاك معاونا لادارة شؤون التعليم الثانوي في محافظة بغداد واراصل كتابة عمودي اليومي في احدى الصحف المحلية فكانت تلك فرصة لان اقترح وانفذ قرارا بقصر اسماء المدارس الجديدة على اسماء الفدائيين الذين يسقطون شهداء في عمليات المقاومة ولنجعل من مناسبات افتتاح المدارس مهرجانا قوميا لنصرة فتح وحث الشباب العراقي على التطوع في صفوفها ، بينما انشغل اعضاء اخرون

في لجنة فتح بأعداد مشروع يانصيب لصالح فتح على سيارة من نوع شوفرليت امريكي فاندفع لاقتناء تذاكرها الاف المتحمسين لفلسطين والوف المتحمسين للشوفرليت وقبل ان تجرى السحبة على الشوفرليت ظهرت نتائج سحبة اخرى يبدو انها كانت تجرى فى رواق اخر . فقد قفز جناحنا الصغير فى حزب البعث على ظهر السلطة فجأة ولم تمضى اكثر من ستة شهور على بدء عملنا فى اللجنة التى انقطعت اخبارها عنى وقد تفرغت للعمل الصحفى والاعلامى ، الا ان الدكتور الجواري الذى عين وزيرا للتربية والذى تربطني به أصرة روحية قديمة ورؤية مشتركة لمسالك الحزب العامة ، قد اسرني بأن الحزب استولى على السيارة واثمان التذاكر .

وهكذا فازت ورقة الحزب بيانصيب السلطة وبانصيب السيارة وتذاكر فتح .

اياد عبدالقادر

اثمرت حملتنا الحزبية والاعلامية عن تطوع اعداد من الشباب فى صفوف فتح فاستشهد احدهم فى عملية فدائية هذا الشهيد هو اياد عبدالقادر ، شاب من ابناء محلتنا كرادة مريم التى يتوسطها القصر الجمهوري .

تأتى اهمية استشهاده عند الرأى العام من كونه اول شهيد عراقى فى المقاومة لكن جانبا اخر يرتبط بحياة الحزب الداخلية لم يكن معروفا هو الذى كان يحرك السلطة لتحشيد الناس وجعل موكب جنازته كرنفالا شعبيا ، فالشهيد هو شقيق غسان الذى كلفه الحزب فى صباح انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ مع اشخاص اخرين باغتيال قائد القوة الجوية العراقية العميد جلال الاوقاتى الذى يسكن فى محلتنا بدون حراسة مما سهل عملية الاغتيال اثناء خروجه الى الشارع فى طريقه للالتحاق بمقر عمله بعد سماعه بنبأ تحرك طائرات عراقية قادها طيارون متمردون ،فقد باغته غسان من الخلف بصلية بندقية رشاشة .

كان هتاف جموع المشيعين باسم فتح يجد صداه الجميل فى قلوب الناس لكنه احدث من جانب اخر رجة فى العصب المركزى للحزب صحا بعدها قادة المنظمة العراقية على هوة سحيقة فهذه الجماهير تهتف لفتح وشهيدها لا للحزب وقيادته .

اعتقد ان نقطة التحول فى الاتجاه المعاكس وانهاء المحاضنة العراقية الفلسطينية بدأت خطوطه المرتبكة تظهر على شاشة التنظيم وماليثت ان توضحت صورة جديدة بتعاليم جديدة .

فلكى يكتسب الموقف الجديد مشروعيته كان لابد من تكييف ايديولوجى فى مواجهة منظمة فتح وقد سجلت عليها ثلاثة انتقادات رئيسية ، فهى من وجهة نظر المنظمة العراقية ذات توجه فلسطينى اقليمى ونحن نريد مقاومة فلسطينية بطابع

عربي ، وهي ذات رؤى محافظة ونحن نريدها راديكالية عصماء ،وطابع فتح اخيرا اسلامي واسلاسية فتح من اخوانية عرفات هذا التلميذ السابق في الحركة الدينية المحافظة .

لكن هذه الانتقادات ، التي كانت تسري على خفر واستحياء الى قواعد الحزب ، لم تتحول الى معركة اعلامية ، فاكتفى بفرض حظر اعلامي على نشاط فتح والاستعاضة عن ذكرها بكلمة الفدائيين الفلسطينيين .

مشروع تفتيت فتح

بالطريقة التقليدية التي تتعامل بها اجهزة السلطة العراقية مع اتباع المنظمات والاحزاب السياسية المعارضة اخذت تتعامل مع اتباع فتح ولكن بمشروع ادق تنظيما .

تقرر اولا تأسيس جبهة التحرير العربية في محاولة لتحويل مسار المتطوعين العراقيين عن فتح واعتبر قانون صادر عن مجلس قيادة الثورة الموظف والمستخدم والعامل الملتحق بجبهة التحرير العربية مستمرا في عمله وخاضعا لنظام الترقيات ، وله ان يستلم مرتبه الكامل بالاضافة الى مرتبه الجديد كمقاتل ، واعفى من يتطوع في الجبهة من الخدمة العسكرية الالزامية ، لكن الاقبال سجل انتكاسة مبكرة ، وعلى العكس فقد التحق مثقفون عراقيون ومتطوعون اخرون في صفوف فتح فسبب ذلك انزعاجا تحول بسرعة الى رغبة انتقامية ضد هؤلاء المتطوعين عبرت عنها محاولات ناجحة وفاشلة لتصفيات المقاتلين العراقيين في صفوف فتح من هؤلاء : فهد ، وخالد العراقي وعادل وصفي ، والاخير كان مديرا لتحرير مجلة رئيس المنظمة ياسر عرفات مما دفعه الى تهديد العراق برد فعل انتقالي .

وفي الوقت الذي فتحت بغداد ذراعيها وخزانتها لاستقبال الخارجين على فتح امتدت اصابع السلطة لعقد صفقات عاجلة مع خصوم فتح الذين شعروا بالشماتة لا من فتح وهم في احضان بغداد بل ايضا من الاسرائيليين وقد صارت مساكن اليهود العراقيين المهاجرين مقرات فلسطينية.

هذه التحالفات قد تقنع المراقب العربي بمسوغات بغداد في ان التحالف مع المنظمات والشخصيات الفلسطينية انما يهدف لتوسيع حجم العمل الفدائي بينما هو في الواقع مشروع واضح الخطوط والاهداف لتفتيت الحجم الكبير للعمل الفدائي عن طريق تفتيت كبرى المنظمات الفلسطينية فلم تشكل التحالفات العراقية مع خصوم فتح الفلسطينيين سوى نسبة ضئيلة من حجوم وادوار وامكانيات فتح .

اما جبهة التحرير العربية التي شكلها العراق فلم يساعد هزالها على اي دور

مؤثر فى عملية تفتيت فتح لكن الجبهة كانت ضرورية لاضفاء الشرعية على الدخول العراقى المباشر الى الساحة الفلسطينية قريبا من فتح لاسيما ان القوات العراقية مازالت مرابطة فى الاردن وستنهض بدور اساسى فى المشروع العراقى على الرغم من ان منظمة الحزب وهى فى سنواتها الاولى لم تكن تثق الا بعدد من ضباط المؤسسة العسكرية فلجأت الى سلوك طريقها الخاص .

قيادة قطرية للاردن

لم يكن هذا الطريق الخاص سوى قرار تشكيل قيادة قطرية للحزب فى الاردن مقرها ودائرة نشاطها تدور فى جرش بين القوات العراقية وقوات الثورة الفلسطينية التى كانت مرابطة هناك واعتمد محمد فاضل الذى ورد اسمه شريكا لناظم كزار وكأحد جنرالات المنظمة السرية ، مسؤولا عن تلك القيادة التى ضمت فضلا عنه اسماء معروفة واخرى اصبحت معروفة وثالثة ظلت مجهولة حتى اليوم . وهم :

الدكتور منيف الرزاز الامين العام السابق للحزب - عدنان الحمدانى ، وطالب صويلح فلسطينى اردنى محكوم بالاعدام من قبل الملك حسين ، ورافع الهاشمى نائب ضابط سابق فى الجيش ، وطه محمود السامرائى مدرس ثانوية .

قد يظل سر الدور الذى نهضت به هذه القيادة محلويا فى السجل الحزبى زمنا طويلا لكن ملامح الدور يمكن ان تستنتج من خلال الصراع الاردنى الفلسطينى ومجازر ايلول ومن خلال التحولات الخاصة التى طرأت على مواقع اعضاء القيادة القطرية المؤقتة ، فقد اصبح الدكتور منيف الرزاز الذى حل فى عام ١٩٦٣ محل ميشيل عفلق امينا عاما للحزب فجلب عليه نقمة عفلق واتباعه عاد الى الحزب امينا عاما مساعدا لعفلق ونسى تجربته المرة فى الحزب.

واصبح محمد فاضل عضوا بارزا فى القيادة القطرية العراقية واقترب عدنان الحمدانى الذى كان خارج الحزب قبل استدعائه لتلك المهمة من غرفة القيادة وصار فيما بعد احد ابرز اعضائها ، وعين طالب صويلح رئيسا للمؤسسة الثقافية العمالية وهو لايحمل البنسية العراقية ورقى رافع الهاشمى عضوا فى قيادة فرع بغداد ثم مستشارا فى احدى السفارات .

اما طه محمود السامرائى فكان يعانى من كابوس المهمة فاستقل انعقاد مؤتمر حزبى لمناقشة العلاقات العراقية الفلسطينية ومجازر ايلول ليعلن فى المؤتمر عن دور غير نبيل قام به العراق وايده اخذ اقربائه وهو على عليان واخر لم يكن متوقعا منه هذا الموقف ، هو نورى حمادى رئيس محكمة الثورة ، فاعتقل الاول وطرد

الاخران وهما من اعضاء قيادة الفرع ونامت الطابوقة كما يقول العراقيون على دمه محمود السامرائي لكني رأيته بعد عدة سنوات فتصورته خارجا من احدى المقابر.

اما عدنان الحمداني فبحكم علاقة القرابة وكوني مسؤولا عن توريطه بالعمل الحزبي وكان اصغر اشقائه صبيا يتبختر بسيارة الدوج الامريكي فقد كنت الاحظه اثناء اجازة قصيرة يقضيها مع عائلته قادما من الاردن وهو شديد التوتر مرهقا تقرأ في اعماقه شعورا بالعذاب وكنت كلما سألته عن مهمته قال نحن في المستنقع الاردني

وعن الدور العراقي في الاردن يمكن الاستعانة بما سبق ان اعلنه قائد القوات العراقية اللواء حسن النقيب في هذا الشأن وقد اشرنا الى محاولة اغتيال ياسر عرفات لكن ترحيل المقاومة الفلسطينية من الاردن في اعقاب مجازر ايلول قد يكون اخطر دور عربي ينهض به قطر عربي ضد العمل الفلسطيني وقد كان العراق بطلا غير مرئي في هذه العملية .

فهل كان ذلك بداية العلاقات الخاصة بين الملك حسين والنظام العراقي ، ام الصحيح ان ترحيل الفلسطينيين عن جرش كان ثمرة اتفاق سابق بينهما ؟

تصفية قيادات فتح

ظل العراق يطارد القادة الفلسطينيين بعد ان غادروا مواقعهم وتمكن بمساعدة حلفائه الفلسطينيين من خصوم فتح ان يصفي نخبة بارزة من قادة المنظمة - سعيد حمامي في لندن ، عز الدين خلف في باريس ، علي ياسين في الكويت واخرين .

وهنا اروي ماتسعفني به الذاكرة عن محاولة جرت لاغتيال عرفات وهو في طريقه مدعوا من مقره في جرش الى بغداد حن خرجت اليه شاحنة عسكرية عراقية في الوقت الذي مرت سيارته امام معسكر في بغداد وقد اصيب عرفات بكسر في ذراعه ، وبقي حطام السيارة وهي من طراز بونتياك امريكي ١٩٦٩ بيضاء اللون ماثلا امام المسافرين مابين بغداد والاردن .

ومن المصادفات ان يحضر الزعيم الفلسطيني الى مجلس عزاء اقيم في مدينة سامراء بمناسبة وفاة والد الوزير العراقي عبدالله سلوم وكانت يد عرفات مازالت متدلية بضماد على صدره فسألته عن الخبر فأجاب بذكائه المعهود وقدرته على الخروج من مازق كبذا .. لا شيء لقد تعرضت لهجوم اسرائيلي وانا في عملية فدائية .

وكان الرجل صادقا تماما حتى اذا لم نضع جوابه في باب المجاز اللغوي .

رأى صدام عرفات

قلت في مرة سابقة انني لم اقرأ في وجه صدام سطرا من سطور الاحترام والمودة لياسر عرفات ، ولم يتغير موقفه كما اعتقد .

فعلى الرغم من متانة العلاقات الحالية بين دولة المنظمة العراقية ومنظمة الدولة الفلسطينية وعلى الرغم مما يظهره الزعيم الفلسطيني من حسن نوايا وتأييد وتكبير لدور العراق فان كلمة ثناء او تقييم لم تصدر من الرئيس العراقي بحق ياسر عرفات .

واذا كنا لانملك من المعلومات الخاصة مايكفي لمعرفة موقف عرفات [الخاص] من صدام حسين فأن الاخير في تقييم عرفات لايملك موقفين .

واذا كانت مصالحات عرفات مع العراق سياسة فلسطينية او تفرضه ظروف العمل الفلسطيني ، فان دخول عرفات وهو الوسيط دائما طرفا في النزاع العراقي العربي لايدخل في السياسة التقليدية للزعيم الفلسطيني الذي لايميل الى فتح جبهات عربية ، لكننا نستغرب ان تستمر جبهة خلافه مع سورية هذه المدة الطويلة ، وسيكون استغرابنا اشد في رؤية الزعيم الفلسطيني طرفا في النزاع الحالي .

النهايات !

الاسماء الواردة في هذا الفصل انتهت على الشكل التالي :

١- احمد عبدالستار الجواري ابعد عن وزارة التربية واعاده الرئيس البكر وزيرا للدولة ثم ابعد مرة اخرى واحتجز في داره الى ان توفي بالسكتة القلبية .

٢- رافع الهاشمي [عضو القيادة القطرية المؤقتة في الاردن]. التقينا به اخر مرة عام ١٩٧٢ مستشارا في السفارة العراقية في المغرب وانقطعت اخباره .

٣- طالب صويلح [عضو القيادة القطرية المؤقتة في الاردن]. اعدم رميا بالرصاص في ١٩٧٩/٨/٨ .

٤- عدنان الحمداني [عضو القيادة القطرية المؤقتة في الاردن]. اعدم رميا بالرصاص في ١٩٧٩/٨/٨ .

٥- علي علیان طرد من الحزب ولم يتأكد خبر اعدامه مع عبدالله سلوم .

٦- محمد فاضل [عضو القيادة القطرية المؤقتة في الاردن].

اعدم شنقا يوم ١٩٧٣/٧/٣/٢ .
٧ـ الدكتور منيف الرزاز [عضو القيادة القطرية المؤقتة فى الاردن]
جرت تصفيته فى السجن فى ايلول ١٩٨٤ .
٨ـ طه محمود السامرائى [عضو القيادة القطرية المؤقتة فى الاردن].
لايعرف عنه شيء .
٩ـ نورى حمادى دبر له حادث سيارة فقتل زميله

المنظمة والسياسة النفطية

كان انسحاب بريطانيا من شرق القناة ومنطقة الخليج اواخر الستينات واوائل السبعينات مشروعا متكاملا لترتيب العلاقات مع الدول المنتجة للنفط بموجب مبادىء جديدة تتلائم مع التطورات اللاحقة والتفكير بايجاد صيغ بديلة لاسلوب الامتياز . فقبلت شركات النفط بمبدأ المشاركة واستجابت فيما بعد لمبدأ التأميم وانسحبت الشركات النفطية بموجب اتفاقات محددة من انتاج النفط وتسويقه وسلمت حقوله واباره الى حكومات الدول المنتجة فى المنطقة كالعراق والمملكة العربية السعودية ودول الخليج وليبيا والجزائر الا ان التأميم العراقى لكى يحقق بتقدميه منفردة تدتكون مقدمة لتأميل صدام ، انفرد فى تلك الضجة الاعلامية الواسعة التى ظهر فيها صدام بطل التأميم والرجل الذى انتزع الثروة القومية من مخالب الشركات وساهم فى [معركة التأميم] خبراء النفط العربى وخبراء الشعر العربى وتدخل مبرجان المربد واتحاد الصحفيين العرب وابدلت اسماء مدن تاريخية باسم التأميم وملحقاته وافردت للتأميم فصول فى برامج التعليم وكان متوقعا ان يربط الايديلوجيون جدليا بين تحرير النفط وتحرير فلسطين وان تزدهر سوق الكتابة النفطية .

لكن اجنحة وشخصيات عراقية ابهرت مخاوفها المبكرة من نتائج سيطرة صدام حسين على قوة النفط وقارن مثقفون عراقيون بين حكومة غير مسؤولة وغير ذات اهداف اجتماعية تتصرف بمليارات النفط وبين شركات اجنبية ، فانتهوا بنتائج لصالح تلك الشركات وكانت مخاوفهم تجد لها على ارض الواقع صدى حقيقيا فهذه العوائد الضخمة لن تذهب لبرامج الرفاه الاجتماعى بقدر ماستعزز من امكانات القمع وسيصير سهلا على شخص كصدام حسين ان يبعث رجل مخابرات على طائرة خاصة لاغتيال احد معارضيه والعودة بها الى بغداد .

ولم تكن شركة نفطية اجنبية قبل تأميم النفط تستطيع ان تخصص مثلا ثلاثة ملايين دولار لعميل عراقى يصدر مجلة فى باريس او جريدة فى لندن .

على صعيد التجربة الشخصية كنت قد تحدثت في اعقاب صدور قرار التأميم الى شخصيات اقتصادية وسياسية وتجمعت لدى حصيلة لدراسة مثيرة عن تأميم النفط لم يكن متوقعا نشرها انذاك الا انني انتهزت فرصة خروجي من العراق فنشرتها في جريدة تشرين السورية العدد الصادر في ١٩٨٤/٦/٢٢ ولم اشر في مقالي الى جوابين مازالا عالقين في ذهني .

فقد عقب وزير سابق في حكومة عبدالكريم قاسم على قرار التأميم باشارة الى حفيده وعمره سنتان انذاك قائلا . ان تسليم النفط لحزب البعث العراقي بقيادته الحالية يساوي تسليم هذا الطفل عود ثقاب وهو في غرفة الوقود وباعتقادي الكلام للوزير السابق فان المنطقة تنتظر بعد تأميم النفط الكثير من الحرائق .

اما ابراهيم محمد اسماعيل امين العاصمة العراقية انذاك والمنفي حاليا في الولايات المتحدة الامريكية فقد اعتذر عن اعطاء رأي خلافا لما فعله جميع المسؤولين العراقيين قائلا :

« اعطي رأيي في مسألة كهذه قبل مرور عشرين سنة » وحين حاولت ان اجره الى توضيح رأيه اكتفى بالقول :

« حين تصبح في الخامسة والخمسين من عمرك ستكتشف انني على حق في الاحجام عن ابداء الرأي » .

ان ابراهيم محمد اسماعيل وهو من المقربين لاحمد حسن البكر يعتقد ان مستقبل العراق مع صدام حسين مظلم وكنت اجادله العكس وارى الظلام في حكم البكر !!

اليسار النفطي

لكنها مخاوف عراقية محلية ، لم تستطع ان تجد لها انعكاسات ايجابية بين اجنحة اليسار العربي ولم تتأثر بها احلام خبراء نفط وشعراء عرب كانوا يبشرون الفقراء بعصر جديد ، ويركزون على ثلاثة اهداف قريبة التحقق ستنجم عن التأميم العراقي وهي :

١ـ اعادة ترتيب الخارطة الاقتصادية والغاء التقسيم الثنائي النافر الذي تشكو منه المجتمعات العربية اغنياء جدا وفقراء جدا .

٢ـ الغاء المعادلة الراهنة والمتمثلة بثروات عربية كبيرة مقابل ديون عربية كبيرة .

٣ـ معنى هذا ان التأميم سيحقق عدالة توزيع الثروة العربية .

لقد مر العام الثامن عشر وظهرت نتائج مصرفية مبكرة على الكتاب والشعراء . ومازال فقراء العراق لا العرب يحملون صحونهم على ابواب القصر الجمهوري !!

لكن اليسار العربي ، وقد نسي احلامه في تأميم نفط العراق عاد ثانية في اعقاب الغزو العراقي للكويت الى احلامه السابقة وهو يبشر العرب بعصر جديد سيوزع فيه صدام حسين على فقراء الدول المدينة من ايفاء ديونها ويتمتع المجتمع العربي بعدالة توزيع الثروة .

تقول مجلة فلسطينية مدعومة من العراق [البلاد العدد ١٩٤/١٥ايلول ١٩٩٠] « ان احلامنا العربية ابعد بكثير من حدود الكويت ليس بمفهوم الوحدة او الضم ، بل بمفهوم اكثر بكثير »؟

وتضيف : « نسأل اين هو وجه الحق في ان يكون المواطن العربي المصري مدينا بالف دولار للبنوك الدولية منذ لحظة ولادته ، وان يولد سوداني جائعاً منذ لحظة ولادته ،بل وبموت جائعا ايضا في حين يولد [الكويتي] وحصته مليون دولار مودعة في البنوك او ليس هذا الجوع السوداني والمصري والصومالي من ذلك المال المخزن »؟

هذه السطور ملخص موقف اليسار العربي ليس في احلام النفط الكويتي الحالية ، بل في تأميم النفط العراقي ومادام العراق يقود بزعيمه اليساري اليساريين العرب والكويت ليست كذلك فالمطلوب ان نحاكم صديقنا اليساري قبل خصمنا اليميني على ضوء هذه الافكار .

ان المجلة تتحدث كما لو كان العراق موريتانيا او السودان وتتغافل حقيقة يتداولها المعنيون بتداول الارقام ، فقد بلغت واردات العراق النفطية منذ تأميم النفط عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٩٠ خمسمائة مليار دولار بمعدل سنوي يقرب من ٣٠ مليار دولار .

النفط والفقر

يمكن ان يكون العراق الحالة الفريدة التي يجتمع فيها الفقر والنفط .

ان العراقيين يعيشون ومنذ عشرين عاما بقوانين الرسوم والضرائب في بلد غير نفطي .

ان الشارع العراقي الذي بلغت عائداته النفطية عام ١٩٧٨ اكثر من اربعين مليار دولار ،مازال شارعا فقيرا ومازال سبعون في المائة من افراد الشعب العراقي محرومين من الغذاء الكافي ولا اقول الجيد ، ومازالت معظم مدارس العراق خارج المدن تقام من الصرائف . او من البيوت الطينية ان السائح لايحتاج الى جهد لكي يكتشف الوف الاكواخ التي يعيش فيها الفقراء على بعد ربع ساعة من مركز بغداد في مناطق الشعلة وابوغريب والفضيلة ومدينةالثورة ، فكيف حال

الحياة في المناطق النائية في كردستان او في الاهوار الجنوبية ؟

لقد حالت السياسة العراقية بين المواطن العراقي والاستفادة من عائدات نفطه ، ففي بلد ترتفع فيه درجة الحرارة الى خمسين درجة مئوية لايجد المواطن نظاما للتبريد كالذي اقامته دول النفط العربية ولم يفكر مسؤول عراقي مرة باقامة مصنع محلي مثلا لاجهزة التبريد يفي بحاجات الناس . وفي موسم افتتاح المدارس ، وهذا مثل صغير للغاية يواجه العراقيون تلك المشكلة التقليدية في تعذر الحصول على سروال او قميص مدرسي .

ان مسؤولي السياسة العراقية هذه يختفون دائما خلف اسباب هم المسؤولون عن ظهورها جعلت العراقيين في مستوى معاشي متخلف ان الحرب كما في تعليمات بغداد مسؤولة عن ابتلاع عوائد النفط بينما كان واضحا ان العراقيين في اواخر السبعينات اي في عهد ازدهار العائدات النفطية كانوا ينتظرون على شكل طوابير ساعات طويلة للحصول على صحن البيض او لحوم الدجاج !

اما السيارات الفارهة التي تجوب عادة شوارع الدول المنتجة للنفط فهي في العراق حكر للمسؤولين وعوائلهم ولايسمح باستيراد السيارات الخاصة حتى من قبل الطلاب والعمال العائدين الى بلادهم .

ومنذ عام ١٩٦٨ حتى هذا العام استوردت الدولة مرتين فقط سيارات للركاب ومن يطل على شاشة التلفزيون العراقي الان وتقع عينه على لقطة في شوارع بغداد الرئيسية يتصور وهو يلاحظ نوعية وسائل النقل [التاكسي والحافلات] يصور وكأنه يطل على شارع سوداني او موريتاني ان الصحفيين العرب الذين يتحدثون عن رفاه بغداد قد يكونون على حق اذا اعتقدوا ان دخل الصحفي العراقي وليس المواطن العراقي يقترب من عشر دخولهم من اموال العراق !

منظمة النفط السرية

عندما تناصف احمد حسن البكر وصدام حسين قطاعات الدولة كانت رغبة الاخير شديدة في احتواء القطاع النفطي ومعنى المناصفة ان يكون القطاع بوزاراته ووزرائه وموظفيه وموازناتها المالية شأنا خاصا بمن سيكون مسؤولا عنه وبهذه الطريقة لم يحدث بين البكر وصدام حسين خلافات على تسيير السلطة .

ولان صدام حسين ابن المنظمة السرية الراضخ لطقوسها ولم يطلع على نظم الادارة وليس له رغبة في مغادرة الادارة الحزبية الى غيرها فقد استحدث منظمة سرية للنفط تتحكم بوزارة النفط ومؤسساتها بالطريقة التي تدير فيها المنظمة السرية شؤون الدولة .

ترتبط منظمة النفط السرية واسمها اللجنة العليا لاتفاقيات النفط بصدام حسين شخصيا ، ويديرها عضو مجلس قيادة الثورة وزير التخطيط عدنان الحمداني السكرتير العام للمنظمة بالاضافة الى وظائفه وتتمتع باستقلال كامل عن مجلس الوزراء واعتبر العمل فيها من اسرار الدولة الممتازة واخضع كادرها الوظيفي الى اصول الكادر الحزبي ، فليس لاحد منهم ان يكشف لعائلته طبيعة عمله ومكانه ومهماته ولا ان يدعو اعضاءها الى جلسات خاصة ولا تقام بينهم علاقات خارج مكاتب اللجنة او في داخلها ايضا .

ولمنظمة النفط السرية صلاحيات واسعة وليس وزير النفط سوى واحد من موظفيها غير المهمين .

وبالاجمال فقد كانت حركة الجهاز النفطي في الوزارة والمؤسسات محصورة بعمليات الانتاج والتصنيع النفطي وترسم منظمة النفط السرية السياسة النفطية وتقرر كميات الانتاج وتشرف على مفاوضات الاسعار والتسويق وعقد الاتفاقات .

احيطت اعمال اللجنة بطقوس من السرية تبدو وكأنها احدى الجمعيات الباطنية او الماسونية فقد استفسر عضو في مجلس قيادة الثورة عن مسألة نفطية فرد عليه صدام حسين «انك تقترب من تيار صاعق » .

وقد الغيت لجنة النفط العليا في اعقاب اعدام عدنان الحمداني وارتبط احد موظفيها بصدام حسين شخصيا لكن صلاحياتها السابقة لم تمنح لوزير النفط .

في هذه النقطة يختلف العراق عن اقطار النفط الاخرى التي اخضعت سياستها النفطية الى التسلسل الاداري في جهاز الدولة اسوة بالسياسات التعليمية والاقتصادية والاجتماعية الاخرى ان النفط اذ يوضع الى جانب صدام واذ يتحكم حاكم بمستوى صدام النفسي والتربوي والسياسي في سلعة النفط ، فان شيئا محتملا سيكون مقبولا باقصى ابعاد الاحتمالات .

ان خطورة النفط تتمثل في طبيعته الاحتمالية اي في قدرته على ان يكون طاقة تدميرية كما يمكن ان يكون طاقة تعميرية .

وحيث اصبح معروفا ان صدام حسين يمتلك قدرة تدميرية ذات حجم واسع فان النفط سيكون احد عوامل التدمير الاجتماعي والاخلاقي والسياسي فضلا عن الجانب الاقتصادي وماحصل في العراق منذ تأميم النفط حتى الان يؤكد ماذهب اليه .

التفاهم بانابيب النفط

لكن السياسة العراقية ـ انصافا ـ والمتعلقة بانتاج النفط وتسويقه كانت على

طرفي نقيض من الصخب الاعلامي الذي اصطنعته السلطة وكأنها تعمدت اشغال الصحافة والاعلام والشعراء وكتاب اليسار العربي بضجيج الكلام لكي تتفرغ لسياستها النفطية الهادئة والملتزمة بثوابت اوبك والتي تغازل من طرف خفي اقطاب ومصالح الدول الصناعية المستهلكة.

من جانب آخر وتنفيذا لهذه السياسة فقد استحدث العراق اسلوب التفاهم السياسي بانابيب النفط فتجاوز المنفذ السوري على البحر الابيض الى المنفذ التركي ومد انبوبا يربط حقول النفط في شمال العراق بالموانيء التركية ولم يكن التبرير الذي قدمه العراق [المرونة في التصدير] سببا لمد هذا الانبوب،مقنعا ، وقد اخترق احد الثوابت القومية العربية لكن اليسار العربي لم يجد في الاختراق العراقي لمصالح الشعب العربي في سورية مايدعو لانتقاده ، فارتفع صراخ اليسار دفاعا عن السياسة العراقية حتى وهي تستعين بالولايات المتحدة الامريكية واسرائيل تمهيدا لمشروع خط انابيب اخر في حقول النفط الى ميناء العقبة الاردني.

ففي ١٤ حزيران ١٩٨٤ اعلن ناطق رسمي باسم الحكومة الامريكية ان خط نفط العقبة مفيد لحكومة الولايات المتحدة الامريكية لاسباب استراتيجية وسياسية واقتصادية . واضاف الناطق الامريكي ان وجود مصالح عراقية في العقبة وبالاتفاق المسبق مع اسرائيل يوفر فرص التفاهم المشترك بين البلدين العراق واسرائيل ، واشار الناطق في ختام تصريحه الى ان مشروع العقبة العراقي سيوفر لشركة باكسنل الامريكية ارباحا بمقدار [٥٠٠]مليون دولار .

من جهة ثانية وفي اجراء غير مسبوق طلب العراق عن طريق طرف ثالث من اسرائيل توفير الحماية الامنية لانبوب العقبة مما يشكل سابقة خطيرة في المنطقة العربية ذات تأثير على الاستقلال الوطني والقومي .

ان العراق بهذا الاجراء منح اسرائيل دورا جديدا في المنطقة فاذا فكرت دولة عربية بتأسيس مشروع فعليها قبل ذلك ان تستأذن اسرائيل لتبدأ العمل وكان الجواب الاسرائيلي وديا للغاية فقد اشار الى اقتراح بمد الانبوب حتى ميناء عسقلان مع استعداد لتشغيل خط حيفا الذي عطل منذ عام ١٩٤٨ .

ان السياسة النفطية العراقية استهدفت في هذا الجانب تطويق وتعطيل الموانيء السورية الاستراتيجية .

لكن اليسار النفطي والقمعي الذي لم يتغير رغم ان السياسة العراقية واحدة من اكثر السياسات القابلة بين وقت واخر لاحتمال الانتقال من اقاصي اليسار الى اقاصي اليمين .

ولكى تكون صورة صدام النفطية واضحة بخلفياتها ونتائجها نذكر بانه اعدم معظم مسؤولى النفط الذين اشتركوا فى مفاوضة شركات النفط او اشرفوا على عمليات الانتاج والتسويق منهم :

١ـ مرتضى الحديثى وزير الخارجية رئيس الوفد العراقى المفاوض مع شركات النفط .

٢ـ غانم عبدالجليل ، عضو مجلس قيادة الثورة الذى تسلم مسؤولية عمليات انتاج النفط مباشرة من شركات النفط الاجنبية ووضع يده على اسرار خطيرة .

٣ـ اسماعيل النجار عضو قيادة فرع وقد تسلم مسؤولية ادارة شركة النفط بعد غانم عبدالجليل .

٤ـ عدنان الحمدانى . السكرتير العام للجنة العليا لاتفاقيات النفط ووزير التخطيط المسؤول عن عقد صفقات التسويق .

٥ـ نورى حمودى . خبير فى اللجنة العليا لاتفاقات النفط .

المنظمة السرية والمعارضة

تعاليم المنظمة السرية الواجبة التلقين توصى التابع الاعلامى والتابع الدبلوماسى فى فقرتها الاولى ، بانكار كامل لاى وجود لاية قوى او عناصر معارضة .

بينما تؤكد الفقرة الثانية من التعاليم الحزبية على نشر واسع للاحتياط الامنى ، والدعوة الى تطوير كفاءة الاجهزة الامنية ، وتوسيع مؤسساتها واعتبار المسألة الامنية فى المكان الاول من اهتمامات الاتباع الحزبيين ، ولها الاولوية فى مختلف الظروف وجعلها فى «موقع السيد المتبوع الذى تسعى مؤسسات الدولة الى خدمته ، وتوفير فرص النجاح التى تجعله قادرا على مطاردة « الاعداء» فى الداخل والخارج ، هؤلاء المتربصون بالحزب والثورة .

ان الجهاز الحزبى المثالى بمن فيه من سفراء وشعراء وادباء واعلاميين ، هكذا فى كل الاوقات .. حاملا شعارين لا وجود للمعارضة ولا افضلية لشىء على الاحتياط الامنى .

ولا يسأل احد منهم اذا كان حكم الحزب لايعانى من مشكلة وجود معارضة فلماذا اذن هذه الاولوية لرجل الامن ؟

' الجهاز الحزبى « المثالى » فى كل الاوقات .. يوظف للمهمة وضدها ويبشر بالفكرة ونقيضها وليس له ان يستفسر قبل ان ينفذ ولا ان يعترض على قرار نازل من الاعلى '

وعليه ان يكون باسلا ومؤمنا في المرقفين معا ،
ان ينفي وهو سفير وجود المعارضة .
وان يقاتل وهو سفير وجود المعارضة .
وان يجند الكوادر المطلوبة للحالتين ، وينفق على جنود الحملتين من خزانة السفارة ومن بابين مختلفين ، باب الانفاق الاعلامي للداعية المبشر .. حامل القلم ، وباب الانفاق الامني لحامل الثاليوم وكاتم الصوت وعدسة بحجم زر القميص ومسجلا بحجم القلم الجاف . وكلاهما موكول بهدف واحد ..
ان لايرتفع صوت المعارضة لا فوق صوت السلطة ولا تحتها ومادام كل منهما الداعية الاعلامي والوكيل الامني يحمل قلمه الخاص فلماذا لايتواجدان بقلم واحد لهدف واحد ؟!

هواجس الرئيس

ان الشكل النهائي لنظام الحكم في العراق ، مصاغ صياغة امنية أخذا بالحسبان اصغر زوابعد وابسط الاحتمالات المعادية له ، وهو يعيش هاجسه الامني ، فتبدو المعارضة بين برديه وداخل دفتيه ، وحول اطرافه العليا والسفلى .
ولعل الهاجس الامني والخوف من الضد يلاحق اتباع دولة المنظمة ، الى داخل غرف نومهم والى زجاج السيارة المضاد للرصاص ويتساوى في هذا الهاجس بواب السفارة والسفير ورئيس الدولة.
خلق الخوف من الضد وهو تعبير ادق من المعارضة واوسع من صدام حسين نظام حياة خاص واسلوب عمل خاص ، تحول فيه رئيس الدولة الى متهم مطلوب لاينام ليلتين في مكان واحد ولايعطى لضيوفه موعدا ولايعرف الوزراء والمرافقون جهة حركته اليومية ويجهل اعضاء القيادة مكان وجوده هذا اليوم او ذاك ، وقد يضلل حاشيته ووزراءه بمواعيد مكذوبة .

الدولة معارضة . والمعارضة دولة

يعتقد صدام ان الوضع الدستوري للدولة واضطرارها لمجاراة الرأي العام العالمي ومنظماته الانسانية المعنية بحقوق الانسان سيجعل الدولة عاجزة عن التصدي للمعارضة ويجعل المعارضة صاحبة المبادرة لكونها ليست مضطرة للالتزام بأعراف الدولة .
انها تهاجم رجال السلطة اذا شاءت وتغتالهم اذا اقتضت الضرورة تنسف المؤسسات ، وتقيم لها الاوكار في الداخل والخارج ، وقد تنساق المعارضة الى

اساليب العمل فى امريكا اللاتينية فتختطف اطفال المسؤولين الحكوميين وتحتجز عوائلهم .

كل ذلك يجعل المعارضة فى موقع القوى لانها الطرف المجرد من قيود السلطة ، ولانها تملك مبادرة الهجوم فى اى ظرف ، وليس للدولة ان تهاجم دون ان يكون ثمة فعل حقيقى معاد لها وصادر عن طرف معين ، بينما تستطيع المعارضة مهاجمة اية مؤسسة حكومية فى اى وقت تشاء وفق شروطها الامنية .

هذا الشكل الدستورى للدولة والشكل الثورى والعملى للمعارضة هو الفرق الذى يجعل السلطة سلطة والمعارضة معارضة .

لكن صدام حسين يرفض هذا التقسيم ويعتبره غير عادل وعلى الجهاز الحزبى ان يتقمص دور المعارضة وينسلخ تماما عن اية شروط دستورية تابعة من دستورية الدولة قد تحد من نشاطه ولطالما سمع العراقيون صدام حسين يتضجر من اعراف الدولة وينادى باننا حزب وليست سلطة .

لعل صدام حسين كان الحاسم الوحيد الذى نجح نجاحا باهرا فى جعل الدولة والتزاماتها فى موقع ثان من الاهمية واخذ يتصرف بالدولة وكانها منظمة سرية .

هذه المنظمة السرية ـ الدولة ـ تمارس فى الداخل والخارج دور المعارضة الثورية وتستعير اساليب العمل الثورى اللاتينى مرة والفلسطينى مرة . لكنها قد تستعين بمنظمات سرية غير سياسية لتوظيف خبراتها فى مواجهة العدو المعارض وقد اقامت شبكة علاقات واسعة مع معظم المنظمات السرية فى العالم سواء كانت يسارية ام يمينية .

ولهذا تقف هذه المنظمات الى جانب السلطة العراقية فى صراعاتها اليسارية واليمينية .

ان اجهزة الدولة فى الخارج والداخل تتقمص فى مواجهة المعارضة دور المعارضة السرية ، وتتحول السفارات الى اوكار وتصير امام الصورة التالية .

السفارة ليست هدفا للمعارضة لكن مقرات المعارضة اهداف لهجوم يشنه اعضاء السفارات المحميين بالبطاقة الدبلوماسية .

المعارضة لاتختطف موظفى الدولة وانما الدولة هى التى تختطف اعضاء المعارضة وتحتجز ابناءهم .

الدولة تغتال معارضيها واحيانا رجالها فى شوارعها المحلية وحيثما وجدوا فى المنفى دون ان تتقيد بعرف دولى والمعارضة لاتفعل المثل لكى لاتسمى ارهابية ولكن تحظى باعتراف الدول !

وتحركت الدولة بالغطاء العربى والدولى وتحركت المعارضة بغطائها المحلى ودعم

هامشي من هنا وهناك .

المعارضة اذن تواجه منظمة سرية لا دولة !

هذه المنظمة لها جيش رسمي نظامي وميليشيات غير نظامية وسفارات وتمثيل دبلوماسي وابار نفط ومصارف واستقطاب دولي ومعونات فنية ومعاهدات امنية وتحالفات عربية جعلت كل شرطي عربي شرطيا لصدام حسن ولمنظمته السرية .

الغاء شخصية الجريمة

تنفرد السياسة العراقية منذ وقت بعيد باعتبار العمل السياسي المخالف لرغبة السلطة فعلا جنائيا ! اي جريمة .

لكن السياسي [المجرم] كان وحده يتحمل مسؤولية جريمته ! ولهذا قد تجد في مجلس الوزراء وزيرا لشقيق محكوم بالاعدام ، او متمرد على السلطة او سفيرا في عاصمة يقيم فيها شقيقه المنفي في تلك العاصمة .

وليس في ذلك غرابة فالاسلام قبل الثورة الفرنسية باثني عشر قرنا الغى عائلية الجريمة ولاتزر وازرة وزر اخرى .

ولما لم يكن فقهاء القانون الغربيين يرغبون في اسناد هذا الانجاز القانوني للاسلام فقد جعلوا شخصية الجريمة اهم انجاز حققته الثورة الفرنسية وتبعهم اتباعهم المستغربون العرب والمسلمون .

اما صدام حسين فقد الغى شخصية الجريمة واعاد الوضع القانوني في العراق الى عصور سحيقة قبل الاسلام ولم يعترض المثقفون المرتبطون فكريا بالثورة الفرنسية ولا رجال الدين الضالعين في سياسته على الرغم من نصوص قرانية صريحة لم يختلف عليها المسلمون لعلها حالة فريدة ان يخضع الابن للاستجواب لان والده من معارضي السلطة وان يطرد من عمله الاخ والصهر وابن العم اذا تصدى احد ابناء العائلة للسلطة القائمة .

واذا كان من اعراف المجتمعات ان القاتل مطلوب لعائلة القتيل حتى يتم الاقتصاص منه ، فان صدام حسين اجرى تعديلا اساسيا على هذه الاعراف وجعل عائلة قتيله مطلوبة له وعليها ان تدفع ثمن القتل للقاتل فيسعى اقرباء القتيل الى ارضاء صدام باية وسيلة ، وتصدر قرائم ابعاد من له صلة بالقتيل من وظائفهم الى وظائف اخرى فيصبح رئيس التحرير والكاتب المعروف موظفا صحيا في قسم التدريب الصحي . ومديرة المدرسة كاتبة استعلامات في المستشفى وتظل عائلة الضحية متهمة تدور حولها الشكوك وقد خلق هذا الاجراء ظواهر في المجتمع العراقي لا اظنها معروفة في بلد اخر .

فالطفل الذي قتل صدام حسين والده يلقن من قبل امه بان صدام هو والده

وتنشر العائلة المنكوبة باعز ابنائها على واجهة منزلها اكبر صورة يمكن الحصول عليها لصدام حسين .

استخدام الضد النوعي

مبدأ قديم استخدمه الانكليز في مستعمراتهم لاسيما في الهند ويقضي بعدم استخدام رجال الحكومة في مواجهة المعارضة الشعبية او للسيطرة على شعب من الشعوب والاستعاضة عن ذلك باستخدام الضد الحزبي والمذهبي والقومي في مواجهة نوعه المعارض قدر الامكان .

فالاكراد لمواجهة الثورة الكردية .

والنجفي لقتل النجفي

وابناء الموصل لمواجهة ابناء الموصل .

والشيوعيون لتفتيت الحزب الشيوعي .

والبعثيون لمواجهة البعثيين .

ومعارك الضد النوعي في التاريخ من اشرس المعارك وهكذا في كل مرة يستخدم النوع لضرب نوعه .

وعلى المستوى العملي يكلف الجيش الشعبي من ابناء البصرة باطلاق الرصاص على اية مظاهرة قد يقدم على تنظيمها ابناء البصرة .

وقد شهد يوم الثامن من آب ١٩٧٩ تجربة مخيفة في استخدام الضد النوعي ، فقد دعي الى ساحة الاعدام اقرباء المحكومين في الجيش الشعبي لتنفيذ الحكم باقربائهم .

فالسامرائي ينفذ حكم الاعدام بالسامرائي .

والحمداني ينفذ حكم الاعدام بالحمداني .

واذا لم يكن للمحكوم بالاعدام قريب في الجيش الشعبي يكلف احد اعضاء منظمته السرية بتنفيذ حكم الموت بمسؤوله الحزبي .

نظرية الامن الوقائي

وهي تعني مهاجمة الخصم المعارض وهو في مرحلة حمل النوايا قبل ان تترجم النوايا الى افعال ، ولكن كيف يمكن اكتشاف نوايا البشر ؟

يقول صدام حسين وبشيء من الزهو والاعتزاز انه يعرف خصومه من عيونهم اي انه انجز مهمة الاعدام بالعين دون ان تتحقق شروط اخرى ، فهذا القيادي او الوزير مرشح للاعدام منذ ثلاث او اربع سنوات ، لانه « متآمر من عيونه » كما

يقول صدام حسين في ادانة رفيقه محمد عايش كما جاء في شريط فيديو اوعز صدام حسين بتوزيعه .

ان الاخذ بهذا المبدأ يجعل كل سياسي عراقي بل كل مواطن هناك مهددا باحتمال تعرضه لمصير مماثل كالذي انتهى اليه قيادي حزبي ووزير في الحكومة ويجعل اعداد الابرياء تتزايد في كل مرة يعلن فيها عن اكتشاف مؤامرة .

ويمنح هذا المبدأ من جانب اخر صدام حسين حق الضربة الاولى والمباغتة ومهاجمة الاخرين في الوقت او المكان الذي يريده وليس مهما في معايير كهذه ان يكون المتهم حمل النوايا رفيقا في الحزب ام حليفا في السلطة ام معارضا لم يتحرك لتحويل نواياه الى عمل معين .

وبهذا صار الغدر مصطلح سياسي يدعى الامن الوقائي .

واصبح مانسميه بالخسة موقفا ثوريا واجراءا نظاميا .

لكن رجال القانون ونقابات المحامين العرب والفقهاء الدستوريين لم يعترضوا على اختراق كهذا وهم يعرفون في مسلماتهم ان القضاء لاينظر في جريمة لم تتحقق ولايحاسب الناس على مايحملون من نوايا .

بعد اقل من اربع وعشرين ساعة من ظهور قيادة الحزب في التلفزيون وهي توقع ميثاق الجبهة الوطنية مع قيادة الحزب الشيوعي واحزاب اخرى ويعلن احمد حسن البكر انها جبهة استراتيجية وزعت المنظمة الحزبية تعميما تسأل فيه عن مقترحات فعالة لتفتيت الحزب الشيوعي .

وقد احدث ذلك هزة صامتة واحيانا غير صامتة في الجهاز الحزبي الذي تساءل باستغراب عن جدوى قيام الجبهة والغرض منها اذا كانت بداية لتآمر على حزب حليف ؟

رغم ذلك فقد رشحت المنظمات الحزبية من تتوسم فيهم القدرة على الاعمال التجسسية ودست بهم الى تنظيمات الحزب الشيوعي حيث ينقل الملغوم الى محافظة اخرى قريبة ويعود في نهاية الاسبوع الى مدينته الاولى ليقدم معلوماته عن [منظمته الشيوعية] .

من جانب اخر جرت خلال الفترة نفسها محاولات دؤوبة وناجحة لشراء بعض العناصر في الاحزاب الاخرى ، او استدراجها باستخدام العلاقات العائلية والطائفية والادارية .

ويحظى هذا النمط برعاية خاصة من قبل المنظمة الحزبية التي تشجع عادة اتباعها الذين يرفعون المعلومات عن اشقائهم وابائهم واقربائهم .

ان الاستخدام الخسيس كان يطغى على الاستخدام السليم في المنظمة الحزبية

ولم يستطع حزبيون قدامى كانوا مايزالون على شيء من تقاليد العمل الثورى ايقاف تدهور المنظمة الحزبية التى تحولت الى شبكة تجسس تنتشر بين الناس وفى داخل بيوتهم ومكاتب اعمالهم .

ويكفى التذكير بان واحدا من اعضاء القيادات الحزبية ، منذ صيف ١٩٧٩ حتى الان لم يتمكن من الانفراد برفيق اخر فى نزهة او لقاء خاص، خشية ان يتعرضوا للمصير الذى تعرض له محمد محجوب عضو القيادة القطرية ووزير التربية المعروف بصلته الشخصية مع عدنان الحمدانى وكانت قرارات التجريم قد اشارت بعد اعدامهما الى لقاءاتهما المشتركة دليل الجريمة وشاهد الاثبات على التآمر ضد صدام حسين .

الغاء التدرج الجزائى

معروف ان لكل عمل محرم عقابا محددا به .

فاذا كان الهتاف ضد رئيس الدولة عملا من هذه الاعمال المحرمة ، فان العذاب المفروض على الفاعل سيكون مختلفا فى درجته عن عقاب اخر يوقعه القانون على شخص اخر متهم باقامة تنظيم سرى معارض للسلطة .

لكن صدام حسين الغى التدرج الجزائى وصدرت قرارات المحاكم الخاصة وهى تقضى بحكم الموت على حامل المنشور السياسى وكاتب الشعار السياسى على الجدران وعلى صاحب الجدار الذى لم يحرس جداره .

ان هذا الواقع الارهابى سيخلق نظيره المعارض ويوجه المعارضة العراقية مادام الموت مصير الجميع نحو التصدى المسلح ضد النظام القائم .

ومادام صدام حسين قد الغى تدرج العقوبة ودرجات الجزاء واصبح الاعدام هو الحكم الذى يفرض على موزع المنشور وقاتل مدير الامن وكاتب المقال وصانع المتفجرات ، فلماذا لاتبدأ المعارضة هى الاخرى من اعلى السلم وتلغى درجات النضال ؟

اى ان صدام حسين خلق فى العراق حوار الدم بين السلطة والمعارضة ، لكنها ليست لغة المعارضة جميعها .

فمازالت اجنحة ترفع شعار المعارضة عن طريق المنشور الحزبى والعمود الصحفى ورفع الشكاوى الى منظمة العفو الدولية وكانها تعارض نظاما دستوريا ودولة لا منظمة سرية .

دولة المنظمة ودولة الكويت

الغـــــزو المتـــــوقع

وثائق الغـــــزو المتـــــوقع

رؤية شـمعـيـة لضم الكويت

اجمع الديبلوماسيون والصحفيون ومتحدثو الصالات والمجالس على وضع السبب الاقتصادى فى القمة اى مايسمونه حاجة العراق الى المال .

وانا اقول هذا غير صحيح .

تلوح الصحف العربية المناوئة لاحتلال الكويت لا سيما المصرية ، الى ان صدام يريد باحتلاله للكويت اقامة امبراطورية أى ان الاحتلال تم وفقا لمبدأ توسيع الارض الوطنية واقول ايضا هذا غير صحيح ان السبب المالى قد يقدم تبريرا مقبولا لزعيم يعانى من مشكلات مالية باحتلال بلد له عليه حقوق والتزامات لم يعترف بها ، هذه نظرية الاستاذ محمد حسنين هيكل وهى شائعة قبل ان يتحدث بها الاستاذ هيكل وبعده .

والنظرية الاخرى [توسيع الارض الوطنية] تقدم ليس تبريرا ولكن بعدا وطنيا وتبريرا شعبيا يمكن القول به لتفسير محاولات توسيع الارض الوطنية ولو عن طريق القوة . اننى الاحظ ومنذ سنوات اخفاق الدبلوماسيين والصحفيين والمحللين السياسيين فى تنبؤاتهم العراقية دائما لا بسبب جهلهم بل بالعكس تماما انهم اخفقوا لانهم استخدموا علم السياسة فى تفسير الحدث العراقى وهو علم يقوم على قواعد منطقية ومادية وعلى استقراء شامل ودقيق لتجارب الدول والشعوب لكن علم السياسة لايبنى قواعده على مزاجية الحاكم وسايكولوجيته بينما لايتيسر ايجاد تفسيرات لكثير من الاحداث العراقية دون المرور اولا على سايكولوجية صدام حسين ومزاجيته التى تنبع منها اساليب عمله اليومى .

ان ضم الكويت هدف قديم فى سياسة صدام حسن وقد تناولت ذلك فى دراسات عديدة اشير الى بعضها [مقال فى جريدة تشرين السورية العدد الصادر بتاريخ ٣ تموز [يوليو] ١٩٨٢ ، مقال فى جريدة الجهاد الناطقة بلسان حزب الدعوة الاسلامى العدد الصادر فى ٤ نيسان [ابريل] ١٩٨٣ وفى جريدة التيار الجديد الصادرة فى لندن بتاريخ ١١ آذار[مارس] ١٩٨٥ .

وقد اكدت فى تلك المقالات على ان صدام سيضم الكويت بعد انتهاء الحرب لكن توقيت العملية سيبقى مرهونا بظروفها اما وقد تمت فى الثانى من اب [اغسطس] ١٩٩٠ اى بعد سبع سنوات على نشر اقدم مقال اشرت فيه الى احتمال الضم ، فان بالامكان الان الاستعانة لابعلم السياسة بل بسايكولوجية صدام واساليبه فى العمل لمعرفة السبب المباشر وهو سبب يرتبط بالمتغيرات الكبيرة وسقوط الدكتاتوريات فى اوروبا الشرقية وماأعقب ذلك من موجة كتابات صحفية

وتصريحات سياسية عن توقع هبوب الرياح الديمقراطية على المنطقة العربية وقد رشحت صحف عالمية ومصادر عربية العراق اسما اول فى قائمة من ستهب عليه رياح التغيير ، وكانت حتى الصحف العربية تتحدث عن وجود شاوشيسكو عربى بينما اشارت صحف غربية ان شاوشيسكو يبدو وزة مسالمة بجانب صدام حسين

ان صدام الذى يلتقط التآمر من عيون محدثيه كما يقول وجد نفسه فجأة هدفا يوميا لانتقادات الصحافة العالمية واحتمالات اسقاطه ولعله اجاب على تلك التطورات غير السارة بطريقتين مختلفتين استخدم فى الاولى المشاغلة باعطاء وعود صحفية لاقامة نظام ديمقراطى يعتمد على تمثيل شعبى سليم وسن الدستور الدائم والاخذ بنظام تعدد الاحزاب وقد تعرض شخصيا لمحاكمات صحفية ساهمت فيها الصحافة العربية ايضا فحدد شهر نيسان من عام ١٩٩٠ موعد لقيام الديموقراطية .

ويمضى شهر نيسان وشهور اخرى وبينما كان الناس ينتظرون قرار تشريع الدستور الدائم فوجئوا بقرار اعتبار صدام الرئيس الدائم فاذا باعلان قرار اختياره رئيسا مدى الحياة .

صدام فى اعماقه كان يحمل مخططا اخر يستند الى نظريته فى الامن الوقائى التى تستهدف ضرب الخصم وهو فى مرحلة حمل النوايا قبل ان تترجم النوايا الى احداث .

انه ليس ذلك الذى يمنح خصمه الضربة الاولى ، لقد اختار وكان ناجحا بمعايير خاصة ان يباجم المستقرات الدولية ويهدد المصالح الامريكية والغربية مباشرة بعملية تستطيع ان تغير بؤرة الاهتمام وتجعل المطاليب الديمقراطية على هامش مؤجل ولم يكن افضل من غزو الكويت مايحقق له ذلك .

لقد هيأ لذلك بتهديدات تاكل نصف اسرائيل وتحرش ببريطانيا حين اعدم صحفيا لها واعلن بعد غزو الكويت ان العراق يقود العرب بمواجهة امريكا .

انه لم ينفذ عمليته مختارا او من موقع القوة بل بتصرف المحكوم بالاعدام ولهذا فهو لن ينسحب لان انسحابه لا يلغى الحكم الصادر عليه وهو ليس من هؤلاء الذين يثقون بوعود قد تقدم اليه باستمراره بالسلطة بعد الانسحاب .

ولان القرار العراقى لايخضع لقوانين علم السياسة فقد تكبر توقعاتنا وينسحب صدام مخلفا وراءه حكام الكويت فوق حكام اليسار ، لقد حدث ذلك اكثر من مرة ففى ربيع عام ١٩٧٥ دعت السلطة لعقد مؤتمر الشعب العربى ببغداد لنصرة العراق ضد مطامع الشاه فى شط العرب وبينما كان الشعراء والخطباء اليساريون يحلقون فى عالم البلاغة كان صدام قد طار الى الجزائر لتوقيع اتفاقية التنازل

للشاه عن نصف شط العرب وعقد معاهدة امنية لمطاردة اليسار عبر حدود البلدين.

الغزو المتوقع

هل صحيح مايتحدث به كويتيون متورطون فى برامج التنظمة السرية ، وكويتيون حسنو النية ، ان غزو الكويت كان مفاجاة ضربت مراكز الاعصاب ومواقع الوعى . فغاب بعضهم فى اللاوعى ، وصحا اخرون بعد ان مضى على الغزو ثلاثة شهور !؟

وهل سنتكفىء - حيث يريد هؤلاء المتورطون - عن مناقشة سياسة خاطئة وتحالف لم يكن متوازنا بين طرفين غير متكافئين لا فى الحجوم ولا فى النوايا وقد تجاوز دعاة التحالف الكويتى مع دولة المنظمة السرية حد السياسة الى حد الفكر . والايديولوجيا وتصرف صحفيون وتجار كويتيون كما لو كانوا اتباعا فى المنظمة السرية التى تحدد لهم مصطلحات الكتابة وخارطة الحركة والاتجاه ويلغ باخرين انهم هاموا فى عشق افلاطونى بزعيم المنظمة السرية فما عادوا يرون امامهم زعيما ولامعشوقا غيره .

وقد هالنى ان اقرأ خبرا فى عام ١٩٨٣ لمصدر كويتى رسمى عن استراتيجية امنية واحدة مع العراق !

ان غزو الكويت وكأى كارثة وطنية كان ينبغى ان يحدث صدمة كبرى فى الاوساط المعنية لاعادة تقييم السياسة السابقة من جهة وتحديد السياسة الجديدة بعد ان توضع النقاط على الحروف .

اما الزعم بان الغزو غير متوقع ، فليس لنا سوى الاشارة الى تنبيهات مدونة على صفحات الجرائد العراقية المعارضة ، وفى وسائل شخصية كان كاتب السطور قد بعث بها الى اعلى المستويات الكويتية ، يحذرهم فى يوم الثانى من اب!

ولاهمية ذلك وكشهادة مطلوبة وكوثيقة صارخة اقدم نموذجين من تلك التحذيرات .

الاول مقال موسع نشرته لكاتب السطور جريدة الجهاد الناطقة بلسان حزب الدعوة الاسلامى ووفى العدد الصادر يوم الرابع من نيسان ١٩٨٣ .

اما الثانى فقد نشرته جريدة التيار الجديد الصادرة فى لندن والناطقة بلسان حزب الامة المحافظ يوم ١١ اذار ١٩٨٥ .

وسنرى فى المقالين سيناريو كامل لما حدث فى الثانى من اب ١٩٩٠م .

١ـ الكويت محفظة نقود في جيب صدام

ماذا يريد صدام لحلفائه الاثرياء ؟

ماهي تصورات صدام لمستقبل علاقاته مع الكويت ؟ وكيف ينظر الى الكويت ؟ وكيف يعمل كويتيا؟

يستخدم صدام لسياسته الكويتية خطين متقاطعين الخط الدبلوماسي الذي يتظاهر بعدم وجود نوايا واطماع في الكويت الشقيق ويتمثل ذلك في تصريحات الخارجية العراقية وشعاراتها في الكويت واستقلاله والتعامل معه باعتباره دولة مستقلة .

والخط الحزبي المتمثل بالتعليمات والتوجيهات التي يجري التثقيف عليها داخل الجهاز الحزبي والداعية الى ضرورة ضم الكويت الى سلطةبغداد ويتعرض هذا الخط الى مزايدات عديدة لدفع الاتهام الشعبي ضد حزب البعث الذي وقع اتفاقية الاعتراف بالكويت بعد انقلاب ٨ شباط عام ١٩٦٣م ويحاول صدام الظهور بمظهر المتبرىء من هذه الاتفاقية امام الجهاز الحزبي والقاء مسؤوليتها على احمد حسن البكر رئيس الوزراء في ٨ شباط عام ١٩٦٣ .

وصدام لايشعر بضيق او مأزق بسبب ازدواج سياسته وتوزعها بين الاعلان الدبلوماسي والتثقيف الحزبي لانه يفسر الازدواج بكونه حالة تعارض الواقع والطموح ، وحيث تعني الدبلوماسية عادة بالواقع تعنى التربية الحزبية بالطموح ولعله يلوح بين فترة واخرى وكلما ضغطت عليه ظروف معينة بالعامل التاريخي المؤثر في العلاقات بين الكويت والعراق ويستخدم هذا العامل دون ان يكون معه اوضده للابتزاز ويوعز الى صحف تتعامل معه بالخفاء الى التذكير بموقف الزعيم عبدالكريم قاسم من الكويت .

ولهذا فلم يتم حتى الان ترسيم الحدود بين البلدين اسوة بترسيم حدود العراق مع الاردن والسعودية .

ومن المفيد التذكير برأي يتداوله الدبلوماسيون العرب والاجانب مفاده ان واحدا من الاحلام التي قدمت لصدام في حربه ضد الجمهورية الاسلامية في ايران يتعلق بابتلاع الكويت وتأسيس دولة ذات قوة مالية ضخمة يستطيع بها الالتفاف الى دول عربية اخرى فيسقط انظمتها لصالحه .

ان الكويت هدف في الحرب ، ولعل الذين خططو لحرب صدام ضد ايران المسلمة يدركون جيدا ان اي قوة في التاريخ لم تستطع غزو ايران لاسباب

جغرافية كثيرة فكيف يستطيع صدام اسقاط حكم ثورى اسلامى جديد وهو فى عنفوان شعوره العظيم بالانتصار على طاغية متجبر كالشاه محمد رضا بهلوى ؟!

ومعنى ذلك ان الهدف المباشر للحرب ضمن اهدافها العدوانية المتعددة بعدان يتاح لصدام « اسقاط » النظام الجمهورى الاسلامى جعل الكويت الثرية محفظة نقود فى جيب صدام وهذه مفارقة عجيبة لايصار الى تفسيرها ، ففى الوقت الذى تعلم فيه الكويت انها هدف مباشر من اهداف صدام الجائع الى الشهرة والمتعطش الى النفط والدم - فهى تدعم حربه بالمساعدات الغذائية وتتكفل اطفاء ديونه المترتبة على شراء السلاح من الاتحاد السوفيتى وفرنسا وبريطانيا ؟!

ولو اتخذنا موقف الحياد وهو هنا صعب جدا وتعرضنا الى نظرة صدام الشخصية الى دولة الكويت لتوصلنا الى جملة حقائق لانجد بدا من ترتيبها رغم ان بعضها يخدم المصلحة الكويتية!!

ان التجربة الكويتية التى تعتمد على فلسفة رأسمالية واقتصاد حر جعلت صدام فى مأزق مستمر امام العراقيين الذين اعتادوا مقارنة اوضاعهم باوضاع الكويتيين !!

فأزمات الغذاء التى تعانى منها اسواق العراق ، والعوز الذى يعانيه فقراء بلد نفطى تثير النزوع والتطلع اليها الاف العمال والفقراء للعمل فى ظروف قاسية .

يقابل ذلك احاديث يومية تصل بغداد عن ثراء الكويتيين واهتمامهم بوسائل الترف وعدم وجود ضرائب جمركية او ضرائب على الدخول الى جانب اهتمام الدولة الكويتية بمصالح الكويتيين وتشريع قوانين تحمى الكويتيين بل تميزه عن سواه بينما يجد العراقى نفسه مسحوقا تحت اقدام قيود مالية وضرائب واجراءات سياسية جعلت الغريب الوافد سيدا على اهل البلاد .

ولطالما اجاب صدام شخصيا على تساؤلات الجهاز الحزبى عن سبب بيع السيارة الصغيرة فى العراق بعشرة اضعاف سعر السيارة الفارهة فى الكويت وكان جوابه دائما « اننا بلد تنمية » وحينما انتهت التنمية الى الصورة التى اصبح فيها العراق مقيدا بديون وقروض مالية للشركات العالمية وحيث لم يستطع مصنع مامن تعويض جزء بسيط من نفقاته ايقن الناس ان التنمية فى مفهوم صدام لاتعنى سوى نافذة لتسريب اموال العراق الى شركات غربية يستفيد منها موقعوا الصفقات بعمولات وصلت الى ٢٥٪ .

ان سؤالا وجه اكثر من مرة الى مسؤولى المنظمات الحزبية عن سبب وجود مجلس امة فى الكويت وعدم وجوده فى العراق وعن سبب وجود دستور دائم لدولة الكويت وعدم وجود دستور للعراق الذى مضى على قيامه اكثر من ستين عاما !!؟

ان حقد صدام على الكويتيين لايساريه الا حقده على مواطنيه وكما فرض الحرمان والعوز على ابناء العراق الذى يحاول ان ينقل الحرمان الى الكويت ويسعى لتدمير اقتصاده بعمليات انتقامية ضد مؤسسات كويتية كان منها تفجير بناية فى شارع فهد السالم عام ١٩٨١ ووضع عبوة ناسفة فى خزانات النفط الرئيسية فى مصفى الكويت واغتيال عدد من السياسيين العراقيين او المجاهدين واشعارهم بضعف السلطة الكويتية وعدم قدرتها على حمايتهم كاغتيال حردان التكريتى والدكتور جاسم المشهدانى .

وفى اعقاب هبوط قيمة الدينار العراقى فى الاسواق المالية الى نصف دينار كويتى قال صدام فى اجتماع حزبى خاص اذا كان سعر الدينار العراقى نصف الدينار الكويتى فإن الكويتى سيصبح ربع دينار؟!

ولم يفصح عن الطريقة او الكيفية التي يجعل فيها الدينار الكويتى ربع دينار وقد علق احدهم على ذلك بقوله ان ذلك يعنى قيام « قادسية جابر » ففير القادسية لاستطيع اية عملية من خفض سعر العملة الى اقل من نصفها !! ولم يمض وقت طويل حتى عثر الامن الكويتى على قنبلة موقوته بجانب مبنى المصرف المركزى ! بينما انفجرت عبوات ناسفة فى اماكن اخرى .

ان صدام لم يستطع تخفيض سعر الدينار الكويتى وقد انخفض دينارد اليتيم الى ٤٤٠ فلسا لكن عملية لم يكشف عن تفاصيلها تدمير سوق البورصة او المناخ فى الكويت جعلت سعر السهم فيه ربع قيمته ان لم يكن اقل من سعر التأسيس !!

ربما جرى ذلك بسبب قروض الكويت المليارية لدعم حرب صدام او بدسيسة شارك فيها جهاز عملائه الكبار فى الكويت لكن مخابراته تشيع الان فى اوساط السوق الكويتية ان ازمة البورصة مرتبة من قبل الامير نفسه لقطع الطريق على مزيد من المساعدات والقروض التى يستجديها صدام منه .

٢ـ هجمة الكويت الخامسة

ماهو موقع الكويت فى التصور الحالى لحكومة بغداد ؟

بكلمة اخرى ماهى اهداف السياسة العراقية فى الكويت ؟

ان صدام يعمل خليجيا بخطين متعارضين رسمى دبلوماسى مطروح فى الاعلام يدعو الى التحالف المصيرى مع العربية السعودية والكويت ودول مجلس التعاون الخليجى الاخرى وخط حزبى سرى معروف فقط داخل المنظمة الحزبية حيث يجرى التثقيف على نفس البرامج القديمة التى تعتبر السعودية ، [مركز القيادة الميدانية للرجعية العربية] والكويت ، خزينا احتياطيا للنظام العراقى وعليها ان تدفع ضريبة سكوت النظام عنها والا فان « عبدالكريم قاسم » حاضر

لعقد مؤتمر صحفي ، تليه خطوات لم يكن عبدالكريم قاسم على صلة بها .

يؤكد هذه النوايا غير المعلنة ان صدام ، وعلى طريقته في الاساءة للقيادات الحزبية والرسمية التي سبقته كان ومازال يثير الوعي الحزبي ضدهم ويتهمهم بانهم كانوا مقصرين في مواقف خطيرة وانهم لم يكونوا من[حملة الاقتدار] وهو يسجل على احمد حسن البكر وصالح مهدي عماش وحردان التكريتي [قادة انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣] انهم تسرعوا في صفقة الاعتراف بالكويت . وهو موضوع كان من الممكن حسب رأيه ان يظل مطروحا للمفاوضات ولعله يغمز قناة هؤلاء المسؤولين من طرف خفي بانهم استلموا ثمن الصفقة ..

من هنا جعل صدام من ترسيم الحدود بين العراق والكويت بديلا [للاعتراف الخاطىء] واخذ يتعامل مع هذا الموضوع كما يتعامل المختطفون برهائنهم وراح يستخدم ترسيم الحدود استخدامات مختلفة لغرض ابتزاز الكويتيين الذين رغم كل ماقدموه له من دعم اعلامي ومالي لم يستطيعوا ان يحركوا قضية الحدودبالشكل الذي حدث مع الاردن اذ تنازل صدام عن ٤٥ كيلو مترا من العمق العراقي وكما حدث له مع المملكة العربية السعودية بتنازله عن مناطق الحياد [يتهكم السعوديون فيما بينهم على صدام وينعتونها بمنطقة البقلاوة] وسواها بعد خلاف استمر اكثر من نصف قرن .

اما الوضع النفسي لصدام فالمعروف انه لايستطيع ان يوفر للعراقيين ماوفرته الحكومة الكويتية للكويتيين بسبب احتكاره للميزانية العراقية وصرف عوائد النفط للدعاية الشخصية ولشراء الوكلاء والجواسيس وتسريب مابقي منها لحسابه الشخصي في الخارج . مما ترك العراقيين في شظف العيش ليس اثناء الحرب بل في الايام التي كان العراق فيها يصدر اربعة ملايين برميل من النفط يوميا بسعر يزيد على اربعين دولارا [اي يستلم مائة وستين مليون دولار يوميا] .

ان اخبار الرفاه الكويتي يتناقلها العراقيون الى جانب اخبار الديمقراطية الكويتية رغم انها محدودة وبسيطة بالقياس الى الديمقراطيات الليبرالية .

وللكويت دستور دائم منذ قيامها عام ١٩٦١ وليس للعراق دستور دائم منذ ٢٧ عاما .

وكان بامكان صدام ان يستخدم عوائد النفط لرفاه الشعب العراقي وادخال اسباب الحضارة اليه كما دخلت الى دول الخليج لكنه لم يفعل ذلك ومهمته كما يبدو لم تكن الا للدور الحالي الذي ينهض به لتدمير العراق مثل الكويت لتنتهي ازمته النفسية بل يريد من الكويت ان تكون كالعراق .

وكان كلما تململ ضد الكويتيين وجد الطريق مغلقا فاحمد حسن البكر المتعهد

الكويتي الاول باستمرار الاعتراف العراقي لايرغب باحداث مشكلات مع الكويت وشاه ايران يخيف صدام ولا يستطيع ان يتحرك باتجاه الخليج مادام الامبراطور يحكم الخليج دوليا .. اما وقد استطاع صدام ابعاد البكر .. وقد سقط الشاه قبل ذلك فان الجو اصبح مهيئا له بان يتحرك .. لقد اشاروا اليه بان يبدأ بضرب ايران فلعل الحكم الجديد يسقط او لعل صدام سيظهر امام الخليج بمظهر [القوى] القادر على ضرب [القوى] ليكون عبرة للضعيف .. وعندها سيكون ممكنا ان يتحرك ضابط برتبة مقدم في الجيش الكويتي لابادة شيوخ الكويت وعوائلهم وهم يستغرقون في نومهم .

لكن الحرب طالت .. وصدام يعتبر السعودية والكويت تحتالان عليه رغم دعمهما الكبير . فالسعودية كما يعتقد تحاربه في الاوبك بطريقة واخرى والكويت افتعلت ازمة « المناخ » لتتخلص من التزاماتها ازاء الحرب، يساعده في ذلك عدد من الشخصيات الكويتية التي اتفق معها على العمل في [خطوط العراق] وباشراف المخابرات نفسها .

وهؤلاء يقدمون له معلومات يومية عن نشاط الحكومة الكويتية وهم الان يشكلون مجموعات لايستهان بها ، منتشرين في المؤسسات الصحفية والتجارية وفي الجمعيات الادبية والعلمية .

انهم يدفعون الامور باتجاه التحريض على ايران وعلى العراقيين المتواجدين في الكويت تحت لافتة الالتزامات القومية .. بينما هم في الاصل من اصحاب الصفقات التجارية ، او الذين تورطوا بالعمل لحساب حكومة بغداد لكن دورهم في تحريض صدام على حكومتهم خطير باتجاه يشعر صدام ان القيادات الكويتية لاتحترمه ولا تطمئن اليه ولاترى فيه اكثر من « بلطجي » وان هذه القيادات كانت تؤيد استمرار احمد حسن البكر بشكل واخر على رأس السلطة في بغداد . وهو امر لايمر بسهولة في شخصية حاقدة موتورة مسمومة لاتنسى احقادها كشخصية صدام .

ان تنفيذ هذه السياسة يتطلب اداة خاصة من ادوات صدام ولهذا فقد قرر اختيار سفرائه ودبلوماسييه في الكويت من عناصر المخابرات نفسها وليست من العناصر المتدربة في المخابرات كما يحصل مع سفرائه في دول اخرى عادة .

كان مدحت ابراهيم جمعه من العاملين في مكتب العلاقات الخاص بالاغتيالات وكان محمد صبري الحديثي من المكتب نفسه كذلك حمودي العزاوي الذي اغتال مع مجموعته [الدبلوماسية] حردان التكريتي في الكويت .

ان مصير سفراء صدام في الكويت دائما محفوف بالخطر ، فقد اطبق النسيان

على مدحت ابراهيم جمعه ، واعدم محمد صبرى الحديثى ، ودبر حادث اغتيال حمودى العزاوى قاتل حردان.

اما السفير الحالى فهو عامل فنى فى السكك الحديدية ، وقد انتسب للمخابرات فارسل بمهمة الى القاهرة وبعد طرده منها صدر امر بتعيينه سفيرا فى الكويت منذ اكثر من خمس سنوات يساعده مكتب مستقل للمخابرات العراقية فى داخل السفارة مع شعبة للمخابرات النسائية تحت لافتة اتحاد النساء .

دعنا نلقى نظرة سريعة على ماستؤول اليه الاوضاع الامنية فى الكويت من خلال هذا التشكيل الاستخبارى للسفارة العراقية .

ان تحالفا يقوده صدام حقيقة قائمة من شأنها ان تقود المنطقة الى نتائج خطيرة وستكون الكويت بوضعها الصعب والمعقد اول ضحية لهذا الحلف المشؤوم وستشترك فى الطرف الشعبى العراقى ردود فعل تضاف الى عوامل تاريخية وسياسية ستكون الكويت مسؤولة عنها فى المستقبل .

ان السياسة الكويتية الحالية وضعت جميع اوراقها فى سلة صدام وهو رهان خاسر وستكشف الايام القادمة ان صدام نجح فى زج الكويت بمعركة لا ناقة لها فيها ولا جمل .

وان المراقبين الدبلوماسيين يؤكدون منذ ان شن صدام حربه ضد مسلمى ايران بعد سقوط الشاه ان الهدف لم يكن ايران نفسها فلا يغيب على بال احد ان ايران دولة تاريخية لها اكثر من عمق استراتيجى جغرافى وفكرى وقومى ، وان احتلال قرى حدودية فيها وتوجيه صواريخ ارض - ارض ضد سكان الحدود لايؤدى الى سقوط حكومتها وانما الهدف الكبير الذى قدمه خبراء السياسة لصدام يتمثل فى تهديد منطقة الخليج والالتفاف على الكويت والاستحواذ على مواردها والانطلاق منها الى دول عربية اخرى لارضاء طموحات شخص مريض بالوهم يتصور انه قادر على ان يكون زعيم الامة وقائدها الذى لاينازعه منازع .

وكانت النتائج الاولى لمخطط صدام بزج الكويت معه وانهاكها ووضعها على فوهة البركان قد ادت الى الهبوط المريع فى القدرة الشرائية لسكان الكويت وفى تعرض الاقتصاد فيها الى نكسات ادت الى شلل تام فى بعض المرافق .

لكن الخطر الكبير كان فى تحويل هذه الدولة الصغيرة الى ساحة للموت والارهاب والتخريب .

«حكومة الكويت التى فتحت ذراعيها لاجهزة صدام لتكون الامر الناهى فيها» تحصد الان نتائج سياستها غير الحكيمة هذه والقادم اعظم والخطر الاكبر سيكون فى ظهور تيار شعبى عراقى عارم ليس لصالح الكويت ، على اية حال .

ان الهجمة الخامسة التى تشنها السلطات الكويتية على من بقى من العراقيين البسطاء فيها بعد تعرضهم للهجمات السابقة ، تأتى لتؤكد اصرار هذه السلطة على ربط مصيرها بمصير صدام ، وكأن الحكومة الكويتية قد تناست بسرعة مخططه لتدمير الكويت جارته الامنة المرفهة التى تتناقل اخبار رفاه شعبها اليه فيتميز من الغيظ ويقرر ارسال دبلوماسيين مع عملاء كويتيين لزرع المتفجرات فيها او مهاجمة عراقيين ابرياء بالرصاص فى شوارعها .

اننا ومن حرص اخوى على اشقائنا الكويتيين ، نوجه نداءنا للكف عن ممارسة الارهاب ضد مواطنى العراق ونتمنى لهذه الدولة الفتية ان تحقق نموا وتقدما فى كافة الميادين [الامنية] بعيدا عن مخطط صدام لاحراقها والتوقف عن المضى فى الهجمة الخامسة حتى لا نقف على ابواب السادسة .

وان تكون البداية فى اثبات سلطتها [كدولة] على الارهابيين الذين يحملون جوازات سفر دبلوماسية او المحميين بالسفارة العراقية ومعرفة وكلاء صدام من ابناء الكويت انفسهم الذين يهيئون لتدمير بلدهم بعد ان تحولت مؤسساتهم الى اوكار لتخزين السلاح وايواء القتلة كل ذلك من اجل تمرير صفقات تجارية لاتساوى ثمن الخيانة على اى حال من الاحوال .

رؤيتى لضم الكويت

ان مصطلحات كالاحتلال والغزو والضم ينبغى ان تعاد الى اصولها العلمية واذ ذاك ستبدو تلك مسميات غير متطابقة او صحيحة مع مافرزته العملية العراقية فى الكويت ولعلى شخصيا اشعر بشىء من تجاوز الاصل العلمى للمفردة التى اضطررت اليها عنوانا لهذا المقال .

ان للاحتلال شروطا منصوصا عليها فى اسفار القانون الدولى واتفاقيات الامم المتحدة واعرافا يتوقف عند عتباتها غلاة المحتلين .

فهل كانت العملية العراقية احتلالا ؟

ولصالح من ستكون النتيجة لو اخضعنا العملية العراقية لمقاسات الاحتلال الاسرائيلى لفلسطين مثلا او قلبنا يوميات الاحتلال البرتغالى لايريان الغربية ، او فتحنا ملفات الاحتلال الفرنسى للجزائر وهى احتلالات يختلف الطرفان دينيا وقوميا وجغرافيا فيما تمت العملية العراقية بطرفين يتفقان فى الدين والقومية والانتماء الجغرافى .

هل كان ماحدث غزوا كغزو القبائل للقبائل ؟ لا اظن .

فالغازى يكتفى من غزوه بالغنائم . لم يصر الغزاة يوما على تحويل تابعية

القبيلة المغزوة ولم يحدث ان غير غزاة القبائل الطابع الاجتماعي للقبيلة المغزوة اى ان للغزو القبلي اصولا واعرافا ثابتة هل كانت العملية العراقية ضما وقد اخترنا المصطلح في عنوان المقال ؟

لانعتقد .

ان الضم مصطلح فيه شحنة انسانية وروحية واخلاقية وقد تكون فيه رغبة جمالية تتمثل دائما او تعنى دائما العناية بالمضموم والحرص عليه وعدم التفريط به.

انك تضم طفلك وزوجتك ولا تضم في احضانك عدوا او شيئا لا تحبه .

وفي عملية صدام كان ثمة تفريط بالمضموم واستباحة وانتهاك وتشويه معالمه الجميلة وتدمير شخصيته الانسانية والقومية .

هذا جانب قد يرتبط باللغة ومفاهيم السياسة لكن الرد عليه سيبدو قويا ونافذا عند عرض العملية على مشرحة التاريخ .

ان ضم الكويت هدف قديم في السياسة العراقية مدعوما بما يسمى الحقائق التاريخية ، فاذا عدنا الى اقرب محاولة كانت مطالبة الزعيم عبدالكريم قاسم بالكويت ماثلة امامنا ولا بأس ان نرجع اليها حكما في مقاضاة العملية الاخيرة وضباعفاتها .

في مطالبة عبدالكريم قاسم كانت ادبيات الحركة القومية العربية باحزابها المختلفة ومنها حزب البعث الحاكم في العراق تركز على خطأ ترى ان عبدالكريم قاسم قد وقع فيه يتعلق بالفروق الكبيرة بين الدعوة للوحدة العربية ودعوات الضم الاقليمي وكان حماس البعثيين في العراق ضد محاولة عبدالكريم قاسم صارخا لايدانيه الا حماس الحركة القومية الحالية وحزب البعث لعملية ضم الكويت حاليا للعراق .

فهل تغيرت الحقائق التاريخية ام تغيرت معاني الوحدة والاتحاد فاختلطت بالغزو والاحتلال اغلب الظن ان التيار القومي العربي المؤيد للعملية العراقية كان يفهم التاريخ لرؤية صدام حسين له .

ان الرئيس العراقي يتعامل مع التاريخ قطيعا من الغنم ويوصي اتباعه ومريديه بالحكمة التالية التي كتبناها مرة على لوحات الجدران .

ايها الرفاق ..ايها المثقفون .. سوقوا التاريخ الى معابركم .

وقلم الكاتب مثل عصا الراعي سوى اننا لانهش به على التاريخ وانما نسوقه سوق الاسير وتأتي به الى حيث نريد مسوقا الى مصالحنا او معابرنا .

تبدو هذه الحكمة الان في اوج توهجها . وقد تكاكأت اقلام الكتاب وتحولت الى

مصوات يجلد بها ظهر التاريخ .

ان اثارة عائدية الكويت الى العراق في عهد قاسم اغرت البسطاء بالذهب النفطي القادم من ابارها ، لكنها لم تغر التيار القومي الذي اعلن عن رفضه لسياسة الضم وتأييده لمبدأ الوحدة .

فهل كانت العملية العراقية وحدة اختارها الشعبان كما اختار السوريون والمصريون وحدتهم في عام ١٩٥٨ ان التاريخ كحقيقة مبدأ قد يكون اساسا معتمدا في القانون الدولي لكنه لايصلح مرجعا في اصدار قرار على قضية حدودية في المنطقة العربية . فالعرب ليسوا كالاوروبيين امم شتى على دول مختلفة يستعان بالتاريخ على تحديد هوية مساحة من الارض او دولة على ضوئه .

ان التاريخ كحقيقة قابل للاستخدام في القانون الدولي بين مجموع الحدود العربية مع جيرانها غير العرب لكنه حين ستخدم لمعرفة عائدية جزء عن جزء فانه يبدو باطلا باقرار واعتراف جميع الاطراف العربية والتي تتفق في مناهجها الدراسية وبرامجها الثقافية على ان العرب امة واحدة وان الوطن العربي كل لايتجزأ وان الاستعمار العالمي هو الذي اوجد حالة التجزئة واقام دولا عربية بدلا من الدولة الواحدة . وبهذا المنطلق يكون قيام الدولة في الكويت عملا مرفوضا في المثل القومي وفي التاريخ رفضا مساويا لبطلان قيام دولة في الاردن ودولة في العراق ودولة في تونس .

ان الدليل التاريخي بعائدية الكويت يمكن ان يستخدم ذاته للتدليل على عائدية الاردن لفلسطين وعائدية فلسطين والاردن ولبنان لسورية .

لكن الاعتراف تم بهذه الدول من قبل المشروع القومي العربي نفسه وبوضعها الراهن واعتبارها ضمن العمل بالممكن على ان يظل التاريخ في دائرة الطموح .

وحيث اقيمت جامعة الدول العربية لتثبيت هذا الواقع السياسي وهو مخالف للحقيقة التاريخية وحيث ان العراق اقر ميثاق الجامعة العربية وتصرف خلال السنوات التي سبقت مطالبته بالكويت ، فان الوضع الاستثنائي لقيام الحكومات العربية اصبح حقيقة سياسية منفصلة عن الحق القومي السابق وعن كل وضع سابق لاقرار الشكل العراقي بعد قيام دولته وان مايبقى خارجا عن هذا الشكل يبقى ملكا الحقيقة التاريخية اي ان المطالبة بالكويت تصبح فعلا خارج الحق الاقليمي رغم ذلك فان حق الكويتيين في اقامة دولة لهم اسوة بالاردنيين والعراقيين وغيرهم قد لايتيسر الدفاع عنه او اخفقوا في ادارة الدولة وتخبطوا في متاهات قد تضعف الحجة في حق اقامة الدولة التي توصل اليها الكويتيون .

بينما الملاحظ ان الكويتيين انجزوا لهم الدستور الدائم وانتهجوا سياسة خارجة

لاتكسب لهم نفرة العالم وتعاملوا فى الداخل بطريقة جعلت الكويتى سيدا على امره فحفظت الدولة كرامة مواطنيها ولم تلجأ الى العنف والانتقام في مواجهة الاشكالات الاجتماعية والسياسية ، وانجزت مستوى حضاريا فرض معالمه على الصحراء القاحلة الى جانب توزيع ذكى للدخل القومى وقدره على الخروج بنتائج متجانسة فى عملية بناء ساهمت فيها شعوب تنتمى الى اثنتين وثمانين جنسية ولم يتعرضوا لنكسات دموية ولم يفقدوا توازنهم السياسى فاصبحت الكويت مكانا مطلوبا بل محسودا للعراقيين الذين عانوا خلال الثلاثين عاما الماضية من تدهور فى العلاقات الانسانية وتمزق فى البنية الاجتماعية وتعرضت نخبهم المثقفة الى عمليات النفى والتشرد .

ان هذه النخبة تتجاوب من هذا المنطلق مع الحق الكويتى فى الاستقلال بمثل حق العراقيين فى حياة فاضلة ..

منظمة الموت

الموت نظرية عمل

سيناريو الموت

الموت بالطيار

الموت .. نظرية عمل

يبدأ القرار العراقى من اعلى السلم ،من الموت اعلى عقاب فى جداول الجزا
حلا للصراع الشخصى على السلطة وجوابا جاهزا على خروج مظاهرة احتجا
وتاديبا سهلا للصبيان الذين ورثوا عن ابائهم طريقة الكتابة السياسية ع
الجدران .

والحرب - كالموت - اخر قرار سياسى تلجأ اليه الدول - هى اول قرار تستعين ،
السياسة العراقية وحيث تتشكل بحيرة الدم ، تتقدم امام صاحب القرار ، فرص
الحديث عن الحل الدبلوماسى .

ان الموت ، والحرب اوسع تعبيراته ، نظرية عمل فى السياسة العراقية الراهنة
يعالج به المحتجون على المجاعة ، والمجتمعون على الموت ، والمتحدثون فى سراديب
المعارضة والمتنافشون تحت قبة القصر الجمهورى ، كما تعالج بالحرب خلافات
الحدود ومشاكل التسويق .

ولعل الرئيس العراقى الحالى لم يعجب بحل مثل اعجابه بالموت ، واذا لم يكن
رائد هذه النظرية ، فانه بلا شك واحد من البنائين القلائل لمعمارية الموت وتوسيع
بواباتها لاتاحة الفرص امام البشرية العربية المرور من خلالها .

ولعله نجح فى مرحلة من مراحل مشروعه . ففى سنوات الحرب العراقية
الايرانية تحول الاصغاء العربى الى نداءات يومية وقصائد ومؤتمرات سياسية ترى
فى النظرية العراقية انموذجا حيا قابلا للاستنساخ .

ان كتاب السياسة اليومية كثيرا مايرجعون العمل بنظرية الموت الى اصول
عربية فى تجربة الحجاج بن يوسف الثقفى ، لكن الحجاج رغم اجتهاداته فى
تعميم العمل بنظرية الموت ، وعلى انه كان يشتهى قطف رؤوس البشر كما يشتهى
البشر قطف الزهور ، فانه لم يكن حرا بالتنكر للقيم السائدة ، الى الحد الذى
عرف فيما بعد لدى السلاطين العثمانيين والولاة المماليك ، وفى التجربة العراقية
الراهنة . كان هناك حوار مستمر بين الحجاج وضحاياه من منطلق ثقافى وبلاغى
واحد كثيرا مايسفر عن تراجع الحجاج ، وماحدث لعمران بن حطان شاعر
الخوارج معه . لم يكن حالة نادرة او مثلا يتيما ، فقد شتمه الحجاج ، فرد عليه
بئس ماأدبتك امك تشتم رجلا تقوده الى الموت مايؤمنك ان يرد عليك على مسمع
من اعوانك هؤلاء ؟ فارتد الحجاج ، وقال ارجعوه واطلق سراحه وحين طولب
بالعودة الى مقاتلة الحجاج امتنع قائلا .. غل يدا مطلقها واستعبد نفسا معتقها .
ان فى حياة الحجاج روائع كثيرة من هذا القبيل ، فلا ينبغى جعله مشجبا يعلق

عليه الجلادون المعاصرون اردانهم المبقعة ، فتبدو اعمال ابادة الخصوم مبررة بمثال عربي اسلامي سابق .

غير اننا لانغلق العين عن رؤية قصر السلطان الذى كان يتشكل من خزانة المال وخزانة الكتب وخزانة الرؤوس . في الخزانة الاخيرة تحنط الرؤوس ويحتفظ بالجماجم على الرفوف والجدران وتحت كل رأس تعريف بصاحبه وتاريخ قطعه لكن هؤلاء السلاطين ايضا لم يكونوا احرارا من كل قيد ، ولطالما خضعت قراراتهم لتأثيرات الدين والوسط واعراف النخوة فيفلت من دائرة الموت العديد من المحكومين .

لقد ظهر العراق في التزامه بنظرية الموت ، اكثر حرصا من دول عربية احتلها العثمانيون على ترسم خطى التجربة المملوكية فأمام مشكلات بسيطة تواجه الدولة لم تستطع نظرية السلطة العراقية ان تسعف القائد السياسي بمقترحات وحلول لمعالجة مسائل السياسة كالتعدد القومي والمذهبي والمطالب الاجتماعية للناس واشكالات الجوار الجغرافي .

ان حلا دائما ووحيدا يتقدم الى غرفة القيادة العراقية ، كما كان يتقدم الى سراى الوالى وقصر السلطان ، محمولا على كتف جندرمة او مخفيا في جيب القمصلة السرى ولم يكن حل غير استخدام القوة قريبا الى العقل السياسي العراقي الحاكم ويشترك في هذه الصفة السياسيون المحافظون والراديكاليون على حد سواء .

ان نورى السعيد الذى ينظر اليه كأبرع ممثلي سياسة الدهاء والحكمة ، كان في الحقيقة اشد زملائه المحافظين ميلا للعمل بنظرية الموت ، وكانت الدبلوماسية البريطانية تنصح بعدم تكليفه بتشكيل الوزارة في ظروف ومتغيرات حادة كمحاولات الانقلاب والوثبات الشعبية لمنعه من اعمال الانتقام التي سيلجأ اليها مفضلين سياسيا اخر هو جميل المدفعي غير المعروف بميوله الدموية .

والغريب ان يتبنى الحل الدموى فنانون ومثقفون وشعراء وحركات سياسية في المعارضة .

لقد منح الفنان الساخر عزيز علي ، قائدا منتظرا للاصلاح ، حق الذبح كذبح الابل في منواجه « دكتور » وكان الجواهري وهو المثال الهائل لشاعر الدم يخص القادة الثوريين على تضيق الحبل والشد من خناق معارضيهم .

وقد زاول الشارع العراقي في صباح ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ نمطا من السلوك غير المبرر في سحل الجثث بالحبال وتعليقها على اعمدة الكهرباء .

وحين احجم الزعيم عبدالكريم قاسم عن تنفيذ احكام الموت الصادرة بحق عدد

من السياسيين والمتمردين على حكومة الثورة تعالت نداءات .. اعدم اعدم .

وفى انقلاب ٨ شباط عام ١٩٦٣ الذى قاده حزب البعث ضد عبدالكريم قاسم ، تصدرت نظرية الموت المكان الاول والوحيد فى السياسة العراقية لمدة تسعة اشهر ، انتهت بانقلاب عبدالسلام عارف الذى انتهى هو الاخر صريع النظرية .

وقد يكون الفريق عبدالرحمن عارف الذى استخلف شقيقه ، الرئيس العراقى الوحيد الذى استنكف عن الاقتراب من هذه النظرية واوشكت ان تنتهى فى مدة رئاسته التى استمرت مابين عامى ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨ مشاهد الموت السياسى ، واصبح ممكنا للسياسى العراقى ان يتصرف بعدد من الاحتمالات والفرضيات والحلول بعيدا عن استخدام القوة ويعود الفضل فى هذا السلوك المتحضر الى الاستاذ عبدالرحمن البزاز رئيس الوزراء الذى سارع لالغاء معظم القوانين الاستثنائية والمحاكم الخاصة واعاد القضاء العراقى الى مواقعه الصحيحة فاستثمرت الحركات السرية هذا الموقف ، واخذت توسع نشاطاتها ، لاسيما وقد اغلق البزاز معظم المعتقلات السياسية ، مما ساعد الجناح اليمينى فى حزب البعث الذى يتزعمه احمد حسن البكر للاستيلاء على السلطة والذى بادر لاعادة فتح المعتقلات السياسية التى اغلقها البزاز ، وليكون البزاز نفسه احد ابرز ضحايا التعذيب فيها .

واذا كان المحافظون قد استعاروا من علوم التربية مصطلحا لنظرية العمل بالموت وهو الصدمة التأديبية ، فان البعث العراقى قد استعار من قاموس الماركسية اللينينية مصطلح العنف الثورى لعصرنة النظرية .

ان تجربة عبدالكريم قاسم المأخوذ بالحكمة القديمة ـ عفا الله عما سلف ـ ومبتدع الحكمة الجديدة ـ الرحمة فوق القانون ـ تبدو امام المتمسكين بنظرية الموت ساذجة وسخيفة ومثلها تماما تجربة عبدالرحمن عارف الرئيس الوحيد الذى لم يلجأ الى استخدام الموت حلا للمشكلات السياسية .

وقد يكون من سوء حظ العراقيين ان التجربتين ، على مافيهما من مثالب ونقائص لم تعمرا طويلا ، فلم تستمر الاولى سوى [اربع سنوات ونصف] واستمرت الثانية اقل من ثلاث سنوات ، غير انها فى معايير الملتزمين بنظرية الموت تبدو وان معمرتين مدة اطول .

يقول الرئيس العراقى صدام حسين ، انه يستغرب كيف امضى عبدالكريم قاسم تلك المدة الطويلة فى السلطة ويستغرب اكثر ان يقيم عبدالرحمن عارف فى القصر الجمهورى ثلاث سنوات .

لعل الرئيس العراقى اراد ان يقول كلاما اخر ، فلو استعادت سلطة الحزب

الحاكم اساليب عبدالكريم قاسم ، وتنازلت عن استخداماتها لنظرية الموت إسبوعا واحدا ـ لسقطت في الاسبوع الذي يليه حتما ان كلام الرئيس هذا صحيح جدا .

وصحيح ايضا ان قرار الموت ليس فقرة معروضة الى جانب فقرات اخرى على جدول اعمال السلطة انما ينحصر العمل اليومي للدولة بجدولة الموت فلاتخرج الفقرات الاخرى ، عن ان تكون مقترحات او اجراءات او تقييمات ، تدور حول الاداء الممتاز لقرار الموت ، والذي على ضوئه تتحدد المواقع الممتازة ويجرى التقييم الوظائفي

وفي العراق يجرى الاحتفال السنوي في يوم محدد بعيد « الحصاد العظيم » .

ان مصطلح في نظرية الموت لايعني ـ كما ينصرف الذهن البسيط ـ الى بيادر القمح التي كانت ترتفع كالاهرامات على ضفاف الانهار العراقية ، بل هو يوم ارتفعت فيه اهرام الجثث في الحرب على اعلى قمة ارتفعت اليها اهرام القمح في سنوات الحصاد القديم

وعلى طريقة الصفويين والعثمانيين اقيمت في بغداد نصب من خوذ القتلى تثبت في الاتباع المدربين متعة الموت وقد زود هؤلاء الاتباع باعة السمك في الاسواق العراقية بلائحة شعارات يتنادون بها في صراخهم لجلب الزبائن وبنوبة مستديرية يعتف بائع السمك

سمك بني بلحم ايراني !

بلاش .. بالحم ايراني !

انهم يدعون الى تذوق طعم جثث القتلى الطافية على الانهار والاهوار والتي تقتات عليها الاسماك وبالتاكيد فان بعضها جثث جنود عراقيين .

ان ترويض النفس الانسانية لا لقبول حالة الموت فحسب بل التمتع والتلذذ بمشاهد القتلى تمتد الى فترات سابقة لحكم البعث الحالي ، وتدمغ بالاساءة اسماء ليبرالية لامعة في النظام الملكي وترتبط بظاهرة الاعدامات العلنية ، وترك جثث السياسيين المحكومين مشنوقين في الساحات العامة مدة طويلة ، فقد اختار الامير عبدالاله الوصي على العرش العراقي الباب الرئيسي لوزارة الدفاع مكانا لاعدام غريمه العقيد صلاح الدين الصباغ وترك جثته معلقة حتى منتصف النهار .

ويختار نوري السعيد بعد اربع سنوات ساحة من جانب الكرخ مكانا منفصلا لاعدام قادة يساريين ، فلم يكن والحالة هذه متوقعا من الثوار في صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨ ان يتجنبوا هذه الوسيلة لكن الجديد الذي اضافه الثوار انهم ـ وعلى لسان العقيد عبدالسلام عارف ـ دعوا في الاذاعة ابناء الشعب العراقي الى الاشتراك في سحل جثة الامير عبدالاله بالحبال وتعليقها على عمود كهربائي في

المكان الذى علقت فيه جثة العقيد صلاح الدين الصباغ..

وتبنت حركات يسارية مبادرة عبدالسلام عارف .. ولكن لسحل الاحياء - لا الجثث - بالحبال حتى الموت .

واذا كانت تلك الحركات قد مارست النقد الذاتى واعتبرت سحل الجثث خطأ تسبب عن هياج جماهيرى غير منضبط ، فان حزب البعث الحاكم فى العراق قد جعل مسألة كهذه من مستلزمات البقاء ، فسعى لتطوير اساليب العمل بالموت وتعميمها واستخدامها حتى لحالات (جر الاذن)!! ونشر فلسفة الموت والدعوة الى التلذذ به فى تعاليم حزبية ومن خلال برامج تعليمية واعلامية .

اننا نتذكر باشمئزاز حفلا دعت اليه السلطة مطلع عام ١٩٦٩ ابناء الشعب العراقى لمشاهدة عروض الموت فى ساحة التحرير وسط بغداد وكان قادة السلطة وعلى رأسهم احمد حسن البكر وصدام حسين قد استعرضوا غابة المشانق فى الساحة وهم يدورون حولها بسيارة مكشوفة وعوائل عراقية تتربع على الارض حول جثة معلقة لتناول الشاى وقطع السندويج .

لكن الحديث عن نظرية الموت واستخداماتها وضحاياها قد يتجاوز المساحة الصحفية المقبولة والمحددة للكتابة .

سيناريو الموت العراقى

ولن يمنع توزيع الموت على الداخل ، انشغال الدولة بالموت فى الخارج بل قد يكون الموت الخارجى مشاغلة مقصودة ، تجرى خلفها اعمال المكلفين بالموت المحلى . ففى ذروة تراجع القوات العراقية وهزيمتها امام القوات الايرانية فى « المحمرة » واستسلام ثلاثين الف جندى عراقى وضابط ومقتل سبعة عشر الف منهم ، لم تنس سلطة المنظمة السرية اجد اعضائها او سفيرها فى تونس محمد صبرى الحديثى المحكوم بالسجن خمس سنوات لتنفيذ حكم الاعدام به . وتسليم جثته الى شقيقه ناجى الحديثى مدير الاعلام والناطق الرسمى الحالى فى حكومة المنظمة !

وقد تفتتح الدولة وهى تتهيأ لحرب خارجية ، نشاطها باغتيالات واعدامات سريعة فى الداخل ، فقد اغتيل فى شهر نيسان ١٩٨٠ اى فى الوقت الذى قرر فيه العراق شن الحرب على ايران ، عبدالكريم الشيخلى وزير الخارجية السابق وممثل العراق فى الامم المتحدة والصديق الشخصى لصدام حسين ، واعدم قبل ايام من بدء الحرب ، فى ايلول ١٩٨٠ ، قاسم السماوى وكيل وزارة الخارجية ، لانه تأخر حتى صباح اليوم التالى باستدعاء السفراء المعتمدين فى بغداد وابلاغهم قرار

حكومته بالغاء معاهدة الجزائر المعقودة عام ١٩٧٥ بين الشاه محمد رضا بهلوى وصدام حسين وسلمت جثة السمارى الى اهله بعد تركها فى ثلاجة المستشفى ستة شهور .

القصد المرسوم !

وحين كان الهمس يدور فى الاوساط الشعبية العراقية حول دور اكيد للحزب الحاكم بترحيل المقاومة الفلسطينية من الاردن واسناد الجانب الاردنى فى مجزرة ايلول بنوايا السلطة سحب القوات العراقية المرابطة فى المفرق وجرش كان على الدولة ان تعالج مشكلة كهذه باسلوبها الخاص وتستعين بالموت نظرية عمل ، وتجد فى احاديث الموت الفلسطينى الهائل ، فرصة لاختيار فاعلية السموم التى وصلت الى بغداد فى تلك الفترة بتسريب كميات من القمح المعفر بالسموم الى منافذ البيع وتوزيعها على مناطق فقيرة فى ضواحى بغداد حيث يقيم فلاحون فقراء مهاجرون من الجنوب وعلى قرى كردية فى مدينة كركوك . كانت نتائجها تشير الى وفاة اكثر من الف شخص وظهور تشوهات خلقية وولادة اطفال مشوهين .

ولم يكن البيان الحكومى الصادر حول هذه المجزرة مقنعا وهو يشير الى حصول خطأ فى توزيع حنطة معفرة معدة للزراعة على محلات البيع ربما اعتقد بعض المراقبين ان السلطة التى ارادت التخلص من مأزقها . سقطت بمأزق اكبر ، فهى لكى تمحو مجازر ايلول من الذاكرة الشعبية استحدثت مجزرة السموم الشعبية .

ان مثل هذا الاعتقاد ، لايدل على استيعاب جيد وفهم صحيح لاساليب العمل فى المنظمة السرية التى من تقاليدها ان تستحدث منطقة موت جديدة للخروج من منطقة موت سابقة .

لقد كان صالح مهدى عماش - نائب رئيس الجمهورية - والعسكرى المعروف بصلاته مع الوسط الرياضى قد اهتدى الى حل معقول لازمة القمح المسموم . فقد استقدم مصارعا عراقيا مقيما فى الولايات المتحدة ومختصا بالحركات البهلوانية التى تستهوى الاطفال عادة ، وتقديمه للعراقيين على انه بطل يمتلك قدرة اسطورية فى اسقاط خصومه وخصصت ساعات من البث التليفزيونى لمتابعة نزالاته وكان التعليق السياسى للاذاعة والتلفزيون يدور حول هذه الاسطورة وقد وصف معلق رياضى احد نزالاته بانه امتحان للامة العربية وحين انتصر المصارع المذكور كما هو مرسوم فى السيناريو صرخ المعلق انها خطوة نحو فلسطين .. فهذا هو العراق القوى .

فهل كان - عدنان القيسى - وهو اسم المصارع حلا يرضى رجال المنظمة السرية ؟

اغلب الظن انهم استخفوا بعقلية عماش ، كما استخف به العراقيون ولكن من منطلق مختلف .

فاذا كان رياضيون اقحاح وسياسيون ومثقفون يدينون هذه الطريقة التى تستخف بعقول الشعب العراقى ، كان رجال المنظمة السرية يدينون عماش هذا العسكرى الحزبى الذى لم يستطع ان يتحول الى عضو نافع وصالح للاقامة فى المنظمة السرية ، والذى اخطأ فى معالجة الموت بعروض المصارعة الحرة التى قد تسيل الدم لكنها لاتصرع الضحية .

والمطلوب عودة سريعة من الموت المكذوب الى الموت الحقيقى !

حفل فى معمل التعذيب

فى ذلك الوقت من عام ١٩٧٣ كان صدام حسين يفذ الخطى ويواجه فى الطريق الى المواقع الاولى صعوبات ينبغى تذليلها . ففى داخل المنظمة الحزبية كان غريمه عبدالخالق السامرائى الكادر المتفرغ والذى يحظى باحترام الجهاز الحزبى ، يتبنى دعوة لعقد مؤتمر قطرى ، تبدو البنكوك قوية بقدرة صدام حسين على الخروج منه بنتائج لصالحه ، فقد كان السامرائى يبشر مريديه بان مؤتمرا حزبيا يكفى لابعاد صدام حسين وبطريقة شرعية تنسجم مع النظام الداخلى للحزب ، ولطالما سمعت شخصيا من عبدالله سلوم السامرائى القيادى البارز والذى يرتبط بقرابة عائلية ومحلية بعبدالخالق السامرائى ان الاخير وعده بان يكون المؤتمر القطرى القادم فرصة شرعية للتخلص من صدام حسين وكان عبدالخالق السامرائى قد قطع شوطا بعيدا فى حواره مع اطراف وطنية لصياغة تحالف جبهوى .

من جهة ثانية كان نفوذ صدام حسين ، المحشور فى مبنى المجلس الوطنى نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة يتوقف عند بوابة القصر الجمهورى ، مقر الرئيس احمد حسن البكر المحفوف بجنرالات المجلس كحماد شهاب وسعدون غيدان وضباط القصر ومستشاريه كعدنان شهاب وسكرتير الرئيس - صهره - منذر المطلك .

وكان واضحا ان خطوة الى الامام فى مشروع صدام للانفراد بالسلطة لايمكن ان تنجز سالم يبعد هؤلاء عن احمد حسن البكر الذى توجه الى بلغاريا ويوغندا فى اول واخر زيارة له خارج العراق .

ولدى عودته الى بغداد في ٣٠حزيران ١٩٧٣ ، التقط قائد الطائرة اشارة من بغداد تنصحه التريث بالهبوط حتى يتجلى الموقف اوجود طارىء يسعى صدام حسين لتجاوزه وحينما هبطت الطائرة لم يجد الرئيس في استقباله عددا من الشخصيات التي كان المفروض ان تقف في الصفوف الاولى كوزيري الدفاع والداخلية وبعض ضباط القصر وبدا الارتباك واضحا على وجه صدام ولم يطل الوقت ليكتشف الرئيس البكر ان مدير الامن العام مسؤول التنظيم العسكري وهو ليس عسكريا « اللواء ناظم كزار » يقود محاولة انقلابية ويحتجز بعملية ساذجة وسيناريو ضعيف كلا من حماد شهاب وسعدون غيدان وعدنان شريف شهاب واخرين من مجموعة الرئيس

تفاصيل العملية لاتعطي انطباعا بانها محاولة انقلاب ولم تستهدف اساسا الرئيس البكر وانما كان مخططا لها تصفية الجنرالين المهمين في مجلس قيادة الثورة وهو ماحصل فعلا . فقد قتل وزير الدفاع ونجا وزير الداخلية من اصابات لم تكن قاتلة واعطاء بقية الرهائن درسا قد يعودون بعده الى هجوم اصغر مما كانوا يتصرفون بها .

اما الطريقة التي استخدمها ناظم كزار ، فلم تكن سوى « مصيدة الفئران » ذاتها حيث يستدعى الضحايا لحضور اجتماع اعتيادي او خاص ، فيجري القاء القبض عليهم داخل القاعة لكن دعوة ناظم كزار لرفاقه تضمنت جانبا مثيرا .فالدعوة مخصصة لحضور افتتاح معمل تعذيب تم الانتهاء منه ويعمل الكترونيا والبا من لحظة دخول المتهم الى نهاياته !

لعل عدم ادخال المدعوين الى معمل التعذيب ، مؤشر قوي ودليل يمكن الاستناد عليه في ان مخطط العملية لم يكن يستهدف تصفية جميع المدعوين وكان خروج احمد حسن البكر من المطار الى المدينة سالما دليلا اخر على انه لم يكن مستهدفا.

ولاتدل الطريقة التي تصرف بها ناظم كزار في اخر مراحل العملية وهو الخبير على شيء من الدراية والخبرة في التامر فقد توجه برهائنه ورجاله الى الحدود العراقية الايرانية وعلى طريق صحراوي مكشوف مما سهل الانقضاض عليه بطائرة هليكوبتر وتحرير الرهائن وهذا دليل اخر على ضعف سيناريو المحاولة كما اعلن عنها رسميا ولم يكن ذلك خافيا على احمد حسن البكر الذي اصدر اوامره بمنع دخول غير العسكريين الى القصر الجمهوري وان كانوا من اعضاء مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية وفرض حجز مؤقت على حركة صدام حسين ، وكان متيسرا وسهلا ان يتخذ الرئيس البكر اي قرار بطرد صدام وتجريده من مواقعه الحزبية والرسمية ، لكنه اي البكر لم يذهب الى ابعد من اجراءاته تلك ،وقد عاد

فاستدعى صدام حسين وتشاور معه لوضع ترتيبات مشتركة اسفرت عن تشكيل محكمة حزبية خاصة برئاسة عزت الدورى ، وقد دلت التطورات اللاحقة على دور كبير لصدام حسين ليس فقط فى ادارة المحاولة عن طريق ذراعه الضارب ناظم كزار وانما فى ادارة المراحل التى الت اليها المحاولة والنتائج الكبيرة التى حصل عليها صدام حسين والتى نعتقد انها اهم واصعب واخطر المراحل التى قطعها فى طريقه الى رئاسة الجمهورية .

اصابع بشرية

ان النتائج التى يمكن ترتيبها لصالح صدام حسن هى

١- وضع الرئيس البكر فى زاوية وتجريده من اهم المؤيدين له داخل مجلس قيادة الثورة .

٢- توريط عزت الدورى الذى ترأس المحكمة الحزبية لمواجه المشكلات العشائرية والحزبية الناجمة عن اصدار احكام الموت والسجن ضد ناظم كزار مدير الامن السابق ومحمد فاضل عضو القيادة القطرية وعبدالخالق السامرائى وثلاثين رجلا من العاملين فى اجهزة الامن .

٣- تخلص صدام من ناظم كزار سيء السمعة لارضاء الاحزاب الوطنية وظهور صدام بمظهر الحريص على التعامل السلمى مع اعضاء الحركة الوطنية

٤- التخلص من غريمه القوى عبدالخالق السامرائى الذى زج اسمه فى المحاولة الانقلابية مع ان ناظم كزار لم يلتق مرة فى موقف واحد مع اتجاهات عبدالخالق السامرائى .

٥- تبنى صدام بعد سجن عبدالخالق مطاليب عبدالخالق نفسه ففتح حوارا سريعا مع احزاب الحركة الوطنية لاقامة الجبهة التى سعى اليها السامرائى والتى اقيمت بالفعل بعد ٤٥ يوما على اتهام السامرائى بالمحاولة الانقلابية وتحويل حكم الاعدام الصادر ضده الى السجن المؤبد ٦- اصبح ممكنا لصدام عقد المؤتمر القطرى الثامن بعد ازاحة منافسة القوى.

٧- جعل ناظم كزار مسؤولا عن جرائم الاغتيال والتعذيب اذ اسرع صدام الى تهديم المعتقل المعروف بقصر النهاية لكن الواقع ان الهدف من تهديم قصر النهاية اقامة مبنى ثم الانتهاء منه ويتشكل من ثمانية طوابق ثلاثة منها تحت الارض مجهزة بادوات التعذيب الخاصة .

٨- ان اخر ماحققه صدام بتصفية ناظم كزار ان مديرية المخابرات اخذت شكلها التام وقد حسم الموقف لصالحها فى الصراع غير المعلن مع مديرية الامن

العامة .

كنت فى ذلك الوقت اشارك بدورة عسكرية للتدريب على السلاح ، انتهت كما انتهت غيرها ، برفضى القاطع حمل السلاح واستخدامه او حتى تعلم طريقة استخدامه .

واذ كنا نتدرب فى ساحة ملحقة بالبستان المجاور للقصر الجمهورى صرخ رفيقى الذى كان يزيح التراب ليأخذ موضعا ثابتا استعدادا للرمى وهو ينفض يديه كما لو كان ملدوغا بعقرب . حتى اذا هدأ روعه .. قال . ان اصابع بشرية اصطدمت باصابعه بين التراب ، فتقدم الضابط المسؤول وحمل اصبعا مقطوعا . وقال ضاحكا هذا واحد من اصابع ناظم كزار ، الذى نفذ فيه الحكم قبل ايام فى هذه الساحة ولا ادرى حتى الان ان كانت تلك اصابع ناظم كزار ام اصابع اخرين كانوا يعدمون رميا بالرصاص فى تلك الساحة .

عولج رجل الموت ، حامل التابوت الى قبو التحقيق فى اب عام ١٩٦٣ بالحل نفسه .. بالموت فى اب ١٩٧٣ وقطعت اصابعه بعد عشر سنوات على ظهور قدراته الحزبية فى تقطيع مواطن عراقى حيا بالمنشار .

وعولج بالموت نفسه ثلاثون من مساعديه فى هيئة التحقيق ، كان ابرزهم شخصان هما حسن المطيرى احد مسؤولى التعذيب فى قصر النهاية والذى اورد اسمه الدكتور نجم عبدالكريم ، يسجل فى مجلة « المجلة » شهادة رجل فى قصر التعذيب والاخر ضابط الشرطة واحد جلادى الحزب دارد الدرة .

الاكسسوار الجديد

ولحفلات الموت اكسسوار خاص !

فقد كشفت حفلة اعدام ناظم كزار ومساعديه ، عن خلل كبير ، وهو استمرار لخلل قديم سرعان ماعالجته قيادة الحزب اذ تعصب عيون المحكومين بالاعدام رميا بالرصاص وتترك افواههم مفتوحة ، فتخرج منها اسرار اللحظة الاخيرة .

لقد بصق ناظم كزار فى وجوه رفاقه عندما اقتيد الى القصر الجمهورى لمحاكمته واعطى لمنفذى حكم الموت به دروسا فى اليقظة والاحتراس من هؤلاء الذين كان ناظم كزار ذراعهم الضارب وقلبهم اليابس .

عندها بادر صدام حسين ورفاقه لتصحيح اكسسوار الاعدام بترك عيون المحكومين بالموت مفتوحة فى ساعة التنفيذ وتكميم افواههم بقطع البلاستر المحكم.

ان الطريقة الجديدة هذه مفيدة فهى تجعل المحكوم بالموت يطل بملء عنيه على

ضحاياهم بينما كانت السلطة تشيع انه رجل واحد هو ابوطبر اى صاحب الطبر .

كانت الضحية الاولى دارا مجاورة للقصر الجمهورى تعود الى استاذ جامعى يدعى ارنست جان ويسكنها مع ابنته الوحيدة وتوالت الضحايا وسكن الرعب فى كل مسكن لا فى بغداد فحسب بل على مستوى الخارطة الوطنية وخصصت جريدة الحزب « الثورة » مقالات افتتاحية لتحليل ظاهرة ابوطبر وانتهت بالاعتذار لعجز سلطة الحزب عن اكتشاف امره وعللت ذلك برأى لصدام حسين انحى فيه باللائمة على عدم وجود غدلا ، دولى المخابرات العراقية يمكنها من اكتشاف القاتل واعلنت السلطة انها استقدمت خبراء عالميين لحل اللغز .

كان سيناريو ابوطبر محكما بطريقة تختلف عن الطريقة التى صيغ بها سيناريو ناظم كزار .

فالاختيار العشوائى للضحايا يجعل كل عائلة تتوقع ان تكون هى التالية ولو كان الضحايا من مذهب سياسى معين لاطمئن الاخرون من غير اتباع ذلك المذهب . ولو اقتصر ابوطبر على منطقة او مدينة او محلة بالذات لشعر سكان المناطق الاخرى بالاطمئنان . ولم يتخصص بسن معينة فضحاياه طاقم العائلة بكامله واذا كان الموت بهذه الطريقة مثيرا فان الاعلان عن الاعتداء الجنسى على الضحايا سيكون اكثر اثارة ولن تقلت من قبضته دار داخل المنطقة الامنية للقصر الجمهورى . الم يكن ضحيته رجل شرطة مدرب على مقاومة المجرمين ؟

ولكى يكون السيناريو متكاملا وضع الجهاز الحزبى بالانذار ووزع السلاح فى كل مكان ونظمت خفارات ليلية فى كل منطقة فازدادت صورة القاتل رعبا وقد عجز حزب مسلح ودولة ارهابية عن مقاومته . لكن النهاية يجب ان تعطى انطباعا اخر ويعلن عن القاء القبض على شخص من اذالى مدينة المسيب التى تحمل اسم الصحابى الفارس المسيب بن نجبه الفزارى الواقعة بين بغداد وكربلاء فيعترف بانه هو القاتل .

هل كان الهدف من مذابح ابو طبر ترويع الناس واشغالهم عن موت سابق بموت حالى ؟ ام ان صفقة سياسية يراد تحريرها وقد مرت من خلف ابوطبر ؟

ربما كان ذلك محتملا ..

لكن السلطة استثمرت هذه العملية لاجراء تعداد سكانى فى بغداد على غير الشكل المعروف فقد دخل موظفى التعداد الى كل دار والتقطوا صورا لافراد العائلة واستخدموا مقاسا مترياً لتسجيل اطوال الاشخاص فى كل عائلة مما يثير الشكوك فى نوايا السلطة ويؤكد اخبارا تناقلتها اوساط محلية عن رغبة خبراء اجانب استقدموا لبناء الهياكل الامنية فى الحصول على معلومات وفتح ملف لكل

عائلة ومعرفة صلاتها وانحداراتها واتجاهاتها .

وقد يكون صحيحا ، ان الهدف من عملية ابوطبر اجراء اختبارات لمعرفة قدرة العراقيين على مقاومة الرعب والخوف .. وكانت النتيجة مدهشة . فقد لف الخوف قلوب الناس وتركت عوائل كثيرة مدينة بغداد وانتقل اخرون الى السكن مع اقربائهم في دار واحدة واغلق بعضهم نوافذ دورهم بالسمنت المسلح وتناوب افراد العائلة الحراسة في الصباح وعطلت مبردات الهواء بعد ان تسربت اشاعة عن وضع ابوطبر مخدرا في احواضها .

يروى الصحفيون العراقيون ان الصحفي اللبناني علي هاشم المحرر في جريدة النهار كان في قاعة القادمين بمطار بغداد يتحاور مع موظف كمركي استنكر ان يصطحب الصحفي اللبناني معه الى بغداد صندوقا من قناني مياه الشرب المعروفة (بالصحة) قائلا لله انتم يابزر الجكليت (ابناء الدلال) يالبنانيين الا يكفيكم ماء دجلة العذب حتى تحملوا معكم هذه القناني والله لا اوافق على ادخالها مهما كلف الامر .

رد علي هاشم كما تقول الرواية ان (بزر الجكليت) نحن اللبنانيين نواجه صواريخ وقذائف ودبابات وجيوشا ومليشيات ولاتنقطع ساعة عن المكتبة والكازينو والساحل ونسافر ونزور بلدانا كالعراق باحثين عن اسرار شخص يدعى ابوطبر اوشك ان يجلي سكان العاصمة وجعل العراقيين لاينامون على سطوحهم ولايدخلون حماماتهم .

وقرر علي هاشم عدم الدخول الى بغداد فقفل راجعا ..اعتقد ان حوار صدام حسين مع نفسه وهو يطل على الفزع الشعبي من ابوطبر لم يكن يختلف عن حوار الصحفي اللبناني مع رجل الكمارك.

فاذا استطاع شخص موهوم او حقيقي يدعى ابوطبر اخضاع ملايين العراقيين لسطوته واجلاء العشرات منهم عن بيوتهم فاية صعوبة ستواجه من سيكون والي العراق القادم .

لقد عززت هذه الصورة من امكانية نجاح صدام في استخدام الموت نظرية عمل وتحقيق نتائج مذهلة .

وتعلم صدام حسين من تجربة ابوطبر دروسا اخرى فصار اذا قتل احدا تسرب طريقة قتله الى المجتمع ولم يعد يعطي اسبابا مقنعة لاعدام ضحاياه بل وجد من المفيد ان يشعر الناس بان ضحيته لم يكن مذنبا .

وعلى صعيد الحياة الداخلية في المنظمة السرية اصبح الطريق امام صدام حسين مفتوحا لعقد مؤتمر قطري مؤجل يدفع بخمسة من رجال الصف الثاني الى

السفوف الاولى اعضاء فى القيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة وليكون القادة الجدد بعد خمس سنوات ضحايا الفصل التالى من مسلسل الموت .

تطوير صناعة الموت

عطل العمل بنظرية الموت نشاط الخبراء السياسيين وعلماء النفس والاجتماع ولم يترك حيزا للتفكير فى حلول ومعالجات قد تكون مجدية لفض اشكالات السلطة وازماتها لكنه من جانب اخر اعطى فرصا كبيرة لامكانات صدام حسين وقدراته لان تنفتح على تطبيقات يومية لنظرية الموت وتتصاعد بوتائر منظمة وصولا الى الصورة العراقية الراهنة .

وسواء اتخذ الموت شكل المشنقة التقليدية ام الاغتيال بالرصاص ام دس الثاليوم بالطعام ام بقصف القرى والاغارة على المدن بغازات الخردل فانه يتطلب تشكيل هيئات متخصصة واستخدام بشر ذوى مواهب خاصة واقامة مؤسسات تعتمد على التكنولوجيا الحديثة .

وبالاجمال فقد انجبت نظرية الموت المؤسسات التالية :

١ـ جهاز قمعى متطور فعال يتشكل من ثلاث مؤسسات كبرى استنزفت طاقة العمالة المحلية وافرغت المزارع من ابنائها وهى المخابرات العامة والامن العام والاستخبارات العسكرية واضيفت اليها مؤسسة رابعة يعمل افرادها مجانا هى مؤسسة الجهاز الحزبى المنتشر اتباع فى جميع مناطق العراق .

٢ـ معامل التعذيب المجهزة باحواض الاسيد وماكائن اتلاف الجثث واجهزة اخرى ضرورية لمعالجة المعتقلين والموقوفين وانتزاع اعترافاتهم .

واذا كان الجهاز الحزبى حتى بعض كوادره العليا يجهلون اى شىء عن معامل التعذيب فان الاقمار الصناعية واجهزة المعلومات الدولية اشارت الى مواقع بعضها فى ضاحية المدائن قريبا من ضريح الصحابى سلمان الفارسى وفى العامرية قريبا فى مطار بغداد وفى الراشدية بين بغداد وبعقوبة وهوالمعمل الذى افتتحه ناظم كزار فى يوم ٣٠ تموز ١٩٧٣ ردعا الى ذلك رفاقه اعضاء المكتب العسكرى وعسكريين وموظفين من مجموعة البكر كما فصلنا ذلك فى الصفحات السابقة .

٣ـ استحداث معتقلات وسجون لخزن الموقوفين قبل عرضهم على معامل التعذيب واجهزة الموت .

وقداحصت منظمة الدفاع عن حقوق الانسان فى العراق فى المنفى (٦٦) معتقلا ويشمل الرقم فقط السجون العلنية والتى لاتشكل سوى نسبة ضئيلة من السجون الحقيقية والتى لايعرف احد عنها شيئا .

٤- محطات استخبارية لمتابعة نشاط العراقيين في الخارج والقيام بمهمات الاغتيال المطلوبة .

وهي تتشكل من المراكز الثقافية ودور الصحف والمجلات الممولة والمدارس العراقية في الخارج ومكاتب الخطوط الجوية العراقية والشركات التجارية .

وهذه المؤسسات تعمل وكأنها بعيدة عن الحياة الدبلوماسية المكلفة عادة بالاشراف على هذه المحطات .

٥- تأسيس مصانع لانتاج الغازات السامة ومزارع للميكروبات والعراق هو الرابع في هذه الصناعات من دول العالم .

واذا كانت تلك البلدان قد احتفظت بمخزونها من الغازات السامة فان العراق يختلف عنها في استخدامات السموم سواء في حربه ضد ايران ام في مهاجمة مدن كردية بالغازات .

ان تطور صناعة السموم في العراق والنجاح فيها مدين لسيكولوجية صدام وتمسكه بالموت ، نظرية عمل وحيدة وكانت نجاحاته في هذا الحقل مدهشة تقابلها اخفاقات سريعة في اقامة مصانع ومزارع انتاجية .

لقد نجح في زراعة الميكروبات واخفق في زراعة القمح .

نجح في صناعة السموم واخفق في صناعة الحليب .

من جهة اخرى تتسع قاعدة الموت لتضم دولا مجاورة كايران وعربية كالكويت قدمت دولة المنظمة السرية في العراق على ارضها عرضا جديدة من اساليب الموت كقتل الاسير والجريح وسحب الاوكسجين من المرضى وسحب الاطفال الخدج من الحاضنات . واعدام اطباء على باب المستشفى .

ولم يصل صدام حسين الى درجة التشبع الدموي وقد تشبع وعيه الباطني وعقله السياسي بافكار الموت .

واحدة من هذه الافكار ماذكرته مجلة الدستور الصادرة في لندن بتمويل عراقي العدد (٦٥٤) في ١٩٩٠/٦/١٠م تحت عنوان سلاح سري عراقي .

تقول المجلة (ان سلاحا سريا لم يعلن عنه في العراق وسيستخدم في ازمة الخليج الحالية وفي الوقت المناسب ويقضي هذا السلاح بما يلي:

١- ضخ ملايين البراميل من النفط في مياه الخليج من العراق والكويت الامر الذي يؤدي الى توقف الملاحة في الخليج العربي للسفن العادية وحتى البوارج الحربية واعاقت حركة حاملات الطائرات بنسبة ٧٠٪ .

٢- تخريب العمل في محطات تحلية المياه الامر الذي يجعل العطش سمة الحياة في دول الخليج بالاضافة الى توقف العمل في مصانع كثيرة على الشواطىء .

٣ـ امكانية اشعال النار في هذه الكميات الهائلة من النفط بعد ان تكون قد تشكلت منها طبقة كثيفة متصلبة .

٤ـ ان تنظيف المياه يتطلب فترة زمنية طويلة قد تستغرق سنوات .

غير المنظمة السرية وغير صدام حسين لايقترب من هذه الافكار ولايسمح حتى بمجرد الهمس بها وترديدها لكن اساليب العمل بنظرية الموت وسايكولوجية صدام حسين تجعلان الاعلان عن هذا المخطط مكسبا وطنيا وقوميا تصح المفاخرة به .

ان نشر مؤسسات بهذه الحجوم والمهمات يستنزف نسبة كبيرة من موازنة الدولة فقد خصص لهذه المؤسسات والمهمات السرية نسبة من ميزانية الدولة تساوي ثلاثة اضعاف ماخصص منها للمؤسسات الصحية والتعليمية في العراق .

يمكن صياغة هذه الفكرة بالمعادلة التالية

مايخصص لمؤسسات الموت في الميزانية العراقية هو ثلاثة اضعاف مايخصص لمؤسسات الحياة.

ولهذا اقترب العراقيون من حافة المجاعة بعد اسبوعين فقط من اعلان مجلس الامن قرار مقاطعة العراق وعدم تزويده بالاغذية .

ولايخضع صدام حسين قرار الموت الى حساب الارباح والخسائر ولعله القرار الوحيد الذي لايتوقف ولايتردد لحظة قبل اصداره ولا يراجع بعد تنفيذه نفسه او بشيء بان خطأ قد ارتكبه والموت للموالي والمعارض ولابن قريته ولابناء القرى الاخرى .

واذا كان صدام حسين معروفا بعدائه للديمقراطية فانه مع الموت ديمقراطي للغاية.

وامام الموت يتساوى العراقيون في الفرص ويتمتعون بعدالة التوزيع وتتشكل على خشبات الموت وحدة عربية كردية واصرة وطنية تتعالى على المذاهب والمبادىء.

ان الخط البياني لسيرورة الموت يتصاعد باستمرار ، ليس في حجمه وانما باجراءاته وطقوسه ايضا.

ففي المرحلة الاولى كان القتل يجري بكتمان وسرية وكان صدام يحرص اذا انتهى من تصفية احد رفاقه على شيئين هما اقامة مجالس العزاء وتعويض عائلة الضحية براتب كبير ترافقهما حملة اعلامية لاظهار الاسى والحزن على الفقيد واوضح مثال على هذه المرحلة تصفية احد اعضاء القيادة القطرية وهو عبدالوهاب كريم بعد تكليفه بمهمة اغتيال وزير خارجية الانقلاب الاول الدكتور ناصر الحاني وتصفية حماد شهاب وزير الدفاع من قبل ناظم كزار مدير الامن الاسبق .

وفي المرحلة الثانية التي بدأت باعدام ناظم كزار تحول صدام حسين الى

اسلوب القتل العلني عن طريق تشكيل محاكم حزبية خاصة دون ان يعاقب از يكافىء عائلته .

بينما صارت عائلة الضحية مسؤولة في المرحلة الثالثة امام القانون والجهاز الحزبي وصار القتيل مطلوبا للقاتل وعلى اهله ان يدفعوا الدية .

في هذه المرحلة ايضا قدم صدام فكرة مرعبة لتنفيذ احكام الموت ضد رفاقه اذ يدعى اقرباء المحكوم ، لتنفيذ الحكم به ران لم يجد احدا من اقربائه في المنظمة الحزبية المكلفة بالاعدام ، فعلى احد اعضاء منظمته المتقدمين اطلاق الرصاص على مسؤوله الحزبي المشدود الى خشبة الاعدام .

وبهذه الطريقة اعدم كل من اعضاء القيادة القطرية الخمسة والذين رفعهم في المؤتمر القطري الثامن واعدم معهم بنفس الطريقة خمسة عشر قياديا في الثامن من اب ١٩٧٩ .

صرنا امام حالة جديدة في التاريخ العربي يمكن ان اسميها القتل برصاص العشيرة وهنا اعود ثانية الى حديث اذاعي لتفسير القتل برصاص العشيرة .

ينقل من فرائد السلطان .

في المراحل التالية صارت قراءة سورة الفاتحة في مجلس عزاء القتيل فعلا جنائيا يعاقب عليه قارئو الفاتحة ..ان كلاما مثل هذا قد لايدخل الى عقول الناس بسهولة مما يدفعني الى الاشارة للقرار الصادر عن مجلس قيادة الثورة المؤرخ في ١٩٧٩/١٢/٨ والمرقم ٧٣٢١٢ والذي اعتمدته المديرية العامة لتربية محافظة كربلاء في فصل مدرسات بسبب زيارتهن لزميلة لهن في المدرسة نفسها وتعزيتها باعدام اثنين من ابنائها .

وستبدو هذه العقوبة عاديةامام عقوبات اخرى ستشمل مجلس العزاء المقام على ارواح الضحايا فقد اعدم مداول ناجي المحنة السفير العراقي في الاردن ومحمد حسين الشامي السفير في الامارات العربية وعلى الشعلان رئيس اتحاد الفلاحين لانهم حضروا في شهر نيسان من عام ١٩٨٠ مجلسا للعزاء ترحموا فيه على احد رفاقهم وكان الاخير قد اتهم بتقديم التعزية لصديقه اثناء زيارته له في الولايات المتحدة الامريكية . وعلى الشعلان كان الصديق الشخصي لصدام حسين فترة طويلة .

من هم رجال التعذيب في سجون العراق ؟

انهم ببساطة رجال المنظمة الحزبية !!

وهو امر طبيعي فليس معقولا ان تناط مهمة خاصة كهذه باشخاص غير حزبيين .

ومن هم رجال المنظمة وقد اصبحت المنظمة السرية دولة ؟

انهم اعضاء مجلس قيادة الثورة والوزراء والمحافظون والسفراء ورؤساء المؤسسات .

ضمن اى منطلق سيتصرف هؤلاء الرجال ؟

من منطلق المركز فى الدولة ام من العضوية فى المنظمة ؟

بديهى ان ايا منهم انما اخذ موقعه الرسمى وفقا لموقعه فى المنظمة وهى التى تحدد واجباتهم وترسم لهم خطوط سيرهم اليومى وهم مادامو اعضاء فيها فهم شركاء مخلصون فى اعمالها ومنها العمل فى هيئات التحقيق . فاذا تخلف احد منهم عن اداء واجبه الحزبى فقد موقعه فى الدولة ووضع فى غرفة التحقيق متهما لا محققا !!

ولهذا كان من تحصيل الحاصل ان يتوجه اعضاء مجلس قيادة الثورة والوزراء ورؤساء المؤسسات فى اوقات محددة الى اقبية التحقيق ليمارسوا مهامهم فى انتزاع الاعترافات من الموقوفين والتمتع بممارسة التعذيب ضدهم وكان قصر النهاية المعتقل السيء الصيت منتجعا ليليا لرجال السلطة يقضون فيه السهرة فتختلط متعة التعذيب بمتعة الاكل والشراب .

ان السفراء المعتمدين فى بغداد قد يتحدثون بسهولة وفى اى وقت من الليل مع وزير الخارجية على هاتف خاص لكنهم لايعرفون انه هاتف الوزير فى مكتبه بهيئة التحقيق .

ولكل وزير مكتب خاص فى قصر النهاية او فى مكان اخر من المعتقلات السرية.

لقد استدعيت فى صيف عام ١٩٧٨ الى هيئة التحقيق الاولى كمتهم محال من رئيس الجمهورية بسبب مقال نشر فى المجلة التى ارأس تحريرها وكانت بعنوان (انهض ايها القرمطى) وقد فوجئت ان رئيس هيئة التحقيق هو سمير عبدالوهاب الشيخلى امين العاصمة انذاك والذى كان وزيرا للتعليم العالى والبحث العلمى ثم وزيرا للداخلية حاليا وقد اتخذ مكتبه فى بيت شبه مهجور من بيوت حملة الزوية التى تقع فى الجهة الاخرى من النهر ويربطها الجسر المطل بالقصر الجمهورى .

وفى عام ١٩٨٠ زرت مدرسا كان يقدم دروسا خصوصية لولدى فى الفيزياء بمناسبة اطلاق سراحه من الاعتقال وكان قد اختفى عام ١٩٧٠ فجأة ولم يعثر على اثر له .

وعلمت من شقيقه انذاك ان الشرطة السرية القت عليه القبض وهو يصلى فى جامع (براثا) فى منتصف الطريق بين الكرخ والكاظمية فحدثنى عن يومياته فى

معتقل قصر النهاية الذى امضى فيه ثلاث سنوات وامضى السبع الباقية فى معتقل اخر ، قائلا (فى ليلة ١٢ رمضان عام ١٩٧٠ استدعانى عبدالكريم الشيخلى وزير الخارجية للمثول امامه فى هيئة التحقيق وقد وجدته لاول مرة وديا للغاية خلافا لتصرفاته معى فى ارقات سابقة وقد نهض من مكانه فتصورته سيجلس الى جانبى لكنه اخرج من ثلاجته قنينة ويسكى وصب كاسا وقدمه لى فشكرته على ذلك ، معتذرا .

قال اشرب .

قلت انا مسلم كما تعلم فاعذرنى .

قال وهل نحن كفار خذ واشرب

قلت ان الله يمنعنى عن ذلك

قال وانا امرك على ذلك

قلت معاذ الله ان اخالف امرا لله

قال اذا لم تشرب هذا فستشرب شيئا اخر .

لكننى اصررت على موقفى ، فنادى شخصا يدعى صبحى وكان هذا من قساة هيئة التحقيق ومن مساعدى ناظم كزار وقد اعدم معه فى عام ١٩٧٣ ـ فقال له خذه (وتبولوا) فى فمه فاخرجنى الى باحة السجن واجتمع اربعة اشخاص فتحوا فمى وانا ملقى على الارض وبالوا فيه فتقدم الوزير قائلا لى يبدو ان هذا هو شرابكم المفضل .

وكما يوزع الموت بعدالة على الناس يوزع صدام مهمات الاغتيال والتحقيق والمحاكمات الشكلية على جميع اعضاء القيادة بعدالة مشهودة له كى لايخرج احد منهم بثوب ابيض وباصابع نظيفة.

ان الامثلة التالية رغم طابعها المحلى وتكرار الاسماء المحلية فيها ستكون مفيدة سواء كمعلومات ام وثيقة تسجيلية لجانب غير معروف من تاريخ دولة المنظمة السرية فى العراق يتعلق باسلوب صدام فى توسيع بقع التلوث . وتوريط رفاقه فى المهمات غير النبيلة ومنها تظهر احدى وسائل صدام حسين فى تسخير البعثيين لقتل بعضهم الاخر بالطريقة التى يقتلون فيها الناس .

٩

من رجال المنظمة

شهادات : احمد حسن البكر

شفيق الكمالى

عبد الخالق السامرائى

عدنان الحمدانى

مرتضى الحديثى

محمد عايش

وليد الجنابى

احمد حسن البكر

عرف العراقيون اسم احمد حسن البكر لاول مرة عندما اعلن بيان صادر عن مجلس الانقلاب فى حركة ٨ شباط ١٩٦٣ تشكل مجلس وزراء برئاسة اللواء احمد حسن البكر .

وقبل ذلك لم يرد لهذا الاسم نشاط سياسى او عسكرى يتميز عن تلك التى ارتبط بها ضباط عراقيون .

فلا اظن ان عبدالكريم قاسم ومهما حاول ان يستحضر اسماء خصومه الذين سيخافونه كان سيضع اسم البكر واحدا منهم .

واغلب الظن أن حركة ٨ شباط لو فشلت وقدم احمد حسن البكر الى المحاكمة لافرج عنه فى الحال ، لان انطباعا عنه لايقنع احدا بانه سيقوم بدور خطير كالدور الذى قام به فى انقلاب ٨ شباط .

تخرج البكر المولود فى تكريت من المدرسة الابتدائية والتحق بمدرسة المعلمين الريفية وتخرج منها بعد عامين معلما فى احدى القرى وعندما قرر الملك فيصل الاول فتح صف فى الكلية العسكرية خاص بابناء العشائر من غير خريجى الدراسة الثانوية شرع مولود مخلص ، التكريتى الوليد المتنفذ آنذاك بتجميع عدد من ابناء تكريت والذهاب بهم الى الكلية العسكرية ليدخلوا فى صف ابناء العشائر الذى كان قد خصصه الملك فيصل اساسا لعشائر الفرات الاوسط والعشائر الجنوبية ضمن موازناته المعروفة .

وهكذا اصبح احمد حسن البكر وطاهر يحى التكريتى ورشيد مصلح التكريتى واخرين ضباطا فى الجيش العراقى لكن هؤلاء لم يبرزوا كعسكريين مقاتلين وانما عملوا فى وحدات الاعاشة والتموين والادارة .

وحين ذكرت لكم كلمة المتقدم قال (هم احسن) فقبلها على مضض .

البكر وصراع الاجنحة

لم يهضم البكر افكارا حزبية وسياسية كافية لجعله طرفا فى صراع داخلى ولانه فى جانب اخر لم يمض فى الحزب مدة تؤهله لخوض صراعات داخلية وقد يكون موقعه وهو طفرة كبرى وقياسية فى حياته جعله يتريث قبل الظهور فى النزاعات الحزبية التى رافقت مجىء الحزب الى السلطة عام ١٩٦٣ .

وقد يكون البكر من الذكاء بحيث استطاع ان يترك المدنيين فى القيادة القطرية منقسمين الى جناحين يسارى يقوده على صالح السعدى ويمينى يقوده طالب

حسين الشبيب وحازم جواد ، وهو يجلس على التل بانتظار النتائج التى انتهت بالخسارة المتعادلة !

خرج الفريقان من الحزب ليصبح البكر قائد الحزب الجديد !

وحين قامت ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ عين احمد حسن البكر عضوا فى احدى المحاكم العسكرية العادية ثم احيل على التقاعد مع ضباط اخرين تداول الوسط العراقى اسماءهم ولم يتداول اسم البكر .

البكر والبعث

انتمى احمد حسن البكر الى حزب البعث عام ١٩٦١ وهو يقول عن انتمائه ان (الويلاد) اى الاولاد ويقصد بهم البعثيين او ابناء تكريت فاتحوه بالانضمام لحزب البعث فسألهم هل تصلون وتصومون ؟

قالوا نعم ، فوافق فى الحال على ان يكون بعثيا .

لا اعتقد ان رجلا بسن البكر عاش فى بيئة محافظة .. وتجول فى وحدات الجيش يقتنع بالدخول الى منظمة سرية بهذه السهولة ،ان معدلات اعمار البعثيين فى ذلك الوقت كانت تتراوح بين ١٥ ـ ٣٠ عاما ، والعمل الحزبى يتطلب ديناميكية خاصة واستعدادا لمواجهة احتمالات قد لايكون رجل مثل البكر مستعدا لها .

اذا كانت نظرية الحزب غير واضحة امام الكثيرين من الناس ، ومنهم البكر ، فان اسم زعيم الحزب ومرشده الروحى كان يثير الاشمئزاز فى نفوس شرائح اجتماعية واسعة دينية وعسكرية ومحافظة ، والبكر من هذه الشرائح .

لكن البكر صار بعثيا .

،ولم تمر سوى اقل من سنتين حتى صار رئيسا لوزراء اول حكومة لحزب البعث فكان البعثى الوحيد الذى لم يعرف له تاريخ سياسى او حزبى قبل ظهوره رئيسا للوزراء !

لكن الرجل ـ انصافا ـ لم يلتزم بافكار الحزب فكان اذا ذكرت الاشتراكية قال (ماكو كلمة مناسبة غيرها) يعنى الا توجد كلمة اخرى غيرها .

عقدة الثلاثين

لكن عودة البكر الى الحزب بعد رسالة التوبة هذه ، دون صعوبات تنظيمية . شأنه شأن عفلق . لم تلغ شعورا فى العامة ظل يعانيه طيلة حياته الحزبية . خلافا لميشيل عفلق الذى لم تترك هزيمته امام حسنى الزعيم جرحا فى كبريائه .

كان البكر يعيش تحت وطأة « البراءة » وتحت عقدة اخرى لازمته حتى يومه

الاخير .

فقد كان تحالفه مع عبدالسلام عارف وطاهر يحيى فى انقلاب ١٨ تشرين ١٩٦٣ ضد حزب البعث قد ترك فى نفسه اثرا مماثلا .

ولعل صدام حسين كان يعرف نقطة الضعف هذه فاستطاع من خلالها ان يمرر على احمد حسن البكر قرارات خطيرة لم يكن البكر مستعدا للتورط بها لولا تلك العقدتان .. تشرين .. والبراءة ..

فى تصفية العسكريين المشكوك بهم كان صدام حسين يذكر بتحالفهم فى ١٨ تشرين !

وفى اخضاع البكر لقرارات المنظمة الحزبية وقبول صيغ لم يكن صدام حسين وهو الحزبى المحترف يرضخ لها وقد أصبح رئيسا كانت التوبة الحزبية امام البكر دائما .

الاول والثوب

لكن هذا لم يجعل من البكر شخصا لا حول له ولا قوة - كما هى صورته فى الذهن العام !

قد يكون البكر تجاوز نقطة ضعفه بنفسه عن طريق الالتزام الكامل بمشروع المنظمة الحزبية ولم يكن رئيسا رمزيا وشكليا كما يتصور الكثيرون !

انه حتى الساعات الاخيرة من حياته فى السلطة كان الوحيد القادر على دحرجة صدام حسين الى سرداب القصر الجمهورى . وسد فوهة السرداب الى مالانهاية وصدام حسين يعرف ذلك ويتحاشى الاصطدام به لكن توزيعا لقطاعات الدولة بينهما جعل صدام حيث يظهر وكأنه الرجل الذى لاتحد صلاحياته حدود .

لاشك انها مصلحة مشتركة بينهما .

فقد كان صدام حسين يحتاج الى رجل عسكرى فى سن البكر وتجربته وقد صار مرجعا للعسكريين غير الحزبيين .

وكان احمد حسن البكر يحتاج الى ديناميكية صدام حسين فى التنظيم السرى وقدرته على التآمر المستمر لتلبية حاجات المنظمة السرية .

تخلص صدام حسين بالبكر من عقدة الجيش .

وتخلص البكر بصدام من عقدة المنظمة .

من جانب اخر لم يتورط صدام حسين بما اعتاد رجال المنظة السرية الاخرون الذين يبدأون حديثهم فى المجالس الخاصة بتوجيه انتقادات للبكر اولغيره ، ولم يكن يسمح لاحد معه ان يضرب على هذا الوتر فيما يتعلق بالبكر وعلاقته به ويقول

هذا تيار صاعق !

ولصدام حسين عدد من « التيارات الصاعقة » التى سنمر عليها فى هذا الكتاب !

كان عبدالله سلوم السامرائى عضو القيادة القطرية ووزير الثقافة والاعلام يعتبر مساوىء صدام حسن جميعها صادرة عن موافقة احمد البكر او انها كانت تتم تحت مظلته . وكان يقول لى ان التخلص من احمد حسن البكر ينبغى ان يسبق التخلص من صدام حسين لان هذا الاخير سوف لايجد ظهيرا له فى السلطة .

اما حاشية البكر فى القصر الجمهورى فكانوا يجاهرون بانتقام صدام حسين فيستطون الواحد تلو الاخر !

البكر تحت المراقبة

لم يكن البكر يولى اهتماما بصعود صدام حسين ونشاطاته فى هذا الاتجاه ولم يفكر فى مراقبته او زرع النار فى مكتبه وهذا نابع من شعوره بالقوة فى كل وقت وهو شعور لايتمتع به صدام حسين الخائف من الجميع .. المتآمر على الجميع ..

من هنا يبدو متوقعا ان يكلف صدام حسين اتباعه المزروعين فى مواقع حساسه من الدولة بمراقبة البكر ! لكن هذه المراقبة لاتستهدف نشاط الرئيس ! بل نشاط زواره وطبيعة الزيارة وكان يتمنى لو تمكن من ترشيح مساعد البكر فى القصر الجمهورى بنفسه وهو حلم بالغ الصعوبة ! فما عليه اذن سوى ان يكسب رئيس الديوان الجمهورى .. الضابط الذى كان من مرافقى البكر .. طارق حمد العبدالله ! ولعل هذا المسكين قد ادى دورا ما لصدام حسين !

زرت الرئيس احمد حسن البكر فى اعقاب مذكرة قدمتها اليه حول ضرورة اعادة تشكيل المجمع اللغوى العراقى وارضاع الادباء والمؤرخين الكبار فى ظل حكم الحزب .

فى صباح اليوم التالى اتصل بى صباح مرزا سكرتير صدام حسين قائلا .. امورك ماشية مع « الشايب » وهذا هو اللقب الذى يشار فيه الى البكر فأجبته دون انتظار .. الم تقدم للسيد النائب (لقب صدام حسين السابق) مذكرتى للسيد الرئيس حول المجمع العلمى ؟ وقد ارسلت نسخة لسيادته فى نفس اليوم .

قال ضاحكا .. وامورك الاخرى ؟

قلت : ستجد فى بريدكم هذا الصباح خبرا مفرحا بالنسبة لى وسأشير اليه فى « مجلة الف باء » حول رعاية الرئيس لشيوخ الادب واللغة .

معنى هذا الحوار ان طارق حمد العبدالله رئيس الديوان الجمهورى نقل فى الحال الى مكتب صدام خبرا عن زيارة شخص غير مهم مثلى للرئيس البكر واسباب الزيارة فكيف الحال مع من يحتلون مواقع عليا فى قيادة الجيش والحزب والسلطة ؟

هذا مايفسر ايضا لماذا تمسك صدام حسين بعد تسلمه الرئاسة برئيس الديوان وترقيته وتعيينه وزيرا قبل ان يرسل مسلحاً بكاتم الصوت الى غرفة منامه!

لقد خرج الزائر الذى دخل الى البيت مبعوثا من السيد الرئيس صدام حسين وقد انجز المهمة وهو يبلغ عائلة الوزير الضحية « انه قرار . لكننا سنقدم سببا اخر للوفاة .. بالسكتة القلبية لكى لا تفقد العائلة حقوقها ؛ وان تشييعا رسميا سيجرى له !»

واذا ما اتيحت فرصة قادمة .. فسيكشف تشريح الجثة كيف قتل طارق حمد العبدالله الذى كان من محبى الرئيس البكر والمكلف بمراقبته حتى النهاية .

رؤيتى الشخصية

عراقيون كثيرون يعتقدون ان البكر من السوء بحيث لاينبغى الدفاع عن قطعة منه او مرحلة فى حياته .

فهو تكريتى متعصب وعسكرى فاشل ورئيس لم يرفض دعوة للتصديق على احكام الموت ضد مواطنيه ولم يكن صدام حسين ليكون شيئا مهما لولا غطاء البكر .. والبكر يمثل شيعة الغادرين فقد وافق على اعدام صديقه وابن مدينته ورفيقه فى الجيش رشيد مصلح التكريتى بتهمة التجسس!

ووافق او سكت عن اغتيال حردان التكريتى الذى كان ذراع البكر الايمن .

وصادق على قرار اعدام صديقه القديم اللواء مدحت الحاج سريان والذى اختفى الحزب وراء شقيقه الذى اعدم عام ١٩٥٩ لقيادته تمردا عسكريا على السلطة .. هذا صحيح .

لكن البكر كان نزيها !

كان البكر ابن المؤسسة العسكرية .

والبكر شديد الصلة بجذره الفلاحى .

وقد اتحمل مسؤولية الزعم بانه مات ولم يعرف طريق التحويل الخارجى !

وكان متواضعا فى ماكله وملبسه ولم يستعر وقد امضى اكثر من عشر سنوات فى رئاسة الجمهورية اى ملقس من ملقوس الحكام ولم يحاول الانتقال الى طبقة اخرى .

لكنه كان يحب السلطة وهنا تبدو اعظم مساوئه . وكضابط عراقى كان مهتما

بقضية فلسطين بدرجة اكبر من اهتمامات حزبه .

وكان شديد الحساسية من كلمات الثناء التى تكال اليه .

اما ثقافته فكانت تقليدية تنحصر بالاطلاع على كتب السير فى تاريخ العرب ، ولهذا كان معجبا بعباس محمود العقاد وبنت الشاطىء .

ولا اظن انه اطلع على شيء من الكتابات الايديولوجية والثورية .

وكان حريصا على حماية الشعر العمودى فقد اوصى اكثر من مرة وزير الثقافة والاعلام او مدير الاذاعة والتليفزيون بعدم تشجيع الشعر الحر وقد هزته قصيدة عمودية القاها نزار قبانى فى مهرجان الشعر العربى السادس وفى دعوة عشاء فى القصر الجمهورى لالقاء المهرجان تقدم الرئيس البكر الى نزار قبانى وكنت الى جانبه قائلا

« انت خوش شاعر ، او تترك هذى المكسرات !»

فشكره نزار ولم يكن يعرف ان المكسرات تعنى المرتبات باللهجة العراقية .

الموقف من حزب الاستقلال

وكنت قد قدمت مذكرة للرئيس البكر اقترحت فيها خدمة للحرف العربى ارسال مطبعة حديثةالى جريدة العلم المغربية الناطقة بلسان حزب الاستقلال اذ تعانى من سوء الطباعة والاخراج على عكس الجريدة الناطقة بالفرنسية فاستدعانى الرئيس البكر قائلا

لا اوافق ! لان زعيم حزب الاستقلال المغربى محمد بوسته متورط فى عملية الاعتراف باسرائيل وقد زارنى قبل يومين وعرض على التعاون مع الرئيس المصرى انور السادات . قائلا اخوكم السادات لاتتركوه وحده .

قلت الحديث للرئيس البكر ،هل تعبر عن وجهة نظرك كوزير للخارجية ام كزعيم لحزب الاستقلال.

قال بوسته عن كليهما .

وهنا استفسرت من الرئيس ان كان يسمح لنا بنقل شيء من هذا الحديث الى المجلة فوافق ونشرنا على غلاف المجلة مايشير الى حديث الرئيس مع زعيم حزب الاستقلال.

فواجع عائلية

تعرض الرئيس البكر الى اكثر من فجيعة بفقدان زوجته ومقتل ولده حمد فى حادث سيارة مدبر ومعه زوجته وشقيقاتها ومقتل زوج ابنته فى حادث سيارة مدبر

اخر .

كان البكر بين أمرين !

فاما ان تكون الحوادث طبيعية ومعنى هذا ان الله سبحانه وتعالى كان يعاقبه على ماصدر منه واما ان تكون الحوادث مدبرة من قبل صدام حسين .

وعلى اية حال فقد عاش البكر ايامه الاخيرة فى وضع نفسى صعب .

وعندما قتل نجله الاوسط محمد نشرت مقالا عن فجيعة الاباء . والذى يبدو ان المقال اثار الرئيس البكر فاستدعانى الى مكتبه وقدمت له التعزية بوفاة نجله فسألنى هل سبق لى ان التقيت بابنه او اعرف عنه شيئا ولما أجبت بالنفى .

قال انه يريد منى ان اكتب نيابة عن رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية بيانا صحفيا حول اربعينية الفقيد وقدم لى ورقة رسالة زرقاء مخططة ومكتوبة بالحبر الاخضر قائلا .. هذه رسالة لى من المرحوم محمد ، اقرأها حتى يتكون عندك تصور عنه !

يقول محمد لوالده ..

« انك ستواجه ربك غدا ، فماذا ستقول له ؟ ومن سيقف معك امام الله ؟

عزة الدورى ام طه الجزراوى ام صدام ؟

ويرجو محمد من والده بان يعود الى ربه ويسارع للتوبة وطلب المغفرة ويهاجم صدام حسين هجوما عنيفا ويختتم الرسالة بوصية يرجو فيها من والده تعمير ضريح لاحد شيوخ الطريقة الرفاعية على الطريق بين تكريت وبغداد وقد اصبحت المقبرة الملحقة به نهبا للكلاب والذئاب ».

واعدت الرسالة الى الرئيس البكر وقد كبر ابنه القتيل فى عينى فكتب البيان المطلوب فى مكتب رئيس الديوان الذى يبثه حال الى وكالة الانباء العراقية لتوزيعه على الصحف .

اللقاء الاخير

وفى اوائل تموز ١٩٧٩ اى قبل اسبوعين من تنحية البكر عن رئاسة الجمهورية زرته فى مكتبه لمناقشة مذكرة حول قادةالجيش المتقاعدين وظروف حياتهم كما عرفتها من اللواء طاهر الزبيدى قائد القوات العراقية فى حرب فلسطين ١٩٤٨ .

وقد لاحظت يديه ترتجفان وهو يستل ملفا من رفوف الخزانة فقلت له .. لماذا لايتمتع السيد الرئيس باجازة يقضيها فى الريف بعيدا عن مشكلات العمل ؟

فاعتدل فى قامته واستنكر ذلك قائلا

اخاف يمالع لنا ناظم كزار اخر .

يشير في ذلك الى سفرته الوحيدة خارج العراق وقد واجه تمرد مدير الامن العام وهو ماسبق وان اشرنا اليه في هذا الكتاب .

وعاد الرئيس ..ان راحتي الصحيحة هي ان ارى كل شيء على مايرام !

قلت له حفظك الله قيمة للجميع .

وبعد فترة صمت قال الرئيس

صحيح اننا صرنا مطاردين لله .

ان ذلك اللقاء لم يقدم لي صورة كاملة عن نوايا الرئيس للانسحاب من العمل السياسي سوى العبارة الاخيرة فماذا حدث وقد اعلن بعد عشرة ايام على هذا اللقاء عن استقالة البكر وانتقال السلطة الى صدام حسين .

لقد منح الرئيس البكر لقب الاب القائد بعد تركه المسؤولية .

لكن صدام حسين لم يكن الابن البار لاحمد حسن البكر كما كان الابن البار لميشيل عفلق فقد ضرب حوله حصارا شديدا ومنع اصدقاءه من زيارته حتى توفي بعد ساعين وقد قبل ان نقيب الاطباء زرقه حقنة ضاعفت من نسبة السكر في الدم فعين الطبيب وزيرا للصحة ثم ابعد عن الوزارة بقرار توبيخ صادر عن صدام حسين .

شفيق الكمالي

. عرفته اول مرة عام ١٩٤٨ طالبا في ثانوية الكرخ ببغداد التي كنت قد دخلتها توا ، وهو يلقي قصيدة في حشد من طلاب المدرسة قبل ان يتوجهوا للاشتراك بمظاهرات شعبية ضد معاهدة عراقية بريطانية كانت ستعقد انذاك بديلا لمعاهدة ١٩٣٠ .

وحين توفيت بعد اكثر من عامين الملكة عالية والدة فيصل الثاني واقيم حفل تأبيني في المدرسة رفض الكمالي المشاركة فيه .

لكن اعلانا على لوحة المدرسة كان يقضي بفصل عدد من الطلاب من بينهم الكمالي بتهمة احتساء البيرة على ساحل المدرسة المطل على دجلة ولا ادري ان كانت التهمة صحيحة ام مدبرة ، كما لا اعرف كيف عاد الكمالي الى المدرسة وانهى دراسته ودخل كلية الاداب ببغداد ، حيث دخلتها بعد اربع سنوات .

وكان اسم الكمالي يتردد في الوسط الطلابي والى حد في الصحافة الادبية ومجلة الاداب البيروتية وكانت صحيفة محلية قد ذكرت بأن الشرطة السرية عثرت على وكر طباعي وان القبض قد القي على شفيق الكمالي الذي اخلت سبيله المحكمة .

والكمالى الذى ينتسب الى مسقط رأسه فى مدينة البوكمال على الحدود العراقيةالسورية ، حافظ على علاقات طيبة مع اطراف الحركة الوطنية .

لكنه وهو يؤسس او ل تجمعات طلابية لحزب البعث اوائل الخمسينات لم يتكيف للحياة فى المنظمة السرية ولم يخضع لسايكولوجية المنظمة مما جعل قرار صعوده الى القيادة الفكرية يأتى متأخرا .

ساهم الكمالى فى سلطة الحزب الاولى والثانية بمواقع قيادية ولم يسجل عليه او له نشاط فى اقبية التعذيب ، بل كان على العكس داعيا من دعاة التفاهم وساعيا الى اخراج المعتقلين من السجون قبل ان تصبح محاولة الشفاعة كهذه خروجا على تعاليم حزبية يعاقب عليها مرتكبوها بالطرد من الحزب اوالسجن الى جانب الموقوف الذى يسعى الشفيع الى اطلاق سراحه .

ان عدم مساهمة الكمالى فى نشاطات التحقيق وسعيه الى انتهاج سياسةالتحالف مع الوطنيين العراقيين والقوميين العرب اضعف كثيرا من موقعه فى الحزب .

ويسجل عليه صدام حسين بالاضافة الى هذا انه انتدب مبعوثا من الحزب لحضور مؤتمر قومى مع زميله عبدالله سلوم السامرائى قبل وصول الحزب الى السلطة لكنه لم ينقل الى المؤتمر وصية بترقية صدام حسين الى عضو قيادة قومية .

ولم يكن ذلك سيسر على ذاكرة صدام حسين الذى اصبح الرجل الثانى فى السلطة وكان متوقعا للكمالى والسامرائى ان يكونا من اوائل الضحايا .

عين الكمالى وزيرا فى الحكومة التى شكلها الحزب بعد ٣٠ تموز ١٩٦٨ وابعد سفيرا وايعيد وزيرا .. وطرد مرة اخرى ، لكنه اصبح رئيسا لاتحاد الادباء العرب قبل ان يطرده صدام حسين ويعين مكانه بعثيا يدعى حميد سعيد .. رأيت الكمالى ١٩٧٦ فى مكتب الشيخ جابر العلى وزير الاعلام الكويتى انذاك فخلوت به جانبا وقال :متى تكون للعراق العزيق مؤسسات ونظام عمل كالذى استحدثه الكويتيون الناشئون فى السلطة فأجبته : سيحدث ذلك اذا تنحى حزبنا عن السلطة .

وفى بغداد وفى فترة ابعاده عن مسؤولياته الرسمية والحزبية اتخذ الكمالى طاولة له فى زاوية من غرفة بجريدة الجمهورية يشترك فيها معه صحفيون اخرون..

وعندما انفرد صدام حسين بقيادةالحزب والسلطة فى تموز ١٩٧٩ كان شفيق الكمالى يتوقع ان يتصدر اسمه لائحة المبعوثين الواحد والعشرين من رفاقه الى ساحة الاعدام .

ولما لم يكن اسمه من بينهم اخذ يتصرف بهاجس من يعتقد ان قرارا باعدامه

سيصدر بين لحظة واخرى وعليه ان يحول دون ذلك مستخدما اداته الشعرية فظهر امام الرأى العام العراقى غجريا يحمل ربابته عند مضيف الشيخ وقد قال كلاما فى صدام حسين لم يصدر عن حاملى الربابة الغجرية وكانت قصائده التى يحملها بنفسه الى محطات الاذاعة راجيا تلحينها وتقديمها للمستمعين تخرج من اطار المسؤولية المشتركة والعمل المشترك فى حزب واحد .

ان انهيار صورة الكمالى كانت ترضى مشاعر التشفى فى قلب صدام حسين .

لكن ذلك لم يكن يكفيه ، وكان على الاجهزة المختصة ان تعد له سيناريو لعملية يوضع الكمالى طرفا فيها .

لقد اعتقلوا نجله الاكبر (يعرب) .. واعتقل الوالد الذى اتهم بمحاولة تهريبه خارج العراق .. وقتل الابن .. هكذا نعلم واخرج الكمالى من السجن ليموت فجأة ولم يكن يشكو من مرض .

لقد انتهت حياة صديقى فى الاربعينات الذى هيأنى نفسيا لان اكون احد اتباع الحزب .

مات شفيق الكمالى احد صانعى المنظمة السرية لانه لم يستطع ان يلبى حاجاته السرية .

عبدالخالق السامرائى

يكنى (ابودحام) وليس له دحام . فلم يتزوج ولا علاقة للصيغة الصوتية باجراء مقابلة متصورة مع كلمة صدام ! رغم انهما اتفقا فى وقت مبكر من انشقاق الحزب على العمل فى جناح واحد . هو جناح ميشيل عفلق .. وهنا المفارقة !

فالمعروف عن عبدالخالق انه يريد للحزب ان يكون دارا للفقراء وخيمة ثورية للعرب لكن املا كهذا هل يتحقق فى منظمة يقودها ميشيل عفلق وشبلى العيسمى والياس فرح .. ثم احمد حسن البكر وصدام حسين؟

اى ان عبدالخالق وضع قدمه فى الفراغ وهو يخطو الخطوة الاولى .

فاذا سألته ـ كما تساءلت مع نفسى ـ لماذا انت فى هذا الحزب ؟

قال : ان الاصلاح الصحيح يتم من داخل المنظمة لا من خارجها .

واذا قلت له : ان محاولات سابقة اخفقت وبقى ميشيل عفلق وان السوريين اصلحوا الحزب من الداخل فلماذا جنحت الى شاطىء عفلق ؟

قال : ان محاولة الاصلاح ستنجح وميشيل عفلق على رأس الحزب عن طريق الالتزام بالشرعية وبدستور الحزب ونظامه الداخلى .

ربما لهذا السبب سمى درويش الحزب او لان نمط حياته الخاصة يوحى

بالدروشة .. لباسه البسيط نفسه يوم كان موظفا صحيا او معلما فى محافظة ديالى داره التى لم يفارقها وقد صار عضوا فى مجلس قيادة الثورة عفافه كفافه وترفعه عن الدنايا .

لكنه لم يكن حماما !

انه فى الوقت المناسب مقاتل ومقتحم .. وقد يكون اختار او اختاروا له كنية ابودحام لانه يدحم .. اى يهجم .

قاد فى عام ١٩٦٥ مجموعة مسلحة وانطلق ضد الذى تبدو حركته اثقل من حركة جدته كالسهم يصلى ببندقية رشاشة ضابط امن فى جهاز الرئيس عبدالسلام عارف كان معنيا بايذاء البعثيين فارداه قتيلا على باب داره .

لكنه ظل رجل الحوار السلمى مع الوطنيين العراقيين ومع القوميين العرب واختير نائبا لرئيس الجبهة المساندة للثورة الفلسطينية التى يتزعمها كمال جنبلاط فى لبنان .

كما بقى يدور فى نشاطه بعد استلام السلطة عام ١٩٦٨ على محور الثقافة رافضا باصرار ان يحمل حقيبة وزارية متفرغا لشؤون التنظيم الثقافى كما كان صدام حسين متفرغا لشؤون مكتب العلاقات الخاص بالاغتيالات فجمع الاول حوله مثقفين وشعراء .. ورجال سياسة ونال ثقتهم . وجمع الثانى حوله القادرين على النهوض باعمال الاستجواب والتحقيق واستخدام حوض الاسيد .

وفى الفترة التى كان عبدالخالق مسؤولا عن شؤون الثقافة والاعلام ، شهدت صحافة التمويل والتبشير اعمق ازماتها ، فلم يوزع على احد منها شيئا ، ورفض مشروع استئجار الكتاب والمثقفين ، لكن جيوبا عربية فى القيادة القومية للحزب كانت قد اقامت لها اكثر من قناة مع اكثر من صحفى عربى .

يحمل اكثر من صحن وتقاسموا بينهم مافى الصحون !

وكان عبدالخالق السامرائى يسيطر على وزارة الاعلام بصفته هذه . ومن خلال وزيرها عبدالله سلوم السامرائى . وعبدالخالق لايفكر بتجاوز اعراف درجت عليها مدن صغيرة كمدينته ونواح كتكريت وقرى كالدور التى ينتسب اليها عزة الدورى وعانة التى ينتسب اليها عزة مصطفى وكحديثة التى ينتسب اليها مرتضى الحديثى . فى اولوية الولاء للجغرافيا الصغيرة .. مدينته او قريته .. وافضلية ابنائها على غيرهم فى الفرص المتاحة . فجمع عبدالخالق السامرائى عددا من ابناء مدينته على ان يكونوا بعثيين وزرع بهم اجهزة الثقافة والاعلام بينما لم يلتزم غيره بهذا الشرط حين زرعوا مؤسسات الدولة بالمنحدرين من مدنهم وقراهم سواء كانوا

بعثيين ام معادين للبعث !

ولم يكن عبدالخالق سيدافع عن سامرائى اخر مهما علت منزلته اذا كانت الدلائل تشير الى تورطه بعمل مشين . وهذا جانب اخر ينفرد به عبدالخالق السامرائى عن سواه من اصحاب الولاء للجغرافيا الصغيرة مما سهل على صدام حسين وهو فى طريقه الى محاصرة عبدالخالق طرد عبدالله سلوم السامرائى اولا للانفراد به . بعد ان قدم لعبدالخالق ولاعضاء القيادة تقريرا موثقا « بالشهود » والصور حول ميول عبدالله سلوم النسائية او تورطه فى مشكلات من هذا النمط ، وكان هذا الاخير يكرر امامى فى زياراتى له بعد طرده من قيادة الحزب والدولة ان المقصود والمستهدف هو هذا المغفل - يعنى عبدالخالق - وليس انا !

اما صدام حسين فكان يراقب عبدالخالق ويتابع نشاطه ، فاذا عاد من حوار مع حزب وطنى وعرض على القيادة القطرية حيث صدام يستمع وجهات نظر اشخاص فى قيادة ذلك الحزب حول تحفظهم على التحالف مع الحزب الحاكم فوجىء عبدالخالق فى اليوم التالى باغتيال الشخص او الاشخاص اياهم !

لكن اطراف الحوار لم تشك بنوايا عبدالخالق ولم تتجه نحوه اصابع الاتهام وردود فعل لم تظهر عليه ازاء عدوانية صدام بانتظار مايعقده يوم الحساب فى المؤتمر القطرى القادم !! ولم يكن يخطط الى المؤتمر بالطريقة التى عاد يخطط بها صدام ! .. ان الفرق بين طريقة كل منها كان كبيرا .

ففيما كان عبدالخالق ينتظر الوصول الى موعد غير محدد بعد ليدخل المؤتمر القطرى كان صدام حسين يخطط لان لاينعقد المؤتمر وعبدالخالق فى قيادة الحزب!

واذا كان عبدالخالق يمتلك الشرعية الحزبية وشاعر البعثيين ويحظى باحترام الاطراف الوطنية . فان صدام حسين كان قد انتهى من بناء منظمتة السرية داخل الحزب . واصبحت قادرة على ان تضرب فى كل مكان وعلى كل رأس بايماءة صغيرة منه .

فى ذلك الوقت من عام ١٩٧٣ كان عبدالخالق السامرائى مازال منشغولا بمشروعه الفكرى لاعادة النظر بفكر الحزب وهو ماكان سيطرحه فى المؤتمر المنتظر وكانت لقاءاتنا قد تكثفت . فاصدر كراسا بعنوان « حزب الطبقة العاملة » لتكريس نظريته بجعل البعث حزبا للفقراء . وقد ذهب الى ابعد مما كان عليه ان يذهب اليه ودعا لان تكون قيادة الحزب القطرية عمالية ! واشار الى ان حزبا لايقوده العمال سيظل مرهونا لطبقة غير طبقة الشعب الكبرى .

ولم اكن رغم حماسى لفكرة حزب الفقراء اتفق مع مطروحات السامرائى والتى

بدت امامي استنساخا للاوراق الماركسية وكانت نسخ الكراس توزع على الجهاز الحزبي ومنها نسخة للرئيس احمد حسن البكر كان قد اطلع عليها الدكتور احمد عبدالستار الجواري الوزير والشخصية المقربة الى احمد حسن البكر الذي تجمعني به صداقة واصرة روحية وكان شديد الاستياء مما جاء في الكراس من افكار ولعله اشار الى ان الرئيس البكر كان هو الاخر مستاء . فسألني عما اذا كان من المناسب الرد على الكراس في مقال او دراسة فاجبته باننى ناقشت هذه الفكرة مع عبدالخالق نفسه وانه يسعى الى شيء مماثل .

وهكذا صدرت لي دراسة على صفحتين من الملحق الاسبوعي لجريدة الجمهورية البغدادية في العدد الصادر يوم ٢٠ حزيران ١٩٧٣ حول مشروع السامرائي ودعوت الى اصدار « فتوى ايديولوجية » من قيادة الحزب يحتكم اليها اتباع الحزب واشرت الى مستجداته ومدى انسجامها مع القاعدة الفكرية للحزب بعد ان عرضت مسودة المقال على عبدالخالق السامرائي قبل ٤٨ ساعة على نشره وقد اجرى تعديلا بخطه على فقرات منه ولم نتفق على اجراء تعديلات اضافية لكي لايظهر المقال ، وكأنه صادر عن عبدالخالق نفسه وكنت اراعي موقفي الفكري من جانب وامامي اعتراضات الدكتور احمد عبدالستار الجواري ولعل هذا وذاك جعل المقال موضوعيا ! ولم اكن اتوقع وانا احمل نسختي من الجريدة قبل توزيعها في صباح اليوم التالي ان يشهد ذلك اليوم حدثا دراميا كان يخطط له صدام حسين منذ وقت غير قصير فيعلن بيان لمجلس قيادة الثورة عن « مؤامرة » يقودها مدير الامن العام ذراع صدام حسين الضارب ناظم كزار وزميله الاخر محمد فاضل عضو القيادة القطرية ومبعوث صدام الشخصي في مهمات التصفية الجسدية وان يوضع اسم عبدالخالق السامرائي معهما في المؤامرة اياها ويحكم عليه بالاعدام فيصعد سلم المشنقة الخشبية في سجن (ابوغريب) ويدعوه احد رفاقه المشرفين على تنفيذ الحكم بان يعترف او يقدم التماسا بالعفو عنه لكي تتوقف لحظات الاعدام لكنه يرفض غير مذهول من تلك التي كانت ستكون النهاية ويوعز المشرف الى منفذي العملية بالتوقف واعادة عبدالخالق السامرائي الى السجن المؤبد في زنزانة تحت الارض لم يكن يعرف فيها ان كان الوقت نهارا ام ليلا !

لم يعدم عبدالخالق السامرائي بعد موجة احتجاجات تزعمها كمال جنبلاط وقادة في الثورة الفلسطينية وزعماء احزاب في الاقطار العربية وقد قيل ان احمد حسن البكر لم يكن قد صادق على مرسوم تنفيذ الحكم وان صدام حسين ارسل رفيقه الى ساحة الاعدام امعانا في ايذائه او الحصول منه على تنازل .

وفي اليوم التالي استدعيت للاستجواب عن علاقتي بعبدالخالق وسبب نشر

المقال الموسع عنه في اليوم الذي كان يعد فيه السامرائي لتنفيذ « مؤامرته » !

ولم اجد صعوبة في الرد فقد اخبرت المستجوب بأن المقال كتب بالاتفاق مع الدكتور الجواري وبرغبة الرئيس احمد حسن البكر وموافقة عبدالخالق الذي كان في ذلك الساعة عضو القيادتين القومية والقطرية .

وبسجن عبدالخالق اصبح الطريق امام صدام حسين سالكا للسيطرة على مكتب الثقافة والاعلام ، واهمية هذا المركز ليس لانه يمنح صدام حسين بعدا ثقافيا فحسب بل لانه المؤسسة التي يستطيع صدام حسين من خلالها ان يكثف من نشاط مكتب العلاقات الذي صار يسمى المخابرات العامة ومن خلال المراكز الثقافية ومكاتب الصحف والمجلات وبجهود الصحفيين العرب الذين اقاموا ستارا ممتازا يحجب عن الرأي العام العربي والعالمي مشاهد القمع في الداخل ويقدم بدلا من ذلك صورة الفروسية العربية الاولى . في الوقت الذي كان المسؤول الثقافي للحزب عبدالخالق السامرائي يقبع في زنزانته لم يكن وقد سأل امه التي سمح لها برؤيته بعد ثلاث سنوات يعرف في اي شهر وفي اي عام هو ؟

وقد انجز صدام حسين الكثير من الخطوات فعقد المؤتمر القطري المنتظر كما اراده واختيرت قيادة من بين هؤلاء الذين شاركوا صدام في ازاحة عبدالخالق السامرائي وكنت قد سألت احدهم عن اسباب ماحدث لعبدالخالق فقال وهو يسجل نقاطه وماخذه عليه انه كان يتناول مع سائقه ساندويج الكباب في السيارة ويحرج القيادة باصراره على السكن في بيت لايليق بعضو في مجلس قيادة الثورة !

وعندما سألته عن اي عيب في هذا ؟ قال عضو القيادة القطرية ان قادة الاحزاب الشيوعية يعيشون في قصور ضخمة . فلماذا يستكثر عبدالخالق على السيد النائب (صدام حسين) ان تكون له حياة لائقة به .

ومضت ثلاث سنوات اخرى وعبدالخالق مازال في زنزانته وقد عرض في شريط فيديو قدم لصدام حسين وهو يستمع الى اعترافات احد اعضاء القيادة القطرية الجديدة عن مؤامرة جديدة على صدام حسين يقودها الرئيس حافظ الاسد وعدنان الحمداني ومحمد عايش وعبدالخالق السامرائي !

وهنا ينهض علي حسن المجيد ابن عم صدام حسين وحاكم الكويت حاليا ليقول ان الحزب وقيادته وسلطتنا لن يكتب لها الاستقرار والاستمرار مادام عبدالخالق حيا يرزق .. فيمد صدام اصبعه الى شعرة شاربه ويقول اخذه من هذا الشارب !

في ذلك الوقت كانت قاة من الحراس تدخل زنزانة عبدالخالق ومعها بدلة الاعدام الحمراء في الطريق الى ساحة مجاورة للقصر الجمهوري حيث نفذ فيه حكم الاعدام رميا بالرصاص يوم ١٩٧٩/٨/٨ وكان اثنان من اقربائه ينفذان

اطلاق الرصاص عليه حسب قرار اتخذه صدام حسين والقيادة القطرية بتكليف اقرباء المحكوم بتنفيذ الحكم فظهرت تجربة جديدة هي التي ندعوها .. القتل برصاص العشيرة !

والمفارقة الاخيرة ان الاعضاء الخمسة الجدد في القيادة القطرية التي شاركت صدام في ابعاد عبدالخالق ومن ضمنهم صديقي الذي كان ينتقد عبدالخالق السامرائي . هذا الذي ياكل الكباب مع السائق . قد اعدموا معه في ساحة واحدة وساعة واحدة !

اما صدام حسين فكان عند وعده الذي اعطاه لابن عمه في الاجتماع الحزبي . لقد اعدم عضو القيادتين القومية والقطرية بشعرة الشارب !!

عدنان الحمداني

ولد عدنان في السنة التي ذهبت فيها الى المدرسة الابتدائية وسيبقى الفرق في العمر سببا في الكثير من المناسبات الحسنة والمناسبات السيئة في حياته ونحن نرتبط بوشيجة قربى متينة فوالدي خاله ووالده خالي وامي عمته وامه عمتي .: ثم اصبح خال اولادي .

لكن هذه القرابة لاينبغي ان تفهم على انها سبب لوحدة اجماعية اونفسية .. او حتى عائلية . فقد كان مابيننا من فروق يجعل كل واحد منا وكأنه قادم من عشيرة اخرى وبلادا اخرى وطبقة اخرى !

وكان اشقاؤه الثلاثة الكبار وهو الاصغر سنا في عائلته قد انسحقوا تحت الوطأة البرجوازية فاقاموا لهم برجا خاصا وطقوسا خاصة غريبة فهم لايزورون احدا من اقربائهم ولايتحدثون بلهجة اهل لاسيما وقد ارسلوا لدراسة الهندسة في بريطانيا فاضاف ذلك بعدا اخر على بعدهم عن اهلهم .

اما عدنان فقد ارسله والده الى ثانوية في بغداد خاضعة لبرامج التعليم الامريكية وقد انفردت به بعد سفر اشقائه الثلاثة الى خارج العراق فكنت احرضه على ترك تلك المدرسة المعقدة التقاليد الملعونة في معايير الوطنيين العراقيين فتمرد على والده مما اضطره الى نقله الى مدرسة حكومية قريبة من بيتهم في الكرارة الشرقية ببغداد .

تلك كانت الخطوة الاولى والمهمة التي اتاحت لي اصطحابه معي الى المكتبات القديمة والتجوال في سوق الكتب والاطلاع على الصحف اليومية وزيارة اعمامه واخواله خلافا لرغبة اشقائه الذين عادوا الى العراق في عام ١٩٥٧ فذعروا لان شخصية شقيقهم الاصغر اخذت منحى اخر فهو يحب الشعر وهم يستنكفون منه!

وهو يزور بيوت اخواله وخالاته واعمامه وعماته وهم منقطعون عن اية وشيجة لهم فبدأوا من جديد لاعادة تاهيله ونجحوا الى حد لكن ثورة ١٩٥٨ وماتبعها من تطورات افسحت لعدنان في المجال لينتمي الى حيث انتمى وبسرعة قياسية اخذ يصعد درجات تنظيمية لم يكن مؤهلا لها فاتصل بعد دخوله الى كلية الحقوق بعدد من المعجبين بعبد الناصر وجمد من الحزب لخروجه على تعاليم ميشيل عفلق عام ١٩٦١ .

لكن اعيد الى التنظيم في الايام الاولى من انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ واستلام الحزب للسلطة وكان قد تخرج من « الحقوق » فارسلته المنظمة للاشراف على التحقيق مع المعتقلين السياسيين في دار قريبة من دارهم في الكرات الشرقية .

ثم عين مديرا لناحية المدائن حيث مرقد الصحابي سلمان الفارسي ولم تمض سوى اربعة اشهر حتى حدث انقلاب عبدالسلام عارف على حزب البعث وفصل عدنان من وظيفته وانقطع عن الحزب ثم عاد اليه بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٥٨ وبجهود شقيق زوجته الموصلية الذي كان عضوا في المكتب العسكري للحزب والذي قتل في حادث طائرة مدبر .

وكامتحان ومقدمة لتصعيده ارسل عدنان الحمداني عضوا في القيادة القطرية المؤقتة التي شكلت في الاردن داخل معسكرات الجيش العراقي المرابط هناك .. وعاد الى بغداد بعد مجازر ايلول وصار من المقربين الى صدام حسين وانتقل بسرعة من موقع حزبي ورسمي الى اخر حتى وصل الى عضو قيادة قطرية ووزير للتخطيط والمسؤول الاول عن تسويق النفط العراقي والرجل الثاني بعد صدام حسين في مجلس التخطيط وقد اثبت جدارة عالية في مسؤولياته فوصفه صدام حسين وهو يقدمه الى جاك شيراك رئيس الوزراء الفرنسي بقوله هذا هو عقل الحزب الاقتصادي واليد النزيهة التي تتحكم بواردات النفط .

كان عدنان الحمداني اهم عضو في مجلس قيادة الثورة بعد صدام حسين فاثار حفيظة رفاقه في قيادة الحزب وفي قواعده .

وكانوا يسمونه (مدلل صدام) وهي تسمية سيئة وغير صحيحة فقد كان عدنان مدلل والده الذي وضع تحت تصرفه وهو في الخامسة عشر من عمره سيارة دوج امريكية يوم كان صدام حسين لايجد دابة تنقله من قرية العوجة الى مركز تكريت .

اما سلوك عدنان مع عشيرته فقد كان كسلوك اشقائه ! فلم يزر احدا الا القليل منهم ولم يدخل بيت خاله - والدي - الذي يبعد نصف ميل عن بيت والده طيلة عشر سنوات . ولم يعد يعرف ان اخواله سادة (الرميثة) واشرافها ولم يسمح لشيخ

المشيرة الحمدانية بزيارته ، لا فى مكتبه ولا فى مسكنه ! فاضطر الشيخ « خضير شويرد » المقيم فى مضارب القبيلة على بعد عشرين كيلو مترا من بغداد فى منطقة « المحمودية » ان يهدى على طريقة القبائل صغرى بناته زوجة لعجوز من اهالى « الدور » قريب لعزة الدورى نكاية بعدنان الحمدانى المتنكر لاعراف القبيلة وكان شيخنا هذا يسير امور القبيلة من خلال عزة الدورى الرجل المتنفذ ووزيرالداخلية انذاك .

لعل عدنان الحمدانى كان يعتقد ان رضا صدام عنه ولاشىء اخر سيكون مهما فى حياته .

اما انا فكنت مازلت منسجما مع جناح عبدالخالق السامرائى واواصل انتقاداتى لصدام حسين وسلوكه فيعتبر عدنان ذلك انتقادا موجها ضده . وطالما دخلنا فى خلافات حادة .

وفى عام ١٩٧٥ استدعيت بعد فترة قضيتها بوزارة التربية الى العمل ثانية فى الاعلام وتسلمت رئاسة تحرير مجلة « الف باء » وانعقدت بينى وبين صدام اواصر جديدة بينما بقيت علاقتى بعدنان متدهورة فتدخل صدام شخصيا وقد رأى خلو المجلة من اى ذكر لعدنان الحمدانى وطلب الى ان اخصص له على صفحات المجلة مالخصصه لغيره من قادة الحزب !

كان ذلك عام ١٩٧٨ .. !! ثم عقد الميثاق الوحدوى مع سورية فكان عدنان الحمدانى من اشد المتحمسين له وعادت علاقتنا الى شىء مما كانت عليه قبل ربع قرن . وقد وجدنا فى الوحدة مع سورية احياء لعنفوان قومى وحدوى واعادة اعتبار لحزبنا الذى تورط فى مؤامرة انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة .

لكن شيئا اخر كان يدفعنا الى الوحدة هو بغضنا المشترك لميشيل عفلق وجناحه واعتقادنا ان الوحدة الجديدة ستكون نهاية لخط ميشيل عفلق ونفوذه .

عين عدنان الحمدانى رئيسا لديوان رئاسة الجمهورية بدرجة نائب رئيس وزراء لمدة ٤٨ ساعة . وكان قد زار دمشق مبعوثا عن الرئيس الجديد صدام حسين ليبلغه بان مؤامرة اكتشفت ضد الرئيس الجديد وقد اعتقل المتورطون بها !

وعاد عدنان الحمدانى الى بغداد فاستدعى لاجتماع مع الرئيس صدام حسين ولم يعد الى داره ! وقد نفذ فيه الاعدام رميا بالرصاص بعد ان كسروا عموده الفقرى واعلن فى قرار التجريم ان عدنان الحمدانى كان يستلم راتبا شهريا من حافظ الاسد مقداره (٢٠٠دينار) ! وعدنان الحمدانى كما يعرفه العراقيون كان هو الذى يمنح القروض للدولة ويوقع على صفقات النفط الكبرى وتحت تصرفه مخصصات مناهج الاستثمار وعقود الشركات العالمية وسلمت جثته بلا عيون !

اما والدته فقد انقطعت عن الطعام والشراب حتى ماتت فى فراشها ومات والده بعد حين .

مرتضى الحديثى

ينتسب الى حديثة جزيرة تتوسط الفرات على بعد سبعين ميلا من دخوله الحدود السورية العراقية وقد امضيت فيها طيلة العام الدراسى ١٩٥٩ - ١٩٦٠ مدرسا للادب العربى فى ثانويتها الوحيدة وهى اول مدينةاعيش فيها بعد مسقط رأسى فى كرادة مريم ببغداد حيث استولت السلطة الحالية عليها فحولت الى مستوطنة للقادمين من القرى الحاكمة .

لم يكن فى حديثه التى وصلتها عند غروب الشمس فندق او مطعم فاذا دخل اليها غريب مثلى دعى حالا ضيفا على احد البيوت وقد اعتاد الحديثيون بناء جناح ملحق للضيوف واطعامهم مادامرا هناك واستمرت ضيافتى احد عشر يوما فى دار يملكها صاحب محل صغير لبيع الادوات المنزلية لكنه كان يحمل نفسية شيخ قبلى واسع النفوذ والامكانيات .

امضيت الليلة الاولى على اصوات صرير دائم لم ينقطع ياتى من النواعير وهى دواليب خشبية تدور بقوة الماء وتحمل قوارير مشدودة بها مياه النهر الى ساقية فى اعلى الشاطىء . وكانت الجزيرة قد احتشدت بسكانها فبنوا لهم على ضفة النهر اليمنى دون اليسرى التى ظلت غير مأهولة .

فى اليوم الثانى وكنت جالسا فى مقهى تحت شجرة توت تقدم الى رجل فى عقده السابع نحيف يرتدى لباسا عربيا معروق الجبين كانه يطل من وداى التهامة وقدم نفسه سعيد عبدالباقى واخذ يتحدث عن ابنائه وهم كردى وتركى وعجمى ومرتضى وكان احدهم متوفيا ولا اتذكر ان ذاك هو تركى ام عجمى لكنى اعرف الاول وهو كردى معلما فى احدى مدارس الناحية .

اما مرتضى فقد قال والده انه انهى دراسته الثانوية توا ولو رسب هذا العام لكان احد طلابك وكان سعيد عبدالباقى لايدرى الى اية كلية سيذهب بابنه لعدم حصوله على علامات تؤهله لدخوله الجامعة واظنه قرر ارساله الى معهد فى تركيا لدراسة الرياضيات .

من تقاليد اهالى الحديثه ان الاخ ينفق على اخيه مادام طالبا وقد يكون الاخ عاملا فى محطة لضخ النفط الى موانىء البحر الابيض المتوسط وهى تمر بناحية حديثه ، بينما تجد اشقاءه اساتذة فى الجامعة او اطباء او قادة عسكريين .

وبهذه الطريقة تخرج من هذه الجزيرة الصغيرة مئات من ذوى الكفاءات العلمية

الذين يحتضنهم اقربائهم في المدن العراقية ويوفرون لهم الوظائف المطلوبة بسهولة كبيرة.

ويوما بعد اخر قد اغرق بعواطف ابوية كانت تتدفق من قلب سعيد عبدالباقي وشيوخ بمثل سنه في تلك الجزيرة التي لايعرف سكانها ماكنا نعرفه في مدينتنا . فهم لايشتمون الانبياء اذا غضبوا كما نفعل ولايحتفظ قاموس اللهجة الدارجة الا بالقليل من التشاتم والتشهير والتعشير فاذا غضب احدهم لعن النيم والمطر .

وكنت ترى سعيد عبدالباقي يحمل على ظهره كيسا من البقلاء او العدس اومحصول اخر يأتيه من حصته في مزرعة صغيرة وهو يتوجه به الى بيتي قائلا : هذه حصتك من الحاصل .

ومضى عام كامل ولم تتح لي فرصة ان ادفع من جيبي ثمن الشاي لصاحب المقهى . ذلك ان احدا من الجالسين قد لا اعرفه هو الذي سيدفع ثمن الشاي او ان صاحب المقهى يأنف من استلام ثمن الشاي من ضيف في تلك المدينة .

ولم اتناول طعامي في اية عطلة داخل بيتي لان الحديثين يتسابقون الى حجزك لموعد على الغذاء واخر على العشاء .

وتركت هذه المدينة في العام التالي بعد ان وصفتها في كلمة نقلها عني احد الطلاب الى اذاعة لندن فحصل بها على الجائزة الاولى لافضل رسالة يصف فيها المرسل مدينته ويدعى الطالب محيي عبدالوهاب .

وكان مذيع لندن العربية مندهشا بالمدينة الجاثية وسط الفرات وعلى يده اليمنى وفي بساتين ترويها النواعير وبين بشر ينجب الفلاح والكاسب والعامل منهم طبيبا في كل عام وعسكريا في كل الاعوام .

لكنهم عرفوا صراعا في تلك الفترة بين اتجاه حزب البعث واتجاهات دينية مستقرة لكن لم يؤثر حتى ذلك الحين على مايبدو حال من الانسجام الاجتماعي الذي تفتقر اليه مدن اخرى .

ومن الغريب ان يعزو الى طلاب موالون لسلطة الزعيم عبدالكريم قاسم لم يكن يتجاوز عددهم العشر مسؤولية ذلك الصراع في رسالة رفعت الى رئيس المحكمة العسكرية فاضل عباس المهداوي الذي احالها الى وزير التربية احتفظ بها الوزير في ملفي الشخصي رافضا تدخل رئيس المحكمة في شؤون وزارته ولم اكن في الحقيقة الا في بداية التدرج الحزبي لكن كتاباتي مستمرة في الصحف كانت توحي لهم بأني موقعا قياديا وضلعا في نشر الحزبي هناك .

كانت المدينة بعثية الا في جيوب صغيرة.

المسنون والمراهقون الطلاب والمدرسون بائع الشاي وشارب الشاي والنوتي في

الزورق الصغير بين الساحل والجزيرة كان يشعر وكأنه يقود زورق الحزب :

لقد اعتقدوا جميعا ان الشيوعيين فى بغداد يريدون سلب العروبة منهم ويمنعونهم من الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة حيث يتسال فى كل يوم كتاب او رجل او صاحب مهمة حاملا عبر الحدود السورية شيئا لاهل المدينة .

ولم يكن يعكر اعمال التبشير الحزبى سوى انتقادات حادة تصدر عن جماعة دينية ضد انتماء عرب مسلمين الى حزب يقوده شخص غير مختون .

كانت مشكلتهم الكبرى هى هذه ولعلها ايضا كانت مشكلة البعثيين النفسية وكان منتقدوا البعثيين يطلقون عليهم اسما خاصا مستمدا من هذه (العلة) وعلى طريقة تقسيم الناس الى عشائر قسم البعثيون الى عشيرة تسمى « بنى قلفة » .

وكان جارى وهو شيخ من تلك الجماعات الدينية يأسف لانى من بنى قلفة !

مرت اعوام قليلة قبل ان التقى ببغداد بمرتضى سعيد عبدالباقى الحديثى والذى اصبح من قادة الحزب فلمست فيه شعورا كان غريبا على وكان غريبا ان يصدر من حديثى ازائى وانا المحب لحديثة ولاهلها فاكتشفت انه يعتقد من خلال مقال يومى كنت انشره فى جريدة عراقية انى متعاطف مع الجناح اليسارى للحزب . حتى اذا استولى الحزب على السلطة فى ١٩٦٨ كان مرتضى من الكوادر الاساسية ولكن فى الخطوط الثانية :

وعندما رشحت لموقع اخبرنى وزير الثقافة والاعلام عبدالله سلوم السامرائى بان مرتضى الحديثى كان يحرض القيادة القطرية ضدى واضاف عبدالله سلوم ان مرتضى الحديثى يستخدم رأس حربة من قبل صدام ضده وضد وزراء اخرين .

ونقل لى ان احمد حسن البكر قال له سأجرى تعديلا وزاريا يتيح لكل الجالسين فى المنظمة ان يكونوا وزراء وبغير ذلك فاما ان يموتوا كمدا على الوزارة او يحصل الذى حصل فى انشقاقات الحزب فى ١٩٦٣ .

وهكذا اصبح مرتضى الحديثى وزيرا للاقتصاد ثم وزيرا للخارجية وترأس الوفد العراقى عام ١٩٧٢ مع شركات النفط فى المفاوضات التى انتهت بتأميم النفط .

ظهر مرتضى عكس ماكان يتوقع منه صدام حسين فقد مارس فى مسؤلياته الوزارية والحزبية دور القائد الحزبى الذى يمتلك حق اصدار القرار والتصرف بشجاعة .

ولم يكن انتقادا عليه او ضده انه استدعى ابناء « حديثة » واسند لهم مواقع ادارية وحزبية عليا . ان بوادر تسريحه اصبحت معروفة فعليه ان يغادر طائعا اومكرها مواقعه وابلغ بأن عليه ان لايرشح نفسه عضوا للقيادة القطرية فى مؤتمر

حزبي قادم .

وارسل سفيرا في اكثر من عاصمة واستدعى الى مؤتمر للسفراء في بغداد فتحول المؤتمر الى مصيدة فئران واخذ مرتضى سعيد عبدالباقي الى السجن محكوما بخمسة عشر عاما في اليوم الخامس من اب عام ١٩٧٩ .

وسلمت « جثته » لزوجته في عام ١٩٨١ ملفوفة بقماش وبداخله مجموعة عظام.

اما شقيقه كردي فقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات وكان عضوا مرشحا للقيادة القطرية.

ويبقى السؤال العريض والمحير عن رجال المنظمة السرية الذين اشتركوا في صناعة الموت والذين يستجيبون وهم بعيدون في الخارج الى بطاقة دعوة من صدام تحملهم الى المقابر صامتين .

لقد نقلوا مرتضى الى بيته محمولا في كيس وفي ذاكرتي صورة والده يحمل كيس العدس في طريقه الى بيتي .

محمد عايش

جاء الى بغداد يبحث عن عمل في ادارة الهاتف بعد بطالة شاقة وطويلة قضاها في قريته التابعة لقضاء الفلوجة التابعة لمحافظة الانبار التي كانت تسمى الدليم ولم يكن مؤهلا فاستخدم لحمل السلم خلف العامل الفني المتجول لاصلاح الاعطاب في اعمدة الهاتف واتصل بالحزب الذي يفتقر الى تنظيمات عمالية واسعة.

ولما كان البحث جاريا عن رفيق حزبي من اهالي الدليم وتوابعها مرشحاً على رأس قائمة الحزب في الانتخابات العمالية وقع الاختيار على محمد عايش لكنه اخفق اخفاقا كبيرا في الحصول على تأييد العمال العراقيين المتمرسين في الاعمال النقابية .

وفي اعقاب انقلاب ١٧ تموز ومجيء الحزب الى السلطة صار محمد عايش رئيسا لاتحاد العمال العراقيين وقد رقي حزبيا اكثر من مرة ولان الحزب يريد ان يبدو في مواجهة الاحزاب اليسارية وجناحه السوري حزبا عماليا دفع بمحمد عايش عضوا في القيادة القطرية اي عضو في مجلس قيادة الثورة ثم صدر مرسوم جمهوري بتعيينه وزيرا للصناعة .

عرف محمد عايش وهو رئيس اتحاد العمال زبونا يوميا للهي يدعى الملاحونة الحمراء حيث تنصب طاولة خاصة يتحلق حولها محمد عايش ورفاقه في الاتحاد ولن يغادروا الطاولة قبل ان يعبوا في اجوافهم قناني الويسكي حتى الثمالة وقد

اوشكت خطوط الفجر على الظهور .

وكان محمد عايش ينام فى النهار ويخرج الى الاتحاد فى المساء .

لم التقى بمحمد عايش الا فى مناسبات قليلة لكن اتذكر فى شتاء ١٩٧٩ سهرة ليلية فى مطعم فى العاصمة التشيكية براغ كنت مدعوا اليها من قبل السفارة العراقية فوجدت محمد عايش هناك مدعوا هو الاخر وكان يحضر اجتماعات الاتحاد الدولى لنقابات العمال .

ولم يكن انطباعى عنه اثناء الجلسة المشتركة افضل من انطباعى الذى يتشكل من مسموعات يتندر لها الصحفيون عنه .

لكن تصرفا لم يكن يخطر على بالى كان مثيرا للاشمئزاز وقد تقدم محمد عايش الى حلبة الرقص وفتح قنينة وسكى وادخل رأسه بين فخذى الراقصة وعلى طريقة دخول العجل بين ساقيى امه للرضاعة واخذ يسكب الوسكى على جسدها لينزل الى فمه المفتوح كانت تلك حركة شاقة لم ينجح فى اتمامها وقد رفسته الراقصة بعد ان صب عليها الوسكى .

ورأيته اخر مرة فى مكتب عدنان الحمدانى بوزارة التخطيط فى الشهور الاولى ١٩٧٩ وكان يدخن سيجار هافانا وقد ادهشنى كلمات الود التى كان الحمدانى يتحدث بها مع عايش على مابينهما من فروق فى النشاط والتربية والسلوك ، فاذ ودعه عند باب المكتب قلت له : مايعجبك بهذا ...؟

قال عدنان : هذا قائد عظيم .

الان وبعد عشر سنوات على هذا المشهد لم يبرح سؤال وحوار دائم مع نفسى عن ذلك السر الذى يجعل عدنان الحمدانى وهو فى موقع حزبى ورسمى اعلى من موقع محمد عايش ومع اختلاف السلوك ما الذى يجعله ينظر اليه قائدا عظيما ؟

من المؤسف ان اكتفى بالاستهزاء من محمد عايش والسخرية منه ولم اراصل معرفة سبب اعجاب عدنان الحمدانى به لكنى اعتقد واستنادا الى تجربة طويلة ان ودا مشتركا بين اثنين من رفاقنا يعنى اشتراكهما فى موقف العداء لثالث .

فمن هو الثالث الذى اتفق على بغضه الاثنان ؟

هل هو صدام حسين كما سيظهر ذلك فيما بعد ام مجموعة احمد حسن البكر وبالاخص طه ياسين رمضان الجزراوى الذى اعرف تماما مقدار مابينهما وبينه من عداء مشترك ؟ ولاننى اعرف تماما ان احمد حسن البكر كان يشعر بالخجل كلما ذكر اسم محمد عايش وزيرا من وزرائه .

وهنا اروى مقطعا من حوار مع الرئيس احمد حسن البكر وقد اعتاد بين فترة واخرى استدعائى لمكتبه مساءا وكنت احس بمدى ارتياحه لانتقادات تتسرب بين

كلماتي قال الرئيس البكر وعلى طريقته :

انه كان سابقا اذا غسل يديه بصابون (الجمال) العراقي ظلت رائحة الطيب عالقة بيديه حتى بعد عودته من العمل . فما بالنا اليوم لانملك صابونة طيبة ؟

قلت : ان هذا سيدي الرئيس امر طبيعي فحيث يكون حامل الدرج وزيرا للصناعة فلا نتوقع ان تكون رائحة الصابونة طيبة . فابتسم الرئيس قليلا وقال : سألتك عن الصابون لا عن الوزير قلت : رائحة الصابون من رائحته .

وحين وجدت الجو النفسي للرئيس مهيئا لمواصلة الحديث رويت له مشهد محمد عايش في براغ وشعرت عند انتهاء الرواية ان دوارا اخذ يلف رأس الرئيس .

لكن اعدام محمد عايش قلب الصورة تماما فقد ظهر في حوار مع صدام حسين شجاعا وجريئا وقد سأله صدام :

هل تتذكر اننا جئنا بك من عامل يحمل الدرج وينتظر اوريات حمل التراب لنقله من الفلوجة الى بغداد وجعلناك قائدا ووزيرا . فقال له محمد عايش نعم ان الذي جاء بصدام من العوجة الى القصر الجمهوري هو الذي جاء بي الى وزارة الصناعة .

فهاجمه حراس صدام الشخصيين وفجوا رأسه امام الحاضرين وحين اعدم سلمت جثته بدون لسان ولم يكن مع رفاقه في ساحة تنفيذ الاعدام فقد قتل في التعذيب اما زوجته فقد كانت اشجع نساء المحكومين بالاعدام فذهبت الى السجن شامخة كما ذهب زوجها الى الموت شامخا .

وليد الجنابي

مايزال اسمه شبه مجهول في الوسط الحزبي .

كان وليد الجنابي معلما في احد المدارس الابتدائية حين استدعي في عام ١٩٦٨ عضوا في لجنة لدعم منظمة فتح الفلسطينية مرتبطة بنقابة المعلمين العراقيين التقنية هناك حيث كنت المسؤول الاعلامي عن اللجنة .

ولوليد رأس ضخم بنظارات ضخمة يجلس على جسم مربوع وبين اسنانه قطعة عاك يلوك بها وفي جيبه مشط صغير يسلته بين ساعة واخرى لتصفيف شعرات رأسه المتساقطة .

هذه صورته في كل مرة ولاتتم ملامحه لا على شيء من الذكاء ولا شيء من الغدر .

ولم اعد التقي به وقد انقطعت عن تلك اللجنة في اعقاب استلام الحزب للسلطة وتفرغي الكامل للاعلام لكننا التقينا بعد عام وعندما استفسرت عن غيابه هذه المدة

قال : انه مكلف بمهمة حزبية خاصة .

ومضى عام اخر وقد نقلت الى الرباط فى المغرب مديرا لمكتب وكالة الانباء العراقية فى اواخر ١٩٧٠ ففوجئت بوليد الجنانى ملحقا صحفيا فى السفارة العراقية على مابينه وبين الصحافة من مسافات وحواجز ولم يطل الوقت حتى تكونت لدى فكرة واو مشوشة عن مهمته الحزبية الخاصة والجهة التى رشحته لبعثته فى السفارة فقد كان يكثر فى جلساتنا الخاصة من ترديد اسم ناظم كزار مدير الامن العام ويهدد به السفير الذى كثرت ضده تقارير الموظفين والمستخدمين والتى تجد اذانا صاغية فى الخارجية واجهزة الامن والاستخبارات لكون السفير وهو اللواء فاضل المساف واحدا من المساهمين فى انقلابين عسكريين على الاقل هما ٨ شباط ١٩٦٣ و ١٧ تموز ١٩٥٨ من خلال علاقته الصميمة بالرئيس احمد حسن البكر .

لكن السفير كان حريصا على ان يكون وليد الجنانى وانا الى جانبه فى كثير من المناسبات وكان متوقعا ان نذهب جميعا ضحية قصف تعرض له مطار الرباط فى تموز ١٩٧٢ ، من قبل طائرات عسكرية مغربية كانت تطارد طائرة البوينج ٧٢٧ ، التى تقل الملك الحسن الثانى فى محاولة انقلاب الجنرال اوفقير . فتفرقنا تحت الاشجار وقد احترقت معظم سيارات مستقبلى الملك .

وعندما تقرر نقلى الى بغداد فى الوقت الذى انتهت مهمة وليد الجنانى ، عدنا سوية بسيارتى الخاصة من المغرب الى العراق فى رحلة استغرقت اسبوعين من الاحاديث المشتركة .

سألت وليد : ماهو العمل الردىء الذى كلفك الحزب به وانجزته او انك بادرت اليه بنفسك خلال حياتك الحزبية .

قال : اجب انت اولا على سؤالك .

قلت : انك تعلم اننى قضيت حياتى مابين التدريس والصحافة ولم ادخل الى اعماق المنظمة الحزبية ولهذا فان اخطائى تقتصر على اعمال التبشير التى تتضمن عادة انتقاد الجماعات السياسية الاخرى لكنى لا استطيع ان اتصل من اعمال سيئة وتصرفات صدرت ضد عائلة حامد قاسم شقيق الزعيم عبدالكريم قاسم سواء فى فترة معارضتنا لحكومة قاسم ام بعد انقلاب شباط ضده رغم ان ابناء حامد لم يسيئوا لاحد من ابناء المحلة ولم يتصرفوا تصرف ابناء الحكام ورغم علاقة مصاهرة وصداقة تمتد الى ايام الطفولة .

قال وليد : سأروى لك واحدة فقط من المهمات الخسيسة التى كلفت بها والتى تطاردنى اشباحها وانا فى المغرب وانا هنا على جبال البلقان فقد ابلغنى المسؤول

الحزبي بقرار نقلي من التعليم الى هيئة التحقيق في معتقل قصر النهاية ابتداء من ١٩٦٩ وقد اشرفت على عمليات التعذيب ضد شخصيات معروفة من بينهم عبدالرحمن البزاز وقد دعيت بعد منتصف ليلة الى غرفة ناظم كزاز في قصر النهاية وكان الى جانبه عدد من اعضاء القيادة من بينهم صدام حسين وعبدالكريم الشيخلي وطلب الي ناظم كزار التوجه الى مستشفى التويثه (مستشفى التدرن الرئوي) وجلب اربعة مرضى من المصابين بحالات ميئوس من شفائها . فزودت بكتاب وقعه في الحال احد الحاضرين صادرا من مجلس قيادة الثورة الى مدير المستشفى لاختيار العدد المطلوب من المرضى وتسليمهم لي على ان لا اترك كتاب المجلس هناك .

يقول الجنابي ان الامر قد اختلط علي وانا في طريقي الى المستشفى فما علاقة هيئة التحقيق بمرضى السل ولم افكر بأن مهمتي كانت لارسال هؤلاء المرضى للمعالجة في الخارج لكني كنت على يقين ان اجهزة جديدة او اساليب جديدة لنزع الاعترافات ستجرب على هؤلاء المرضى ولم يكن لي ان اسأل عن شيء من ذلك اذعانا للنقوس الحزب والتزاما بمبدأ (نفذ ثم ناقش) وكان على ان انفذ وقد لايكون من حقي ان اسأل حتى بعد التنفيذ .

يستمر وليد الجنابي

حينما عدت بالمرضى في سيارة لاند روفر كنت امد رأسي خارج النافذة وانا اسوق السيارة بسرعة طائشة خوفا من ان تختلط انفاسهم بأنفاسي حتى اذا دخلت بهم الى المعتقل وقد توضحت خطوط الفجر فوجئت بصف من الموقفين معصوبي العيون وهم من القوميين العرب والبعثيين المنشقين (يقصد اليساريين جماعة سورية) فبدأ ناظم كزار يتحدث اليهم قائلا وكان صدام حسين مايزال في مكتبه في المعتقل ينتظر خطوات تنفيذ العملية (اننا قررنا الافراج عنكم فاذا تسرب شيء عن حياتكم هنا فستعودون الينا حالا وستتحملون مسؤولية مايصيبكم من عقاب) واشار الى المرضى الاربعة بالتقدم وواصل حديثه الى الموقفين بانه سيودعهم بعد ان يفتح كل واحد فمه ليبحق الرفاق فيه .

وتقدم المرضى فنفذوا مامطلبه ناظم كزار وعدت بهم فاستفسر احدهم عن سبب ذلك فقلت : ان الحزب قرر ارسالكم للخارج للمعالجة فقال صاحب السؤال ولماذا يصدقنا اذا في اقوالهم ؟

فقلت لكي ننقل المرض من اجسام المواطنين الطيبين الى اجسام الخونة والجواسيس وانتم مواطنون فقراء لايجوز ان تموتوا ليعيش هؤلاء الاثرياء اعداء

الوطن .

ففرح الجميع وقالوا : الله ينصركم .

حين انتهى وليد من سرد روايته شعرت بالاعياء فتوقفت عن سياقة السيارة ولم يكن هو الاخر قادرا على السير مسافة اخرى .وفي فترة استراحتنا في فندق على الحدود اليوغسلافية البلغارية واصل حديثه المشحون بالندم والشعور بالذنب فسألته من اين تأتيهم هذه الافكار : كيف فكروا بمرضى السل والبصاق في افواه المعتقلين ؟

قال : هذه افكار عبدالكريم الشيخلي وزير الخارجية انذاك والطالب السابق في كلية الطب وهو يستخدم معلوماته الطبية في قضايا من هذا القبيل .

يضيف وليد الجنابي انه لم يعد يستطيع الاستمرار في عمله بهيئة التحقيق . فقدم التماسا الى ناظم كزار بأن يسعى لارساله في احدى الملحقيات الصحفيةاو التجارية خارج العراق . وهكذا وصل الى المغرب لكنه لم يتخلص من ذكريات قصر النهاية .

وفي بغداد عين وليد الجنابي معاونا لمدير عام وكالة الانباء العراقية المكان الذي كنت اشغله سابقا ونقلت الى وزارة التربية فترة قبل ان اعود الى مجلة الف باء وقد اصبح الجنابي مديرا عاما لدار الثورة التي تصدر عنها جريدة الحزب اليومية . فالتقينا مرة اخرى في الاجتماع الاسبوعي الموسع لمكتب الثقافة والاعلام القومي والذي يترأسه صدام حسين وقد سأل مرة عن رفيق غائب اسمر اللون بنظارات سميكة واشار الى مكانه فقيل له ان هذا الرفيق هو وليد الجنابي .

وعندما عاد الجنابي من سفره الذي حال بينه وبين حضور الاجتماع اخبرته عن استفسار السيد النائب (صدام حسين) والذي لم يكن يعرفك حتى وانت تحضر اجتماعات المكتب الاسبوعية فذعر وليد الجنابي وقال : ماذا يقصد السيد النائب .. انه هو الذي اصدر قرار تعييني قبل عام مديرا لدار الثورة بعد مقابلتي له وقد مررت عليه في الاسبوع الماضي لمناقشة اوضاع دار الثورة والتي على اثرها سافرت الى الخارج .

وحين هدأ روعه .. قال وليد الجنابي : ان شيئا لا اعرفه وراء تجاهل صدام حسين معرفته بي فماذا افعل ؟

قلت : هذه مخاوف وقد يكون السيد النائب قد التبس عليه الامر .

قال وليد : لا ..... ان الامر يتعلق بدوري في قصر النهاية .

وقد يكون صدام مستاءا من موقف سابق لي معه في احدى المؤتمرات الحزبية عام ١٩٦٦ فأشار صدام الى خاصرته حيث موقع المسدس قائلا : اتركوا

الموضوع لى . فرددت عليه بعنف قائلا : ان حزبا له تنظيمات قديمة ونظرية سياسية وتجربة كالحزب الشيوعي لانستطيع القضاء عليه بالمسدس . ولدينا تجربة سابقة معه فلم ننجح واضفت ان علاقتنا بالشيوعين يجب ان تناط لمثقفى الحزب . وتوقف الجنانى عن حديثه ثم قال سأطلب تفرغى من الوظيفة لاكمال دراستى الجامعية او الانتقال الى وظيفة صغيرة لاتجعلنى امام الضوء .

وهكذا انتقل وليد الجنانى الى وزارة الصناعة وتقدم لدراسة الماجستير .

فزارنى فى شهر مارس ١٩٧٩ وظل يدور حول جدران المكتب الى ان طلب المساعدة فى الحصول على مصادر حول موضوع دراسته . ولم يأخذ مكانه فى الجلوس وترك المكتب ولم اقتنع بأن طلب المصادر كان سبب الزيارة .

لقد اراد ان يقول شيئا . لكن صورى الكثيرة مع صدام حسين على جدران المكتب جعلته يعتقد بأن صاحبه الان هو غير صاحبه القديم .

ومرت اسابيع قبل ان يرد اسم وليد الجنانى فى بيان صادر عن محكمة حزبية خاصة ، محكوما بالاعدام .(بتهمة التآمر مع الرئيس حافظ الاسد)ضد صدام حسين فأعدم وليد الجنانى رميا بالرصاص فى الثامن من آب ١٩٧٩ مع عدنان الحمدانى وخالق السامرائى وآخرين ..